روايات تاريخ العرب والاسلام

اميل حبشي الأشقر



لقاء المحبين

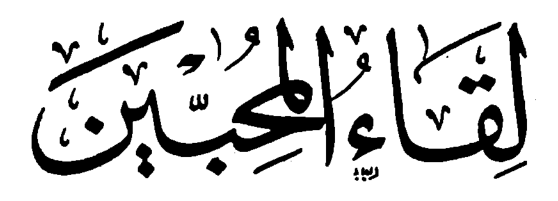
طارق العربي

دار الأندلس

لقاء المحبين

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر



لقاء المحبين

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ - ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

١

نادى منادي سعد ، بعد الفراغ من امر القادسية : الى المدائن .. الى ايوان كسرى ؟

جعل في الطليعة ، زهرة بن الحوية ثم لحق بزهرة ، عبد الله بن المعتّم ، ثم شرحبيل بن السمط ، ثم هاشم بن عتبة ، وقد جعله سعد خليفة له ، بدلاً من خالد بن عرفطة .

فنزل الجميع في موضع الكوفة ، ولم يلبثوا حتى ارتحلوا يريدون المدائن وزهرة امامهم الى ان انتهى الى بلد يقال له برس .

وفي برس طائفة من الفرس اراد قائدها ان يتصدى للمسلمين ، فهزموه ومن معه الى بابل ، ثم مات فيها من طعنة كان زهرة قد وهبها له ..

وكانت فلول الفرس ومن بقي من رؤساء القادسية ، قد لجأوا الى بابل وعولوا على الدفاع حتى الموت ولولا بسطام ، احد زعماء الفرس في برس، لما علم زهرة شيئاً من امر هؤلاء !!

اتى بسطام زهرة وقال له : لقد أحببت العرب وانا ارى ان النصر سيتم لكم في جميع الميادين واني ناصح لكم . قال : بماذا ؟

قال : ان قواد الفرس مع الجيش الذي فرّ من القادسية يقيمون ببابل وهم كثار وانت لا تستطيع مع المقدمة ان تحمل في بابل لواء الظفر .

— ومن هم هؤلاء القواد ؟

— اربعة لا اذكر اسماءهم وقد كانوا جميعهم مع رستم .

قال : لقد كانوا في القادسية خمسين قائداً ولم نبالِ .قال: اما انا فقد نصحتك.

فكتب زهرة الى سعد وكان قد نزل الكوفة ، فتعجل في المسير الى برس ، هو وقواده ، ثم بعث الى بابل بأولئك القواد .

واقتتل القوم ، فأظفر الله المسلمين ، وانطلق الفرس على وجوههم يتلمسون ابواب النجاة من ذلك السيف القاطع الذي تحمله طوائف من الجنّ ..

وتفرّق قوادهم في الاقاليم يستولون على ما تقع عليه العين ، وما تصل اليه الايدي ، من مال ، سار الهرمزان ، القائد الى الاهواز فأخذ ما فيها من أموال كسرى ، وخرج الفيرزان ، القائد الآخر ، حتى طلع على نهاوند فوضع يده على كنوز الاسرة المالكة ، وفرّ مهران الرازي ، وقائد آخر الى المدائن ، عابرين « بهرسير » الى الجانب الآخر من دجلة ، وقد قطعا الجسر ، واستخلفا على الجند، في بلد يدعى كوثى ، عظيما من عظماء فارس يقال له شهريار ، وهو من الابطال .

وكوثى قبل بهرسير .

فأمر سعد زهرة بأن يلحق بالقوم، ففعل ، وعندما التقت الخيل بالخيل خرج شهريار فنادى : « الا فارس منكم عظيم شديد يخرج اليّ فاقتله » !

فقال زهرة : والله لا اخرج اليك الا عبداً .. فان أقمت له قتلك ان شاء الله ببغيك ، وان فررت منه فانما فررت من عبد .

وأومأ الى ابي نباتة، نائل بن خثعم الاعرجي وهو من ابطال بني تميم ، فخرج اليه ومع كل واحد منهما رمح وكلاهما واثق بنفسه .

فلما رأى شهريار نائلاً ، ألقى الرمح وألقى نائل رمحه وجردا سيفيهما فاجتلدا، ثم اعتنقا فخرّا عن فرسيهما ووقع الفارسي على العربي .. ثم تناول خنجره وأراد ان يحل درعه ليغمد ذلك الخنجر في صدره ، فوقعت ابهامه في فم نائل فحطم عظمها ، ثم وثب فاحتضنه وجلد به الارض ، ثم قعد على صدره وأخذ خنجره فجعل يطعنه به حتى مات .

فأصيب الفرس بالذهول، وبدلا من ان يخوضوا المجال ويثأروا بسيدهم القتيل، لووا أعناق خيلهم ولجأوا الى مواضع لا يرون فيها مسلماً ..

وأخذ نائل فرس عدوّه وسواريه وأقام الجيش بكوثى حتى قدم سعد ، فخبره زهرة خبر نائل ، فدعاه اليه فقال: عزمت عليك يا نائل لتلبسنّ سواريه وقباءه ودرعه ولتركبنّ فرسه وكل ذلك غنيمة لك ، فانطلق فتدرع ، ثم اتاه في سلاحه وسواريه وهو على فرسه، فقال: اخلع سواريك الاان ترى حرباً فتلبسها.

فكان نائل أول رجل من المسلمين سوّر بالعراق .

ثم زحف زهرة مع مقدمته الى بهرسير ليحاصروا المدائن ، والمدينة القديمة من المدائن الغربية ، تقابـل بهرسير التي ذكرت ، فلقي زهرة امير ساباط يسأله الصلح على ان يؤدي اليه الجزية ، فأرسله الى سعد فصالحه على ذلك ، ثم اقبـل سعد والمسلمون ليشتركوا في الحصار ، وكان وصولهم في ظلام الليل .

فلاح لهم ، في المدائن القصوى ، الايوان الابيض العظيم الذي ضربت بـه الامثال في الشرق ، وتحدث به اهل قصور الروم في الغرب .

فرفع ضرار بن الخطاب صوته قائلاً :

الله اكبر ، هذا أبيض كسرى .. هذا ما وعد الله ورسوله .

وكبر الناس معه وكانوا يكبرون كلما نزلت طائفة منهم ، ثم نزلوا محاصرين في شهر ذي الحجة من العام السادس‌عشر للهجرة ، وبث سعد الخيول فأغارت‌على ما بين دجلة ، الى من له عهد من أهل الفرات فأصابوا مئة الف فلاح .

فكتب سعد الى امير المؤمنين :

« لم يأتنا في بهرسير احد لقتال فبثثت الخيول فجمعت الفلاحين من القرى والاجام فجد برأيك » .

فأجابه عمر : « ان من أتاكم من الفلاحين اذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم ، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم بـه » . فلما جاء الكتاب خلّيَ عنهم ، وراسله امراء النواحي فدعاهم الى الاسلام والرجوع او الجزاء ولهم الذمة والمنعة .

فتراجعوا على الجزاء ولم يدخل في ذلك ما كان لآل كسرى ، ولم يبق في غربي دجلة سوادي ، الا آمن ، واغتبط بملك الاسلام .

وأقام المسلمون على بهرسير شهرين كاملين يرمون اهلها بالمجانيق والعرادات « العرّادة من آلات الحرب اصغر من المنجنيق ترمي بالحجـارة المرمى البعيد » حتى اشتدّ الحصار بأهل المدائن الغربية وصبروا على امر عظيم .

فبينا القوم على ذلك أشرف رسول الملك يزدجرد على العرب فقـال : الملك يقول لكم هل لكم الى المصالحة على ان لنا ما يلينا من دجلة الى جبلنا ولكم مـا يليكم من دجلة الى جبلكم ؟ فقال ابو مقرن الاسود مقالة أنطقه الله بها .

فرجع الرجل ، ولم تلبث الاعاجم حتى عبرت دجلة الى المدائن الشرقية التي فيها ايوان كسرى والعرب ينظرون الى ذلك .

فنادى سعد في الناس ، فنهضوا ومشوا الى المدينة وهم لا يبصرون حولها احداً حتى دخلوها وقد هجرها القوم ، فأنزلهم سعد المنازل ، وجعل يطلب السفن ليعبر بالناس الى المدينة القصوى ، مدينة الايوان فلا يجد ، لقد ضم يزدجرد اليه السفن كلها حتى انه لم يبقِ على الشاطىء الآخر سفينة واحدة يستعين بها المسلمون .

وسعد يريدالعبور ويفكر فيه، ولا يستطيعه ، وهو يخشى ان يقذفبالمسلمين الى اللجة اذا هو دعاهم الى اقتحام الماء.. حتى اتاه بعض رجال فارس فدلوه على مخاضة تخاض الى صلب الوادي، فأبى وتردد في ذلك ، ثم رأى في الحلم ان خيول المسلمين اقتحمتها فعبرت ، فعولَّ على تفسير حلمه بالعبور ، فجمع الناس وقال :

ان عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه معه وهم يخلصون اليكم اذ شاءوا فيقاتلونكم في سفنهم ، وقد رأيت من الرأي ان تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل ان تحصدكم الدنيا ، الا اني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم .. فقالوا جميعاً : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل .

فندب الناس الى العبور وجعل يقول :

من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق بها الناس ؟

« الفرضة من النهر ثلمة ينحدر منها الماء وتصعد منها السفن، ومن البحر محط السفن » .

فانتدب له عاصم بن عمر ذو البأس ، وانتدب بعده ستمائة من اهل النجدات يقودهم عاصم ، فسار عاصم حتى وقف على الشاطىء فقال :

من ينتدب معي لنمنع الفراض من عدوكم ولنحميكم حتى تعبروا ؟

فخرج من الصف ستون رجلاً يقولون : نحن لها .

فجعلهم نصفين . على خيول اناث وذكور ، ثم اقتحموا دجلة ، وبقية الستمائة وراءهم .

فلما رآهم الاعاجم ، اخرجوا للخيل التي تقدمت ، خيلاً مثلها واقتحموا عليها الماء . ولقوا عاصماً وقد دنا من الفراض ، فقال عاصم :

الرماح الرماح .. اشرعوها وتوخوا العيون !

والتقوا ، فاطعنوا، وتوخى المسلمون عيونهم ، فولوا وعاصم ورجاله يلحقون بهم حتى قتلوا عامتهم ونجا من نجا منهم وتزلزلت بهم الخيل .

فلما رأى سعد عاصماً على الفراض، وقد منعها، اذن للناس في الاقتحام وكان يقول : قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه ولا حول ولا قوة الا بالله .

فتلاحق الجند وركبوا اللجة ! وان دجلة لترمي بالزبد. وان الناس ليتحدثون في عومهم وقد اقترنوا كما يتحدثون في مسيرهم على الارض .

والخيل تنفض اعرافها ولها صهيل .. حتى بلغ الجيش الشاطىء لم يغرق منه رجل ولم يبتلع الماء دابة واحدة .

وذلك امر لم يكن في حساب الفرس ، فخرجوا من مدينتهم هاربين الى بلد آخر يقال له حلوان كان يزدجرد قد بعث بأسرته اليه .

وتركوا في المدائن ما كانوا أعدُّو للحصار ، من البقر والغنم والاطعمة ، وما في بيت المال من الفضة والذهب .

فدخل سعد المدائن، ونزل القصر الابيض، وعقد الجزية مع جماعة كانوا فيه، ثم بعث الجيش الى الاطراف من جميع النواحي يغيرون ويؤمّنون المستسلمين .

وقد اتخذ ايوان كسرى مصلىّ له ، وصلىّ فيه صلاة الفتح ثمان ركعات ، ولم يكن بالمدائن اعجب من عبور الماء ، على الصورة التي قرأت .

* * *

اجتمع عند سعد ، بعد دخوله المدائن من الغنائم والاموال ما لا يحصى .

ورأى في القصر قباباً مملوءة سلالاً مختومة بالرصاص،فحسبوا ذلك طعاماً فاذا فيه آنية الذهب والفضة وكان الرجل يطوف فيبيع الذهب بالفضة متماثلين وهو يقول : من يشتري صفراء بيضاء !!

وكان زهرة بن الحويّة قد ادرك جماعـة من الفرس على جسر النهروان معهم بغل يغوص في الماء وهم يعالجون أمره .

فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه واذا عليه حلية كسرى ووشاحه ودرعه التي يتلألأ فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة .

وعثروا في مكان آخر على سفطين فيهما تاج كسرى مرصعاً وثياب الديباج التي كان يلبسها منسوجة بالذهب .

وقتل القعقاع بن عمرو فارسياً يحمل خمسة اسياف وخمسة دروع ، بينها درع كسرى ومغافره ، ودرع هرقل ، ودرع خاقان ملك الترك ودرع النعمان ملك الحيرة ، وقد استلبها الفرس ايام غزاهم خاقان وهرقـل ، وايام هرب النعمان من كسرى .

فدفعها القعقاع الى سعد فخيّره بين الاسياف فاختار سيف هرقل ، واعطاه درع كسرى ، واعطى وجوه قواده ما بقي منهـا ، الا سيف كسرى وسيف النعمان فقد بعث بهما الى عمر بن الخطاب لتراهمـا العرب .. وبعث ايضاً بتاج كسرى وحليته وثيابه .

وسمع عمر الخطاب يقول ، عندما دفع اليه سيف كسرى ومنطقته واشياءه:
ان قوماً أدّوا مثل هذا لذوو أمانة .

فقال له علي بن ابي طالب رضي الله عنه : عففت فعفت الرعية ..

فلما جمعت الغنائم قسمها سعد بين الناس وكانوا ستين ألفاً جميعهم فرسان ، فاصاب الفارس منهم اثنا عشر الفاً .

ثم قسم المنازل،وأحضر النساء والاطفال فأنزلهم اياها وأقام الجميع بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وحلوان وتكريت والموصل، ثم تحوّلوا بعـد ذلك الى الكوفة .

وارسل سعد من الخمس ، كل شيء أراد ان يعجب منه العرب .

وكان بين الغنائم ، بساط كسرى ، ويقال له القطيف ، وهو من أعجب ما كان في قصور الاكاسرة .

طوله ستون ذراعاً ، وعرضه ستون كان الملوك يشربون عليه اذا أقبل الشتاء وذهبت الرياحين ، فكأنهم وهم جالسون عليه في رياض غناء .

جعل فيه الصناع صوراً كأنها الطرق بين الخمائل، وفيه فصوص كأنها الانهار تجري في ارض مذهبة !! وعلى جوانبه الاربعة فصوص تمثل لك الارض في ايام الربيع ، ويخيل اليك عندما تراها انها النبات الاخضر والازاهير !!

وجعلوا فيه الاشجار المثمرة !! اوراقها من الحرير وزهرها من الفضة وثمارها من الجوهر ، واغصانها اسلاك من الذهب !!

وقد اراد سعد ارسال خمس « القطيف » فلم يستطع قسمته ، فقال للمسلمين : أيطيب لكم ان نبعث بالقطيف كله الى عمر يضعه حيث يشاء ؟

قالوا: اجل ، فهو قليل بيننا وقد يقع من اهل المدينة موقعاً طيباً .

فبعث به الى عمر ، فلما قسم عمر خمس الغنائم قال لاركان دولته : اشيروا علي في هذا القطيف ماذا أصنع به ؟

فأشار قوم بابقائه ذخيرة للمسلمين ، وفوض آخرون الى امير المؤمنين ان يعمل ما يشاء .

اما علي فقال : اقسمه بين المسلمين فان تبقه اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له ..

قال صدقتني اذ نصحتني ، ثم قطعه بينهم فاصاب علياً قطعة منه .

« قال ابن الاثير : باعها علي بعشرين الفاً ! »

« وجاء في السيرة الجلية : باعها بعشرين الف دينار !! »

وكان امير المؤمنين يبكي وهو ينظر الى الذهب بين يديه .

فقالوا له : ما يبكيك يا امير المؤمنين ؟ هذه الغنائم غنمها الله لنا ونزعها من اهلها ، فقال لهم :

ما فتح الله من هذا على قوم الا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمهم ، اللهمّ انه لا طاقة لنا الا ان نحب ما زينته فوفقني ان انفقه في حقه !

٢

مشى عبدالله بن الفهر ومن معه ، من حمص ، يريدون العراق .

مشوا ، والكآبة في العيون ، وآلام الخيبة في الصدور .

ولم يسمعوا ، في بادية الجزيرة ، وهم راجعون ، غير أحاديث الظفر العربي تتناقلها العربان في كل حيّ ، واخبار البسالة يذكرها الناس عن رجال الفتح .

وقد ملأت هيبة الاسلام ، تلك البادية الواسعة ، وتغنت القبائل النازلة فيها ، بالعدل الاسلامي ، يحمل لواءه عمر بن الخطاب وأمراؤه .

وكان القوم يسألون عن هند في كل مكان ، ويصفونها لكل عربي ، وكأنهم كانوا يسألون عن شخص لا وجود له .. حتى انتهوا الى القادسية ، في مساء يوم صفت سماؤه ، واشتدّ حرّه ، ولكن لم يروا في القادسية ، غير طائفة قليلة من حامية المسلمين ، بينها بعض الشيوخ والنساء والاطفال ، وليس في الحامية رجل يعرفونه .

أجل ، كانت النساء قد ذهبن بأمر سعد ، الى المدائن ، ولم يبق غير اولئك الجنود من الرباب ، ومعهم نساؤهم والاولاد ، وسيد الحامية وهب بن سليم الربابي .

فنزل الامراء ضيوفاً على وهب ، وخبّروه حكاية رحيلهم عن العراق وجعلوا يسألونه عن الجيش العربي وأميره .

والرجل يصف لهم ايام القادسية ، وليلة الهرير ، ويقص عليهم أخبار النصر الذي تمّ لسعد في برس ، وبابل ، والمدائن ، ثم ذكر لهم ان سعداً أمر بأخذ النساء الى عاصمة الفرس ، منذ شهر .

فقال عبدالله : أتعرف سيداً من سادات بني طيء يدعى أبا زبيد ؟

أجل ، وأعرف زوجته والفتاتين اللتين تنزلان في خيمته ، وكان يقول : انهما من نساء عشيرة النمر النازلة في جوار عنزة .

فخفقت قلوب الفتيان الثلاثة ، وتلألأ الدمع في العيون .

ثم قال عبدالله : هذان ولدا ابي زبيد وهذا أخو الزهراء وابن عم كبشة .

قال : لقد عرفت الآن سر كآبة الرجل وكآبة نسائه .

– اذن فانت لم تسمع من قبل حكاية هند ..

قال : يظهر ان ابا زبيد لا يشكو أمره الا الى الله عز وجلّ .

قال : أنستطيع ان نرحل غداً الى المدائن ؟

– ترحلون عندما يطيب لكم الرحيل ، فليس في طريق المدائن فارسي الا الذين استسلموا ودخلوا في عهد الاسلام . – والى أي بلد لجأ يزدجرد الملك ؟

– سمعت انه فرّ ، مع جيشه وأنصاره ، الى جلولاء وحلوان ، وان سعداً يتهيأ للزحف الى هذين البلدين بعد بضعة ايام .

قال : أسألك ان تبعث معنا من يدلنا على أول معسكر من جيش العرب .

– سنفعل ، وسيرافقكم الى المدائن ، بعض النساء اللواتي ، لم يستطعن لبعض الاسباب ، ان يرحلن مع القوم يوم أمر سعد بالرحيل .

فقال المنذر : ألا تقوم المدائن على شاطىء دجلة ؟

– بلى ، ودجلة بين المدينتين ، هذه من ناحية الغرب ، والاخرى من الشرق.

فهاجت الذكريات في صدر المنذر فقال : أرى ان يفتح سعد الشاطىء كله حتى ينتهي الى الموضع الذي يجتمع فيه دجلة والفرات ..

فقال لعبدالله : ان قلب الفتى يحن الى الشاطىء ويقوم في ذهنه انه قد يجد هنداً . قال: اجل هذا ما يخطر لي، واذا لم يشأ الامير ان يبعث بالخيل للفتح سألته ان يأذن لي في الذهاب مع قومي لنفعل نحن ما لا يفعله هو .

قال : ان للفرات شاطئين وانت ستسير على أحدهما .

– ولكني لا أنتهي من هذا حتى أبدأ بالآخر .

– وتظن ان هنداً تعود اليك ؟

– اذا لم تعد ذهبت اليها من جسر كربلاء .. ونهض وهو يغصّ بالبكاء .

فأومأ عبدالله الى وهب ان يكف عن ذكر هند،ودار الحديث دورةً اخرى حول الحرب والفتح العربي .

وكان الليل قدذهب نصفه فبات القوم على ان يرحلوا الى المدائن،عند الصباح.

٣

لقد خسرت الفرس شرفها في القادسية يا هند وانتهى الخبر الى يزدجرد الملك في الليل الماضي ، وهو في فراشه !

وكانت هند وبشتاسب على شرفة منزل في المدائن يطلّ على دجلة .

فقالت هند : ومن قصّ عليك ذلك ؟

ـ سمعت كبير الغلمان يهامس رفاقه وكان يقول : قضى الملك ليلته مضطرباً خائفاً وهو ينظر في الأمر مع رجال البلاط !

فكرهت فتاة طيء، وهي الفتاة الشريفة العاطفة، ان تشمت بأهل فارس ، وتظهر فرحها بخيبة الأعاجم ، وهي ضيفة نبيل من نبلائهم، وتقيم بعاصمة الملك.

ولكن قلبها كان يثب في صدرها سكران من خمرة النصر !.

وماذا يحدث بعد القادسية ؟ لقد قام في ذهنها ان الجيش العربي لا يلبث حتى يدخل المدائن ، فترتمي في حضن امها ، وتعانق اباها واخويها وتصافح ذلك الحبيب الذي يذوب شوقاً اليها كما تذوب هي اليه ، على انها لم تستسلم الى تلك اللذة ، حتى مرت امام عينيها غشاوة سوداء ، أبصرت وراءها أشباح الموت !!

مسكينة هند ! لقد جعلها الأسر كثيرة الظنون ، لا تبتسم للأمل الضاحك حتى يعرض لها اليأس بأفظع صوره ولا ترى افقاً زاهياً يتلألأ فيه النور ، الا لترى على الاثر ، افقاً آخر مصبوغاً بالدماء !

لقد كتب الظفر في القادسية للاسلام ، كما تقول بشتاسب ، ولكن ذلك الظفر كتبته بدمها فرسان العرب ، وقد يكون أهلها جميعهم وحبيبها المنذر ، من اولئك الفرسان الذين كتبوه !

والويل لهند اذا احتضنها الجيش العربي غداً ولم تجد فيه من تحب !

انها اذن تخسر الرجاء الذي يتغلل ضعيفاً في الصدر .. ولا يبقى لها الا ان تعود الى اللجة التي أنقذها مهاتب منها ! وغمرت مظاهر الحزن وجهها كأنها خسرت كل شيء ..

فقالت بشتاسب : الا يطيب لك يا هند ان تظفر العرب بالفرس ؟
ـ يطيب لي ان ارى قومي قبل ان يغمض الموت عيني .
ـ ولكنك سترين من تذكرين وتتمتعين بعز النصر الذي يتمتعون به !
قالت : لقد جار الزمان وانا اخشى ان يتمادى في جوره ..
ـ اما انا فقد رأيت الفرح يمشي اليك بخطاه الواسعة . فبكت .. وكانت دموعها مظهراً من مظاهر الكآبة يخلقها القلب المعذب في الحب .
وبينا هما تنظران الى دجلة الذي يشبه البحر ، والاثنتان ذاهلتان دخل أحد الغلمان يقول : لقد أقبل مولاي مهاتب ومعه بهرام .
فاضطربت بشتاسب ونهضت قائلة : لقد هربا كما هرب الجيش .
وفتح مهاتب ذراعيه لابنته ، ثم صافح هنداً وصافحها بهرام وكان مهاتب يقول : أين أخوك الاصغر يا بنية ؟ ـ انه هنا يا مولاي .. ـ والغلمان ؟
ـ جميعهم في هذا المنزل .
وجعلت تتفرس فيه وفي أخيها ثم قالت : ماذا تعني بسؤالك ؟
– أعني انه يجب ان نتهيأ جميعنا للرحيل ! – الى أين ؟
– الى حيث يريد الملك فقد ظفر المسلمون في القادسية وبرس وبابل !
– وهرب الجيش والقواد كلهم الى المدائن ؟
– أقبل الى المدائن مهران الرازي وقائد آخر ، والقواد الاخرون ذهبوا الى الاهواز ونهاوند ومعهم فريق كبير من الجنود . – واين مهران الآن ؟
– في المدينة الغربية وقد قطع الجسر وأعدّ في المدينة عدة الحصار ولكن العرب سيحطمون الاسوار ويلحقون بنا ولو لجأنا الى خليج فارس .
– ولماذا تركت انت مهران ؟
– لانه اراد ان اخبّر الملك كل شيء واسأله الرأي .
قالت : ومتى ترى الملك ؟ ـ في هذه الساعة فالزمان يكاد يضيع !
– أعتقد ان الملك يعلم الآن ما تعلمه انت !
ـ ولكن يجب ان أنقل امره الى القواد في المدينة الاخرى .

ثم قال لهند : ابشري فقد جاء قومك العرب وستخرج هذه الارض من يد يزدجرد وغسي في بلادنا غرباء ! قالها واللوعة بادية على وجهه ، ثم قام فجأةً ، وخرج يريد ذلك القصر العظيم قصر كسرى ليقابل الملك الذليل المغلوب .

وكان يزدجرد في الايوان ، والرسل تروح وتجيء بين يديه وهي تحمل أخبار الفشل ، وتصف له مواقف العار ...

فلما دخل مهاتب قال لمن حوله : هذا رسول آخر وهو بلباس الحرب .

وكانت عيناه ملتهبتين بنار اليأس ، وقـــد جعدت جبينه ليالي الهم .. ولم ينتظر ان يبدأ مهاتب كلامه ، بل فاجأه بقوله : من اي بلد انت آت ؟

– أتيت من بابل الى بهرسير يا مولاي ومنها اليك .

– وما هي اخبارك ؟ انها اخبار الذل الذي نجر اذياله بفضل قواد الفرس.. قل ما تعلم .. بل اذكر القائد الذي ارسلك .. قل ولا تتردد ..

وكان صوته يرتجف من الغضب !

فقال : لا اعلم اكثر مما تعلم يا مولاي .. لقـد فرّ الجيش الفارسي من جميع الميادين ولم يصل الى المدائن غير بقية منه بقيادة مهران الرازي .

فهزّ رأسه قائلاً : وهل تستطيع حامية بهرسير ان تثبت في وجه العرب ؟

فسكت مهاتب ولم يجب .

اما الملك فـــلم يسكت ، بل كان يقول : لا .. ستسقط بهرسير كما سقطت برس وبابل وكما ستسقط هذه العاصمـــة .. ويح اهل فارس لقد خسروا عزّهم وضيعوا عرشهم وسيمسي ملكهم بدون تاج !..والرجل الرجل هو من يستطيع الفرار من مدائن كسرى قبل ان يمتد اليه سيف الاسلام ! ...

اجل تهيأوا للهرب ايها الناس من عاصمة الاكاسرة التي اثخنت وراء اسوارها رؤوس الفاتحـــين ، وخضعت لملكها جبابرة الزمـان .. ! اهربوا الى جلولاء وحلوان ، وسيكون ملككم اسبق الناس الى النجاة من سيف الفاتح ..

ونهض ذلك الملك الشاب .. الملك الذليل اليائس ، وجعـل ينظر الى عرش الاكاسرة العظيم نظرات الخيبـــة وهو يقول : سيحطمك العرب ايها العرش ،

سيحملون ذهبك وعاجك الى الحجـــاز ليجعلوها امام مساجدهم موطئاً لنعال العريان .. ! والتفت كالمجنون الى امراء قصره قائلاً :

«‌ — احملوا تماثيل الذهب ، وتاج كسرى وثيابه، ومنطقته وسلاحه ، وابعثوا بكل ذلك وراء النساء الى حلوان ... !

ثم خاطب الناس قائلاً لهم: واخرجوا انتم ومهّدوا لنسائكم واطفالكم سبيل الفرار فالجلوس في ايوان كسرى لا يرجع ملكاً ولا يعيد تاجاً ..

فتمتم مهاتب قائلاً: بقي انا أمل بدجلة يا مولاي! — وأين هو هذا الأمل؟

قال : اذا استولت العرب على بهرسير ، لجأنا مع السفن الى عاصمة ملكك ، وقاتلنا العرب بالنبال من هذا الشاطيء !!

قال : اني لأرى العرب يعومون اليم والسيوف في الأفواه !.

قال : نفنيهم بالسهام .

قال : لقد أفناهم رستم من قبل في القادسية .. وأفنيتموهم منذ شهر في برس وبابل .. وستفنونهم ايها الابطال يوم يحطمون اسوار بهرسير ويعبرون دجلة الى هذا الايوان .. اخرج وقل للذي أرسلك ان يحفظ رأسه اذا استطاع ..

قال : يريد الذي أرسلني ان أنقل اليه امر الملك .

— هذا أمري ، ليدافع عن المدينة حتى تخور قواه وقوى جنوده .

— وبعد ذلك ؟ — وليعبر دجلة بعد ذلك كما تقول ثم ننظر في الامر .

— وتبقى انت هنا يا مولاي ؟

فضحك ضحك المجانين وجعل يقول : نعم سأبقى حتى يدخل القائد العربي فأسلـم اليه ملكي وأجثو على ركبتي عند قدميه ..!! وكيف أبقى ايها الجاهل وأنا أعجز عن ان احتفظ بتاجي وأنتم أضعف من ان تحموا العرش ؟!

— ولكنك لا تترك العاصمة قبل سقوط بهرسير .

— سأخرج في الساعة التي يطيب لي فيها الخروج من قصر اجدادي .. واذا خطر لأحدكم ايها الابطال ان يلحق بي فانا في حلوان ..

وأومأ اليه بالانصراف وهو لا ينظر اليه .

ثم قال لرجاله : لو كان مهران الرازي من اولئك القواد الذين يثبتون في المجال لثبت في بابل ! انه يؤثر الدفـــاع من وراء الاسوار على الوقوف في وجه العرب وهذا أبلغ مظهر من مظاهر بسالته وقوته !!.. قالها وانصرف بنفسه يعدّ عدّته، ويأمر رجاله بأن يحتفظوا بالثمين الغالي من جواهر القصر ولآلىء الايوان .

ولم يتردّد في ارسال نسائه وجواريه ومن يتبعهنّ، الى ذلك البلد الذي يفكر في الالتجاء اليه .

فكان يزدجرد اذن ملكاً شجاعاً عظيم الهمّــة عزيز النفس ، لا ينظر الا في وسائل الفرار ، من ناحية الى ناحية ، لتسلم حياته !!.

وانه لقائد باسل لا تذكر معه قواد المسلمين !..

٤

لا بدّ من الرحيل يا بنية فهكذا يريد الملك . ــ والى أي بلد يرحل .

ــ الى حلوان ، أما انتم فستذهبون الى جلولاء .

فقالت هند : اذن نحن نفرُّ من وجه العرب كلما دنوا من ارض الفرس!! لقد وعدتني يا مولاي انك ستجمعني بقومي وأنا أرى الآن انك نسيت ما وعدت .. أين هي جلولاء التي تذكرون ؟

فأجــــابها مهاتب قائلاً : لقد قربت الساعة التي تعودين فيها الى بني طيء ، وترين من تحبين ..

ــ بل أرى المحسن اليّ يبعد هذه الساعة كلما قربت .. تهرب بي الى جلولاء والعرب سيدخلون المدائن وتقول ان ساعة اللقاء قد دنت .

ــ وماذا تريدين ان أصنع اليوم والجيش قد لجأ الى بهرسير ليدافع عن العاصمة ونحن ننتقل من موضع الى آخر لنستعيد الشرف الذي خسرناه ؟

ــ تستطيع ان شئت ان تبعث بي الى قومي .

ـ الى بابل ؟ ـ نعم !
ـ ولكنها بعيدة وانا لا أجسر على ارسال فتاة عربية مع رجال من الفرس ! بل لا أجسر على الاعتراف للناس بان في منزلي فتاة من العرب .
قالت : ابعث معي من تشاء من جواريك .
قال : لا يطيب لي ان أقذف بك وبجواري الى الهوة .
ـ اذن يسير معي عامر بن مذعور وسواد .
ـ اما انا فلا اطيق ان أدفع بك الى ايدي نذلين من أنذال العرب .
وأطرق قليلاً ثم قال : لقد رأيت رأياً . ـ وما هو ؟
ـ هو أن أجعل عامراً رسولي الى أبي زبيد في المعسكر العربي .
فأشرق جبينها قائلة : وماذا تقول لأبي زبيد ؟
ـ أقول له أن هنداً في منزل مهاتب الفارسي في جلولاء .
ـ ولكن اذا أتى أبو زبيد جلولاء فررت بي الى حلوان فيضيع أبي أثري ويقتله الهم والخيبة .
قال : ستمكثين بجلولاء مع بشتاسب وولدي الاصغر ولو دخلتها العرب .
ـ ومن يدل ابي على منزلك ؟
ـ سأنظر في هذا عندما تسلم المدينة الى قائد المسلمين .
فطابت نفسها وجعلت تقول: لقد كنت ولم تزل محسناً اليّ، فليكافئك الله .
فالتفت عندئذ الى بهرام وقال له : أحضر عامراً .
فقالت بشتاسب : وسواد ؟ ـ اما سواد فيبقى .
فخرج بهرام ولم يلبث حتى عاد وعامر معه ، فقال مهاتب : ستصبح الآن حراً بفضل هند . فجعل الفتى ينظر الى الجميع ثم قال : وتطلقني ؟
ـ أجل على أن تقسم لي انك لا تعمد الى الخيانة .
ـ أقسم اني أحفظ في الصدر ما يحفظه لك المخلصون !
قال : أتعرف الي أي بلد وصل الجيش العربي ؟
ـ لا أعرف شيئاً عن الجيش ولم يقل لي احد كلمة .

قال : العرب في بابل وقد طردت الفرس منها فلجأوا الى الشاطىء الغربي .
ـ وأين هي بابل هذه ؟
ـ سأقول لك كل شيء .. وتعرف ابا زبيد والد هند ؟
ـ لا ، ولكنه لا يضيـع !
قال : تخرج غداً من هذا المنزل وأنت بلباس الفرس . ـ نعم .
ـ وتركب زورقاً من زوارق دجلة ، الى الشاطىء الآخر ، ثم تسأل النـاس في بهرسير عن مقر جيش الاسلام . ـ وبعد ذلك ؟
ـ تذهب الى ذلك المقر مستخفياً عن العيون حتى تدخل المعسكر فيدلونك على ابي زبيد الطائي .. ـ فأقول له ان هنداً في المدائن .
ـ بل تقول انها في جلولاء وجلولاء بلد نرحل اليه بعد أيام .
ـ ولكنه سيسألني عمن ارسلني اليه .
ـ اذا فعل فاذكر له اسم مهاتب الفارسي ، وعليٌ الباقي ..
ثم قال : أما الآن فقد بقي شيء آخر . ـ ماذا ؟ ـ أتحسن الفارسية؟
ـ أفهمها ولكني لا أستطيع أن أحادث الناس بها .
قال : أخشى أن يشتبه بك أهل بهرسير فتذهب حياتك .
قال : سألبس لباس الفقراء وابتعد جهدي عن القوم . ـ واذا قبض عليك؟
ـ فابتسم قائلاً : يقبضون على فتى أخرس أصم لا يقول كلمة .
ـ واذا اكرهوك على الكلام ؟
ـ اعترف عندئذ باني كنت اسيراً وقد فررت !
ـ بل تعترف بانك كنت في منزلي . ـ الموت خير من أن أبوح باسمك !
قال : احذر فسواد باق وسيكون رأسه ثمناً لخيانتك اذا فعلت .
قال : لقد ندمت على ما كان وسأستغفر أبا زبيدوليفعل بي عندئذ مايشاء .
فقال لغلمانه : اعطوه ثوباً يلبسه وخرقة يحجب بها رأسه .
ففعلوا ، فلبس عامر ثوب فقير فارسي وجعل القوم يضحكون .
ثم قال مهاتب : امكث الليلة على ان ترحل غداً ولا تنسَ ان تقص على ابي

زبيد كل ما جرى لهند منذ وثوبها الى الماء الى هذه الساعة .

ـ سأفعل ، وسأطلب كليباً ولو كان في حضن ملك الروم لأقول له قبل ان اقتله : لقد خدعتني وهزأت بي فمت من يدي ..

فقالت هند : لاتفعل شيئاً من هذا ففي القوم من يقوم مقامك .

وباتوا ليلتهم والامل في صدر هند ، وقد ضمن مهاتب المحسن مستقبل بنيه، في حال سقوط دولة الفرس .. ومشى عامر عند الصباح مستعيناً بدهائـــه ، متظاهراً بالفقر ، وقد أعطاه مهاتب بعض المال يعالج به أمره .. وعبر دجلة الى الشاطيء الاخر في زورق لأحدهم ، وجعل يمدّ يده مستعطياً مستنديا أكف المحسنين ، حتى انتهى الى اطراف بهرسير .

وكانت هنالك جماعات من الفرس تتحدث بأمر الحرب،وقد قام في الاذهان ان جند الاسلام سيزحف الى المدينة، ويضرب حولها نطاقاً ضيقاً من الحديـــد والنار .

فجلس يصغي الى مايقولون ، ثم رأى ان يسألهم ، بالاشارة ، عـــن مقر العرب ، فأومأوا الى الافق الغربي البعيد قائلين : في بابل .

وبدت اللوعة على وجه عامر ، كأنه لايطيق ان تغزو العرب بلاد قومه !ثم صبر حتى غربت الشمس فسار في ذلك الطريق الذي أرشدوه اليـــه ، ومشى بضعة فراسخ وهو لا يرى احداً ..

حتى وصل الى كثيب من الرمال يقوم على الجانب الايمن منه، فسمع اصواتا، ثم أرسل نظره فرأى اشباحاً ، ثم بانت هذه الاشباح فاذا هنالك معسكر صغير بخيامه وسلاحه وزاده ، واذا القوم من الفرس ، وكانت الجماعة طليعة من الجيش الفارسي ، بعث بها مهران الرازي بعد فراره الى بهرسير ، لتتبين مسير الجيش العربي .

فوقف عامر والخوف يملأ قلبه .. أيمشي كأنه لا يرى ، وقـــد يقتلونه، أم يتراجع مستعيناً بالظلام متلمساً له طريقاً آخر لا تقع عليه العيون ..

ولو عرف عامر ، ان وراء المعسكر عينين تخترقان الحجب ، وترسلان اليه

اشعه النار .. لمات ذعراً .. ! أجل ، كان حارس الطليعة ينظر اليه ، والقوس في يده ، وقد هاله وجوده على طريق بابل ، في تلك الساعة من الليل .
فلما انثنى عامر يريد الرجوع ، ناداه ذلك الحارس بالفارسية قائلاً : مكانك ..
فارتجفت ركبتاه ، وكاد يسقط على الارض .
ثم أملى عليه خوفه ان يتعجل في رجوعه .
ولكن الحراس جميعهم بصروا به وجعلوه في طرفة عـــين داخل نطاق من الحراب .
ثم دفعوه الى الكثيب الذي لا نور فيه ، ليمثل بين يدي سيد القوم .
وهو يتململ ويحاول الفراردون ان يستغيث . فقال قائد الطليعة : اشعلوا النار .
فأشعلوها ، فبان ثوب عامر وخرقته ، وعيناه المختلجتان ، ثم قال :
انزعوا غطاء وجهه .
فرفعوه والفتى يرخي نظره الى الارض ، فقال الفارسي : وجه عربي ورأس الملك ا .. من انت ايها الفتى ؟ فأومأ بيديه انه لا يستطيع الكلام .
– ومن أرسلك ؟ فرفع رأسه كأنه لا يعلم . – قل أأنت من الفرس ؟
– فحناه كأنه يقول : نعم !! – والى أين تذهب ؟
فمدّ يده يشير الى الافق .. ثم وضع أصابعه في فمه يقول لهم : انه أبكم ..
فتناول الرجل احدى الحراب وهو يقول له : سنزيل هذا البكم .
وأرسل حربته الى صدره العاري يخزه بها قائلاً : تكلم فانت عربي ..
وعامر يستعين بقوة صبره على احتمال وخزه حتى سال دمه وخارت قوته ، فلم يطق الا ان يرفع صوته مستغيثاً بهم ليتخلوا عنه ، فضحكوا وقال قائدهم : أقدمت من بابل ؟
فأجابه بلغته الرديئة : لا أعرفها .. – ألست من الجيش ؟
– لا ولا أعلم أين هو .. – وممّن انت اذن ؟
– من العرب وقد كنت أسيراً من ايام البويب !!
– هنا في بهرسير ؟ – في المدينة الاخرى .

قال : ليس في المدائن أسرى من العرب فاحذر ان تخدعنا .
فرفع عينيه الى السماء يحلف بها انه صادق . - وكيف فررت ؟
ووخزه وخزة لامست العظم . فصاح قائلاً : ذهل الحراس فخرجت !
قـــال : تكون أسيراً في المدائن كما تقول وتنجو ؟ لا والذي شرّف الفرس وجعلكم عبيداً لهم !
وأمر فطرحوه على الأرض وجعلوا يطعنونـــه بحرابهم حتى تمزق جسده وفاضت روحه ، قبل ان يثبت وفاءه لهند ، وللفارسي المحسن .
وفي الساعة التي قتل فيها عامر ، كانت هند تحلم ببني طيء والعرب ، وتناجي طيف الحبيب .. وكان مهاتب الفارسي يخاطب نفسه قائلاً : لقد فعلت يا نفس ما يجب ان يفعله كل أبيّ شريف ..

٥

مرّ الزمان ، وسقطت بهرسير كما رأيت ، ثم سقطت العاصمة الاخرى ودخلها الجيش العربي ظافراً يهتف هتاف الحرب ، ولم يمر بضعة ايام على وجود الجيش في مدينة كسرى ، حتى أقبل اليها في مساء يوم طائفة من العرب ، بينها بعض نساء القادسية ، وفي هذه الطـــائفة عبدالله بن الفهر والامراء الآخرون ، وقد كادت مظاهر النصر العظيم ، تنسيهم هنداً !
وكان عبدالله يقول لرفاقه : دعوني احدث أبا زبيد وزوجته بما يطيب لي .
وقد خطر له ان يبعث الأمل الى ذينك الصدرين ، بلقاء هند !
اما ابو زبيد ومن معه فلم يبالوا بذلك الظفر يحمل الاسلام لواءه في كل اقليم بل كانت نفوسهم مكتئبة ، وقلوبهم مضطربة ، وعيشهم عيش همّ وشقاء .
ولم يكن بين قواد الجيش من لا يرثي لحال ذلك البطل الطائي ، الذي جـــار عليه القدر وهو في عنفوان شهرته ، وعظمة اثره في الميادين ، حتى ان سعداً كان

يقول لاركان حربه: ارجو ان يعود الرسل الذين بعثت بهم الى الاقطار، حاملين اليَّ اخبار هند، لتعود بهجة الحياة، الى ذلك البطل العربي.

وكان البكاء وحده، عزاء للنساء الثلاث، كبشة والزهراء وام هند. يبكين حتى يجف الدمع في العيون .. ففي ذلك المساء، بينا ابو زبيد على سطح المنزل الذي جعل له ولذويه، أقبلت زوجته وهي تشهق بالبكاء وتقول: لقد مرت الايام يا ابا زبيد وانا صابرة، والزمان لا يكف عن جوره، ولا يجود بابتسامة واحدة يضحك لنا معها الامل.

فأجابها وهو يمسح دموعه: وماذا تريدين ان أصنع؟

– تترك الجيش وتلحق ببنيك!

قال: لقد هممت بأن أفعل فتصدى لي سعد وبعث برسله.

– ولكن هؤلاء الرسل لا يعودون الا بعد ان يذهب العمر وهذا ما لا نقدر عليه. فملأت الكآبة قلب الرجل ونظر اليها قائلاً: سأستأذن سعداً غداً في الرحيل فخير لي ان اموت غريباً في الشام من ان ابقى في طيء وليس حولي من بنيَّ من اسمع صوته واستند الى ذراعيه.

ثم رفع رأسه الى السماء وجعل يقول: امحُ كآبتي يا الله يا قادر على كل شيء. ثم التفت الى الفتاتين وهما وراء ام زبيد وقال: ستبقيان مع نساء سعد، في القصر الذي كان لكسرى وسأوصي سعداً بكما وبأم زبيد.

فصاحت ام زبيد قائلة: أترحل أنت، وأبقى؟ وأنا بعيدة عن منازل طيء، وقومك لا يتركون ساحة القتال؟ – وماذا اذن أتذهبين معي الى بلاد الله؟

– اجل، اطوف في الارض كلها حتى أرى بنيَّ ثم انطرح بين ذراعي الموت قريرة العين! – وهاتان الصبيتان اللتان عهد الينا المنذر في العناية بهما؟

فقالت الزهراء: سنضع اقدامنا حيث تضع قدميك!

قال ليس في هذا السفر الشاق ما يطيب للنساء.

– ولكننا ألفنا الشقاء وأصبحنا غريبتين في بلاد العرب.

وطرق عندئذ باب المنزل! ثم اقبل غلام يقول لسيده: بالباب قوم يريدون

ان يروك .. فخفق فؤاده وقال : انا ؟

ـ نعم يا مولاي وهم بضعة عشر رجلاً معهم جندي من بني تميم !

ـ ويلك ألا تعرف أحداً منهم ؟

ـ أعرف انهم من العرب وهم بلباس السفر !

فصاحت النساء: الفرج ان شاء الله، وخفقت قلوبهن كما خفق قلب ابي زبيد.

ثم نهض الجميع فنزلوا ، فاذا عبدالله بن الفهر ، في الرواق ! والسراج يرسل ضوءه فتبين الوجوه . فقال الرجل : عبدالله ؟..

وكان عبدالله يبتسم ، فقال : انا هو يا أبا زبيد .

وتعانق الرجلان. ثم ارتفعت أصوات النساء وتساقطت الدموع على الخدود.

ولم تلبث ام زبيد حتى تمتمت قائلة : أولادي أيها الأمير ؟

فقال : انهم هنا .. ومشى الى الباب ففتحه قائلاً : ادخلوا .

فدخل الجميع .. فأشرقت الوجوه ، ورقصت القلوب ، وارتجفت الشفاه..

وجعلت ام زبيد تقبل ولديها والمنذر يقبّل اخته وابنة عمه ، وقد غمرت العاطفة قلوب المحبين ..

ثم صحت ام زبيد من نشوة اللقاء ، فذكرت هنداً ..ثم جعلت تقول : زبيد وزياد ، والمنذر وعبد الله .. فأين هند ؟ ..اين اختك يا زبيد ؟ أقتلت نفسها أم قتلها كليب بن خالد ؟

فتولى عبد الله أمر الجواب ، فقال : بل هي حيّة كما نحن أحياء !

– وأين هي ؟ وأين كليب ؟

– أما كليب فهو في بلد حصين منيع ، بين فلسطين والشام ، لاتصل اليه الايدي .. ! وأما هند فقد أنقذها الله منه وراء كربلاء ..

– قل انها ماتت في ذلك المكان الذي ذكرت ..

– بل أقول انها تركت كليباً الى بلد لا تجد فيه غير الهناء !

– وكيف استطاعت النجاة ؟

– رأت على جسر كربلاء طائفة من الفرس فاستغاثت بهم ، فلم يرَ كليب الا ان يعمد الى الفرار !

أي انها انتقلت من يد عربي لتقع في أيدي الفرس اعداء العرب !

– بل انتقلت من يد ثائر الى يد رجل شريف أقسم لهـــا انه سيعيدها الى قومها بعد ان تخمد نار الحرب !   – ومن قال لك ذلك ؟

– فتى كان يرعى النوق وقد رأى كل شيء ، وأخذ يقول : فرّ كليب من القوم فوثبت هند الى الفرات وهي تؤثر الموت على العيش تحت رحمـــة الفرس ! ولكن الغواصين حملوها الى سيدهم وجعل ذلك السيد يحلف لهـــا انها ستمكث بمنزله مع اهله حتى يدفعها الى بني طيء .. !   ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم حملها الى زورقه الى البلد الذي لا نعرفه ، وكانت تبتسم وتقول لراعي النوق : اذا رأيت احداً من طيء فقل له اني ضيفة على نبيل من نبـــلاء فارس وسأعود بعد حين .. ! وكأن عبدالله كان ينطق بالوحي ..

ثم قال : على ان الأمر لم ينتهِ عند هذا الحدّ ، فقد رأينا ذلك الراعي ونحن راجعون من الشام فقال لنا : لقد ذهبت فتاتكم الى المـدائن مع ذلك الشريف الفارسي وستسير منها الى معسكر العرب .

قالت : كانت هند في هذه العاصمة ونحن لا نعلم ؟

– هذا ما عرفناه وانا ارى ان الله سيمنّ باللقاء .

فسكتت ، وكان قلبها يحدثها بان عبد الله صادق فيما يقول .

ثم قال أبو زبيد : احمد الله على ما خصّني به من رحمته .. وقد خطر لي الان ان أرى سعداً ..   ـ لماذا ؟

– لأستأذنه في الذهاب الى يزدجرد الملك !

– وأي شأن ليزدجرد بما جرى ؟

ـ اقول له ان هنداً بين قومك فاعطني اياها فيعطيك سعد بها مئـــة اسير فارسي .

قال : وتظن ان سعداً يفك اسراه في سبيل فتـاة من طيء ، دون ان يرى عمر بن الخطاب رأيه في الامر ؟

ـ قد يفعل ذلك في سبيل فارس ابلى البلاء الطيّب في الحرب !

ـ بل هو لا يخطو خطوة واحدة الا برأي امير المؤمنين .
قال : سأحدثه بذلك واسمع جوابه .
قال : هب انه أذن لك في هذا فمن يدلّ يزدجرد على هند ، وقد تفرّق بعض جيشه وخسر البعض الاخر .
ـ كلمة واحدة من يزدجرد توجد هنداً !
ـ وأنا أقول ان كلمة واحدة تقولها انت لذلك الفارسي،تثير شجونه وحقده على العرب ، فيعمد الى البحث عن ابنتك ويأمر بقتلها وعيناك تنظران !
فقالت أم زبيد : لا أريد ان تفعل فالله الذي أعاد زبيداً وزياداً اليوم ، يعيد هنداً غداً .

فطابت نفس الرجل، لهذا الأمل الذي استيقظ في صدر زوجته، واستسلمت نفسه الى لذة اللقاء يجود به الله ، ثم لم يشأ الا ان يعلم ما جرى لكليب ، فقال : من رأى منكم كليباً ؟
فمدّت كبشة عنقها تصغي الى حديث القوم، فقال عبدالله : رآه زبيد .
قال : حدثنا يا زبيد بما رأيت .
قال : لقد طاب لي ان أغفر للرجل لأني رأيت انه يستحق الغفران بعد نجاة هند . ـ ولكنكم تقولون انه في بلد حصين لا تصل اليه الايدي .
ـ اما انا فقد دخلته بأمر يزيد بن ابي سفيان !
ـ وماذا قال لك كليب ؟
ـ جعل يعتذر ويظهر ندمه ، ثم عرفت بعد قليل انه جار امير المؤمنين ..
ـ وقصَّ عليك حكاية هند ؟
ـ أجل رواها كما رواها راعي النوق .. وقد دعوته باسم المنذر الى الرجوع الى المعسكر فلم يرضَ وقد صبغ دم الخجل وجهه ..
قال : أحسنت يا بني فخير الفضائل الغفران ..
وتنهدت كبشة ترسل همها فقد أيقنت بأن أخاها حي !!
ولو قرأ ابو زبيد ، والنساء الثلاث ، ما في صدور الامراء من لوعة وألم ، لما

خفقت القلوب على الأمل ، ولما افترت الثغور .

وبات القوم ليلتهم وهم فريقان ، هذا يعالج بأسه ، وهذا يبتسم لعـــاطفة الرجاء .. والمنذر يظن ان شقاءه فوق كل شقاء ..

٦

غدا ابو زبيد وعبدالله بن الفهر والامراء الفتيان، على سعد بن ابي وقاص وهو في قصر كسرى ، ينتظر امر امير المؤمنين ، بالزحف الى جلولاء .

فلما مثلوا بين يديه قال ابو زبيد : لقد أعاد الله ولدي وأميري النمر وتغلب وقد أقبلوا الآن يصافحون فاتح المدائن وهادم عرش الأكاسرة .

قال : عرفت ذلك من رسولي الى الشام وانا مؤمن بالله انه سيمن عليـــك برجوع هند .

وصافح القوم وهو يقول: أراد الله ان تشاركوا في إخضاع من بقي من جيش الفرس . فقال عبدالله : متى يأذن الامير في ترك المدائن واللحاق بالعدو ؟

ـ عندما يرد كتاب امير المؤمنين . اني أراكم تتوقون الى الحرب .

ـ نعم فقد فتحت بلاد فارس ونحن نطوف في ارض الشام .

ـ ولكنكم مهدتم بسيوفكم سبل الفتح ، مع ابي عبيــد بن مسعود والمثنى بن حارثة رحمها الله ، وخسرتم يوم البويب ، سيد فرسان النمر : انس بن هلال .

ثم قال للمنذر : انك مثل أبيك وستثأر به في جلولاء ان شاء الله ألم تقل يا أبا زبيد ان خطيب هند من فرسان العرب ؟

ـ بلى أيها الامير وسترى اني لم أبالغ فيما ذكرته لك .

قال : لقد كتبت الى أمير المؤمنين ولا أعـــلم اذا كان يأذن لي في المسير مع الجيش لأرى بعيني فعال هؤلاء الامراء .. أرأيتم قومكم ؟

قال عبدالله : لم نرَ أحداً غير ابي زبيد وسنرى قومنا بعد قليل .

قال : لقد كانت تميم واسد وضبة ، وطيء والنمر وتغلب ، أصدق القبائل في القتال ، وقد رأيت أبا زبيد يقتحم بصدر فرسه صفوف العدو ولا يعود الا وهو مخضب بالدم .. هكذا سيكون قتالكم أنتم في جلولاء .

فقال المنذر : أما انا فسيكون قتالي قتال فتى قتل أبوه، واحتجبت خطيبته فلم يبق له رجاء بالحياة !

قال : العربي لا يقنط من رحمة الله .. ان الله الذي سهل لنا امر الفتح يقدر ان يعيد هنداً ...

فخاف عبدالله ان يكون رسول سعد قد خبر سعداً ما سمعه عن هند .

فقال : ستعود هند بعد أن تخمد نار الحرب . ماذا يعرف الامير عن جلولاء؟

قال : ان تكن جلولاء بلداً حصيناً فهي ليست مثل المدائن .

ـ اذن ستسقط كما سقطت قبلها مدن الفرس واحدة بعد واحدة .

فأراد أبو زبيد عندئذ ، وقد هاجت عاطفته ، ان يتعرف ما في صدر سعد فقال : لو قيل لي غداً ، ونحن في جلولاء ، ان هنداً اسيرة يزدجرد ، وخطر لي ان انقذها من الأسر فهل أستطيع ذلك ؟ قال : بقوة السيف ؟ ـ لا .

ـ وبماذا اذن ؟ ـ بان تطلق انت بعض اسرى الفرس فيطلق الملك هنداً.

ـ اي انك تسأل هذا الملك ان يرضى بالفداء . ـ نعم .

قال : سيقوم في ذهن يزدجرد ، اذا حدثته بمثل هذا ، ان هنداً اعظم نساء العرب فيعمد الى الدلال في جوابه ، ويسألنا ان نفك له ألف أسير !

ـ وتبخل عليّ بذلك ايها الامير ؟

ـ لا،ولكني لا أستطيع ان أفعل ما تقول الا اذا ورد عليّ أمر من المدينة.

ـ ألست أنت قائد الجيش ؟

ـ بلى ، غير ان هنالك قائداً آخر اعظم شأناً وهو عمر بن الخطاب ، الذي نأتمر بأمره، ونضرب بسيفه ، ونفتح الاقطار بهيبته ! ـ وتراه يأبى علي ذلك؟

ـ هذا ما يخطر لي فعمر لا يريد أن يبدأ بالرجاء وهو الظافر، وقد لا يطيب له ان يجود بألف فارسي ، ليهب له يزدجرد حرية فتاة واحدة .

فنظر اليه عبدالله كأنه يقول : هذا ما ذكرته لك وكنت صادقاً .

ثم قال سعد : عندما ينتهي الينا ان هنداً اسيرة الفرس ، ولو كانت بين نساء يزدجرد ، نبعث الخيل فنقتل آسرها ومن حولها من حراس وفرسان ، ونحملها الى المعسكر ، بين السيوف والرماح ..

وقبل ان يفكّر ابو زبيد في الجواب ، أقبل رسول سعد الى الحجاز ، يحمل كتاب امير المؤمنين ، فقرأه سعد وقد جاء فيه :

اذا أتاك كتابي فسرّح هاشم بن عتبة الى جلولاء في اثني عشر الفاً ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى الجناح الايمن سعد بن مالك ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة ، واذا هزم الله جند فارس ، فقدّم القعقاع حتى يكون بين السواد والجبل .

فلما قرأه قال : لقد استخفّ امير المؤمنين بالفرس ، بعد فتح المدائن ، انه يريد ان يظفر بفلول جيشهم باثني عشر ألف رجل .. أين هاشم يا غلام ؟

فدخل هاشم فقال : ماذا يا عمّ أجاء جواب عمر ؟

ـ أجل ، انه في يدي وهو يأمرك بالمسير الى جلولاء ..

قال : اني لها وسيخسر يزدجرد في جلولاء كل ما بقي له .

ـ ولكن امير المؤمنين يجعل جيشك اثني عشر ألفاً ليس أكثر .

قال : أفتح بهذا الجيش بلاد فارس كلها ..

ـ اما انا فأخشى ان يظفر بك القوم فتخسر الماضي !

قـــال : لا تخف فقد تعود الفارس العربي ، ان يقاتل اربعة من الفرس وانا اضمن النصر ، بقوة الله .

قال : تهيأ اذن ، وتوكل على الله فهو اله النصر يهبه لمن يشاء .

ثم قال للمنذر : لقد أتت الساعة التي تثـــأر فيها بأبيك ، فاخرج واجتمع بقومك وليجتمع عبدالله بقومه واشحذوا السيوف للرحيل .

فقال المنذر في نفسه : بل أتت الساعة التي أترك فيها هذه الحيــاة ، لأجتمع

بهند التي ستبتني اياها الأقدار ..

وانصرف القوم ليستعدوا، ثم خرج سعد ليرى بعينه ما يفعله هاشم ابن أخيه.

٧

عندما انتهت الاعاجم ، بعد الهرب من المدائن الى جلولاء ، قال مهران الرازي للقوم :

اذا افترقتم اليوم لم تجتمعوا ابداً وهذا مكان يفرّق بيننا فهلموا لنجتمع للعرب به ونقاتلهم ، فان كانت لنا فهو الذي نريد ، وان كانت الاخرى فقد قضينا الذي علينا . فأجابوه ، واحتفروا خندقاً عظيماً اجتمعوا وراءه على مهران .

وكان يزدجرد قد انتهى الى حلوان فنزل بها وجعل يبعث اليهم بالرجال .

وقد أحاطوا خندقهم باخشاب تشبه الحراب ، الا الطرق فكانت حرة لهم ولخيلهم يروحون فيها ويجيئون .

وخرج هاشم بالناس من المدائن ، في شهر صفر ، في السنة السادسة عشرة .

وفي جيشه طيء والنمر وتغلب، وكبار المهاجرين والأنصار، وأعلام العرب ممن ارتدّ وممن لم يرتد ، وذوو الشدة والبأس .

مشى أربع ليالٍ حتى قدم على القوم ، فاذا هم وراء خندقهم الذي هو بمائه وحرابه أمنع من الأسوار .

وكان مهران يريد ان يطاولهم ، كما فعل رستم في القادسية قبله ، رجاء ان يملّوا الموقف ، وجعل لا يخرج اليهم الا عندما يخطر له .

وتزاحفوا ثمانين زحفاً وهب الله بها كلها الظفر للعرب حتى اقتحموا حراب الخشب فاستبدلها الفرس على الأثر بحراب الحديد وتهيأوا للمعركة الفاصلة .

وخرجوا عند الصباح ، من تلك الناحية التي لا حراب فيها ، فقام هاشم في الناس فقال : أبلوا البلاء الحسن يتم الله لكم عليه الأجر والمغنم ، واعملوا لله .

ثم التقوا وبدأوا القتال ، فبعث الله ريحاً ضعضعت صفوف الفرس وزعزعت ايمانهم واذا هم لم يجدوا بدأً من ان يتهافتوا في خندقهم ويجعلوا لهم ، مما يليهم ، ممراً تصعد منه الخيل ، فافسدوا في ذلك ، الحصن الذي كانوا يحتمون به .

فقال المسلمون : ننهض فندخل عليهم الخندق او نموت دونـــه .. واقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله الا ليلة الهرير الا انه كان أعجل .

وانتهى القعقاع بن عمرو، في الناحية التي زحف اليها ، الى باب الخندق الذي خرجوا منه ، فأخذ به ، وأمر منادياً ينادي :

يا معشر المسلمين : هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ بـه فأقبلوا اليه ولا يمنعكم القوم من دخوله ، قال ذلك ليقوّي المسلمين به ..

فحمل القوم وهم لا يشكّون الا ان هاشماً فيه .. وفي مقدمتهم المنذر وعبد الله ، ووراءهما ابو زبيد ووالداه ، وهم يصرعون الرجال ، ولا يبالون بالاخطار ، وقد طاب للمنذر ان يموت في ذلك العجاج ، ولكن الموت كان يبعد عنه ، كلما دنا هو منه .. حتى وصلوا الى ذلك البـاب ، فاذا هم بالقعقاع بن عمرو قد أخذ به ، ولجأ الفرس الى الفرار ، من اليمين والشمال ، فهلكوا فيما أعدّوه للمسلمين .

وعثرت الخيل ، فتركها الفرس وساروا في فرارهم ، على الاقدام ، والمسلمون وراءهم يضربونهم ويدفعونهم بالرماح حتى أقبل الليل وقد ملأت الجثث الخندق.

وبينما المنذر يركض فرسه فوق الاشلاء والرمح في يده وقد جعـــله رسول الموت ، أبصر رجلاً يحتضن فتىً مضرجاً بدمه وهو يستغيث بالعربيــة قائلاً : الرحمة يا فرسان العرب .

فوقف فرسه وقال : من أنت أيها الرجل ؟

قال : شقي جارت عليه الحرب بقتل ولده ! قال : وانت عربي ؟

ـ لا ، بل من الفرس ، وأنا أعزل لا سلاح معي وولدي يحتضر بـين يديّ فاذا كان في صدرك شيء من الرحمة فاضرب عنقي !

فوثب المنذر عن ظهر فرسه، وقد ذكر رماح الفرس تطعن أباه وكان يقول: تسألني الرحمة وانتم لا تعرفونها يا اهل فارس ؟!.

وكان الرمح في يده ، ونفسه المضطربة التي هيجتها ذكرى أبيه ، عطشى الى الدماء !!

فلمـــا دنا من الرجل ، رآه يبكي بكاء يتفطر له القلب ، والجريح يتململ بين يديه وهو يئن أنين المحتضرين .

فخمدت فجأة تلك النار التي تأججت في صدره ، وانحنى يتبين الجراح وهو يقول : سمعتك تقول ان فتاك قد قتل وأنا أراه حياً .

ـ ولكنه سيموت بعد ساعة ثم ألحق به . ـ وهل انت جريح ؟

ـ نعم ، فلما بصر بي ، نسي الحرب ، وأقبل يعالج أمري فأصابته الرماح .

وكان الرجل قد جاوز الكهولة والفتى في مقتبل العمر .

فقال المنذر وهو يركب فرسه : سأعود بعد قليل.. ثم حجبه الليل عن عيني الفارسي ، فتمتم الرجل يخاطب نفسه قائلاً : لقد سألته ان يجهز عليّ فلم يفعل .

وما هي الا ساعة ، حتى عاد المنذر ومعه بضعة رجـال من بني قومه النمر يحملون محفتين .

فأومأ الى الجريحين قائلاً : احملوا هذين الأسيرين الى الخيمة.. فحملوهما برفق ، وهو لا يعلم أي شيء أوحى اليه بعاطفة الرحمة .

وانتهوا الى خيمة المنذر ، فوضعوهما على فراشين ، وجعلوا يغسلون الجراح ويسقونها العسل ممزوجاً بالماء ، حتى فتح الجريح الفتى عينيه وافترّ ثغر الكهل شاكراً منقذيه . ولم يلبث الاثنان حتى استسلما الى النوم .

واضجع المنذر في زاوية الخيمة وهو يفكر في ذلك الجاذب السحري ، الذي يجذبه الى العناية بهما ..

٨

لم يدخل الجيش العربي جلولاء في ذلك الليل ، فقد خـاف هاشم بن عتبة ان ينصب الفرس شركاً للمسلمين في المدينة ، ويغدروا بالجيش .

وكان يرى ان يدخلها في صباح اليوم الثاني دخول القائد الظافر ، وجيشه آمن والعيون ترى كل شيء . فلما اصبح الصباح ، نادى مناديه :

ادخلوا جلولاء وراء القواد صفّين اثنين واجعلوا الأسرى بينهما .

وكان اسيرا المنذر قد استيقظا ، وقد خفّ الألم ، ولكن الجريح الفتى كان يشعر بضعف شديد لكثرة ما نزف من دمائه .

فقال لهما المنذر : أيطيب لكما ان تنتقلا الى جلولاء .

فبرقت عينا الكهل وقال : وهل سقطت المدينة ؟

ـ أجل ، وسيدخلها الجيش في هذه الساعة .

ـ وماذا تصنعون بمن فيها من الناس ؟

ـ لم يبق فيها فارسي فقد غادرها أهلها من الناحية الاخرى قبل ان نستولي على الخندق !

فصاح الرجل صيحة ذعر وجعل يقول : وذهب أهلي وهم لا يعرفون احداً وليس فيهم من الرجال غير فتى صغير ؟ والى اي مكان يفرون ولم يبق في فارس بلد حصين الا استسلم الى العرب ؟ ثم خفض صوته قائلاً : أفرّ القوم الى حلوان ؟

ـ يقولون انهم لجأوا اليها والى خانقين .

فتمتم بضع كلمات لم يفهمها المنذر ، ثم وضع رأسه بين يديه وبانت الدموع من خلال اصابعه .. فقال له : أتخاف على اهل بيتك ان يحصدهم السيف وهم نساء .

ـ بل اخاف ذلك الذي اكرههم على الفرار دون ان يكون لي في ذلك رأي.

ـ ومن يستطيع ان يفعل ذلك غير الملك ؟

ـ ان الملك في حلوان ولم يمر بجلولاء يوم هربه .

ـ اذن فنائب الملك هو الذي فعل هذا .

قال : ليس للملك نائب غير مهران ، ومهران لم يترك الخندق .

قال : يخيل اليّ انه بعث منذ الصباح ، بمن يدعو الناس الى الهرب وامر بعض جنوده بان يكرهوا النساء على ذلك خوفاً من ان يسبيهن جيش العرب ويذل ابناءهن ! قال : الويل لي من هذا الفرار فقد ضيع الأمل ..

ـ وهل كنت تؤثر ان يبقى ذووك في جلولاء تحت رحمة العربان ؟
ـ نعم ، فأنا اليوم تحت رحمة العرب ، ولو لم تمد يـدك اليّ ، وانت عربي ، لفاضت روحي وروح ولدي في الليل الذي مضى دون أن يعلم بنا احد .
ودخـل عندئذ ابو زبيـد وولداه وعبدالله التغلبي فرأوا الجريحين ، فقال ابو زبيد : ليس الرجلان من قومنا .
ـ لا ، وانما هما فارسيان، وقد سقطا جريحين وراء الخندق فحملتهما الى هذه الخيمة كما ترى ، قال : كان عليك ان تبعث بهما الى خيام الجرحى .
ـ بل كان عليّ ان افاجئهما بالرمح كما فعلت الفرس بأبي يوم البويب ، ولكن المروءة أبت عليّ ذلك . قال : انزلتهما في بيتك فأصبحا ضيفيك ؟
قال : انهما اسيرا حرب ينزلان في بيت آسرهما .
قال: هيا الى جلولاء. ـ لا يطيب للرجلين ان ينتقلا اليها وهما فارسيان !
قال : تذهب وتوصي بهما بعض عبيدك .. أنسيت اننـا سنطوف في جلولاء باحثين عن ذلك الفارسي الذي قصّ علينا عبدالله خبره ؟
فأومأ عبدالله الى المنذر كأنه يقول له : افعل ما يقوله لك ..
اما المنذر فقال : لقد عاد القوم الذين بعث بهم هاشم الى المدينة وهم يقولون: لم يبق فيها فارسي ! ـ ومتى كان ذلك ؟
ـ منذ لحظة ، حتى إن أهل هذا الرجل فرُّوا مع القوم دون ان يعلم .
قال : كنت أظن اني سأسمع في جلولاء خبراً يعيد الرجاء الى هذا القلب .
أيعرف أسيراك العربية؟ فأشار الى الكهل قائلاً : هذا يعرفها . ـ وهذا ؟
ـ لا أعلم فهو لا يستطيع لضعفه ان يقول كلمة .
قال : يخطر لي ان أسأله سؤالاً فقد يعرف شيئاً عن هند !
قال : يكفي هذا الرجل همّه يا أبا زبيد فدع ذكر هند .
فلما سمع الرجل اسم هند وأبي زبيد، اضطرب في فراشه، وارتجفت شفتاه، وجعل يتفرس في الوجوه التي حوله وقد أصيب بالذهول .
وجلس ابو زبيد عند فراشه وقال له : آلا ترى ان المنذر سيد النمر ، احسن

اليك ، وهو من العرب ، وأنت عدوه ؟
فرفع نظره الى المنذر ثم قال : بلى ، وانا لا أنسى هذا الاحسان ..
ـ واذا سألتك سؤالاً اتجيب عنه ؟ ـ سل ما تشاء .
قال : أتعرف رجلاً من قومك يقيم على شاطىء الفرات مما يلي كربلاء ؟
فابتسم قائلاً : ان الرجال من قومي يملأون ذلك الشاطىء الذي ذكرت فما هو اسم صاحبك ؟ ـ لا أعرف اسمه .. أتعرفه يا عبدالله ؟
ـ لا .. فقال الفارسي: ومن أين لي اذن ان أجيبك عما تسأل ؟
قال : أقصّ عليك حكايته .. قال : هات .
ـ لقد أنقذ ذلك الرجل فتاة عربية ، من الفرات ..
فتظاهر الجريح بالتفكير ثم قال : عرفت الرجل !!
فلمعت العيون .. وحبست الأنفـــاس .. ودنا القوم جميعهم من فراشه وهم ينظرون اليه نظرات الاستغراب .. وقد قام في أذهانهم انه كاذب في جوابه .
ثم قال ابو زبيد وصوته يرتجف : وتعرف الفتاة ؟
ـ اجل كما أعرف ولدي هذا !!
فبان الغضب على وجه عبدالله وقال : كفى ايها الفارسي ، لقد أنزلنـاك على الرحب وانت عدوّنا فلم تشأ الا ان تهزأ بنا بهذه الأكاذيب ..
قال : أرجو ان لا يسمعني الامير كلمات الاهانة وانا الأسير في معسكر قومه وهو القوي !! ـ وأنا أرجو ألّا تعمد الى الكذب فيما ترويه لأبي زبيد !
ـ قلت اني عرفت الرجل والفتاة وأنا صادق فيما قلت !!
فأشار ابو زبيد على عبدالله بالسكوت ، وكان يقول ويده على قلبه :
اذا كنت قد عرفت الفتاة فصفها لي.. قال : أذكر لك اسمها قبل ان أفعل.
وتردد قليلاً كأنه يسأل ذاكرته ثم قال : اسمها هند !!
ففتح المنذر ذراعيه وقبّل رأس أسيره قائلاً : هند !!
وردّد القوم جميعهم ذلك الاسم العذب وقد أشرقت الوجوه .. وكاد يغمى على أبي زبيد من فرحه ..

وعندئذ فتح الجريح الفتى عينيه ، وظهرت على جبينـــه صورة الألم المبرّح الذي لا يستطيع احتماله غير جبابوة الحرب ، وهامسهم قائلاً : هند .. بنت ابي زبيد الطائي !!

فانحنى ابو زبيد حتى لامست شفتاه الارض وجعل يبكي ويردد ألفاظ الشكر لله .. وفعل ولداه مثله وهما يبكيان .

ولكن عبدالله بن الفهر لا يؤمن الا اذا مدّ اصبعـه ، فقال : لقد سمعت أبا زبيد يذكر اسم ابنته فذكرته انت !..

فحاول الفتى ان يجيب فأسكته أبوه قائلاً : ولكني لم اسمع أحداً يقول ان هنداً خطيبة المنذر سيد النمر !! — بل سمعت هذا ايضاً ..

قال : أرى انك لا تثق بما تسمع الا اذا ذكرت لك كل شيء .. الا فاعلم اني لا أجهل حكاية كليب بن خالد ابن عم المنذر !

فقال المنذر عندئذ : كفى فقد وجدت هنداً ..

وجعل ابو زبيد يدنو من الرجل حتى قعد عند رأسه وقال له : قل الآن من أنت ؟ — اني من الفرس كما ترى . — ومن أين عرفت كل هذا ؟

— من ذلك الرجل الذي أنقذ الفتاة فهو جار لي ! — وأين هو اليوم ؟

— كان في جلولاء ، وقد بعث اليك الى بابل وهو في المدائن ، بفتىً من العرب يقول لك : انه يقيم بهذا البلد مع ابنتك ! — يقول لي انا ؟

— نعم وأنا اعرف اسم الفتى الذي بعث به فهو عامر بن مذعور !

فذعر ابو زبيد وصاح قائلاً : عامر بن مذعور سبب بلائي ينقل اليّ هـــذه البشرى ؟

— اجل ، فقد كان عامر هذا اسيراً عند الرجل ، وقد ندم على ما بــدر منه وأضمر الحقد لكليب الذي خدعه ، والاخلاص والوفاء لهند .

— وكيف امسى أسيراً عند صاحبك ؟

— ارسله المنذر الى ذلك الشاطيء يبحث عن هند ، وكانت هند قد قصت على منقذها خبره ، فتلاقى الرجلان وأسر العربي ! فالتفت الى المنذر قائلاً : أصحيح

هذا ؟ — نعم ولكن عامراً لم يعد فقام في ذهني انه قتل .
— وأي شيء دعاك الى الوثوق به وهو أصل البلاء .
— ذلك الندم الذي اظهره لي يوم قبضت عليه وهممت بقتله .
— ولكنك كتمتني ذلك ولم تذكره لي .

فقال عبدالله : بل كتمناك كل شيء يا أبا زبيد فنحن لم نعلم من قبل ان ذلك الفارسي أنقذ هنداً .. فجعل يحدق اليه ويقول : ومع ذلك فقد خبرتني بالامر !

— فعلت ذلك لأعيد الأمل الى صدرك ، وأنا أجهل مصير هند بعد ان وثبت الى الفرات وغاصت في اللجة ! — أي انك اخترعت الحكاية اختراعاً ؟

— نعم ، وأراد الله ان يصدق هذا الاختراع . فقال لزبيد : وخدعتني يا بني؟

قال : انه خاطر خطر لعبدالله قبل اللقاء فغضّ طرفك عنه .

قال : الحمد لله ، لقد سمعت الآن اخبار هند وسيجمعني الله بها انه تعالى على كل شيء قدير ، ثم قال للرجل : قلت ان هنداً ومنقذها في جلولاء .

— أجل ولكن المنذر يقول انه لم يبقَ في جلولاء فارسي .
— ومن قال للمنذر ذلك ؟

فأجابه المنذر قائلاً : رسل هاشم بن عتبة الذين دخلوا المدينة ثم عادوا يصفونها له ويحملون اليه أخبارها .

قال : أتكون هند وراء هذا الخندق ، وبيننا وبينها بضع خطوات ونحن لا نعلم ؟ أتنقذها يا رب من الفرات لتجعلها في أيدي الفرس وتحجبها عن عينيّ ؟

فقال الفارسي : لقد أكرهوها وأكرهوا صاحبنا على الفرار ، الى خانقين أو حلوان وسيفتح جيشكم البلدين ..

— ولكن لا نفعل حتى يرحل الفرس الى بلد آخر فتضيع هند .

فأطرق ملياً ثم قال: سأنظرَ في هذا بعد ان يصحو ولدي الجريح مما هو فيه ، ويعود اليه رشده .

قال : سمعتك تقول ان القوم أكرهوا صاحبك على الفرار أتراه كان يأبى ان يفر من وجه الفاتحين ؟

ـ نعم فقد أقسم لي انه سيمكث بمنزله ريثما يجيء ابو زبيد الطائي ويستعيد ابلته .. هكذا أوصى عامر بن مذعور .

ـ ولكني لم أرَ الفتى في بابل ولا في بهرسير .

قال : يخيل اليَّ ان الفرس قتلوه قبل ان ينتهي الى بابل .

ـ أما انا فقد خطر لي خاطر آخر . ـ ما هو ؟

ـ هو انه خبَّر قائد الفرس ، ان فلاناً الفارسي ، يضيف في بيته فتـــاة من العرب وسيسلمها الى أبيها في جلولاء .. بعد فتح المدائن .

فظهر الخوف على جبين الجريح وقال : اذا كان هذا فقد قضي على الرجل !

ثم ذكر أمراً آخر فقال : لو عرف قائد الفرس ما تقول لقبض على الرجـل وهو في المدائن ، قبل ان يتمّ الفتح .. ان عامراً ذهب ضحية وفائه وستعلم بعد قليل اني غير مخطىء .

قال : يظهر انك لا تعلم شيئاً عن هذا النذل الذي باع هنداً بدينارين .

ـ بل أعلم كل شيء ، فهو الذي خدع هنداً بقوله لها ان امه تعـالج الجرحى بدواء لها عجيب ، فمشت وراءه لتحمل ذلك الدواء الى انس بن هلال .

ـ وتعرف هذا ايضاً ؟

ـ أجل وقد وعده كليب بن خالد بالذهب الكثير يهبه له بعد ان يبتعدا بهند عن البويب ، وكان كليب كريماً اذ جاد على ام عامر بناقة ودينارين .

قال : تقصُّ عليّ الحكاية كلها كما نقصها نحن !..

ـ وأصف لك غلاماً آخر من صعاليك عامر يدعى سواداً وهو باقٍ مع هند عند الرجل الفارسي !!

فقال عبدالله للمنذر : أتذكر ذلك الغلام الذي رافق عـامراً من كربلاء الى ذلك الشاطىء ليساعده في البحث عن هند ؟ ـ نعم .

ـ انه سواد الذي يذكره أسيرك ..

فقال ابو زبيد : لم يبقَ في الصدر شك فيما يقوله هـذا الرجل ، ولكن بقي ان ننظر في الامر الذي نستطيع معه العثور على هند .. ماذا ترى ايها الفارسي؟

ـ أرى ان تدخلوا الآن جلولاء ، وتلمسوا بالأيدي ما ذكرته رسل أميركم عن فرار الفرس . ـ وبعد ذلك ؟

ـ يستفيق ولدي فاحدثه بالأمر وأسمع رأيه ..

فقال ولده : لقد سمعت كل شيء يا مولاي وذهب الألم الآن .

وحاول الجلوس فلم يستطع. فقال ابوه: احذر يا بني فقد خسرت دمك كله.

ـ ولكني أريد ان أشارك القوم فيما يقولون .

فقال المنذر : تكلم وانت في فراشك .

قال : أظن كما يظن ابي ان اهل جلولاء رحلوا الى ما يجاورها من المدن التي يحتمي وراء أسوارها جيش يزدجرد .. ومعهم هند .. أسمعت يا أبا زبيد ؟

ـ نعم . ـ فاما ان تكون هند في خانقين واما في حلوان .

ـ هذا ما يقوله أبوك .

قال : قد يكون لي رأي لا يراه أبي ولا يريده ..

ـ ونحن نسألك ان تجود بهذا الرأي ..

قال : أيخطر لقائدكم ان يلحق بجيش الملك ؟ ـ أجل .

ـ ومتى يفعل ذلك ؟ ـ بعد بضعة أيام .

ـ اذن يسير أبي قبل ان يسير الجيش فيبحث عن الفتاة .

ـ ثم يبعث الينا برسول ينتهي أمره كما انتهى أمر عامر !

ـ بل يكون هو نفسه ذلك الرسول يوم تفتحون البلد الذي تقيم هند به .

ـ ولكن نسيت ان قوادكم يكرهون قومكم على الفرار ..

ـ أما أبي فلا يفر بل يبقى ريثما يضع ابو زبيد يده بيد ابنته .

ـ وكيف يستطيع أبوك ان يركب فرسه الى خانقين وهو جريح ؟

ـ يستطيع ذلك بعد يومين فجرحه سيبرأ ، وقد رأيت ذلك الجرح ساعة سقط امام الخندق وكنت اذ ذاك سليما . ـ وأنت ؟

ـ أما انا فسأبقى لسببين أحدهما اني لا استطيع الركوب ..

ـ والسبب الآخر ؟

ـ واما السبب الآخر فقد عرفتموه هو انه يجب ان أكون بينكم رهينةً. يبلغ ابو زبيد غايته ..

فنظر الطائي الى من حوله وقال : لتسمع العرب ما يقوله هذا الفارسي .

ثم قال له : وما الذي يدعوك الى هذا ؟ ـ الوفاء والاعتراف بالجميل !

ـ ولكننا لم نصنع معك جميلاً .

ـ بل أنقذتم حياتي وحياة أبي وهذا يكفي .

قال : العرب اعداؤكم، وقد فتحوا بلادكم وقتلوا رجالكم فكيف تحسن أنت الى هؤلاء الأعداء ؟

ـ لقد تعلمت الاحسان من هــذا الأمير الذي هو خطيب هند .. حملنا الى خيمته ، وغسل جراحنا ، وجعـل عبيده عبيداً لنا ، وقد كان قادراً على ان يقتلنا نحن الاثنين !

قال : هذه صفات الأشراف من العرب فبارك الله فيك . ولكن لنفرض ان اباك لم يجد في خانقين وحلوان ، ذلك الفارسي . ـ بل يجده فهو لا يضيع .

وبدأ التردد عندئذ في عيني الفتى ، ثم أغمضها كأنه لا يريد أن يمشي وراء عاطفته ، ثم قال وقد خفض صوته :

اذا خسر ابي هنداً فقد خسر ابنته ، وولده الآخر ، وغلمانه وجواريه ..

ـ ولِمَ ذلك ؟ ـ لان الجميع يقيمون بمنزل واحد !.

فأسكته أبوه قائلاً : ما هذا يا بني ؟

فقال وهو لا يبالي : لقد أتت الساعة التي تقول فيها لهؤلاء الامراء من انت . الا فاعلموا أيها الامراء ان ذلك الفارسي الذي أنقذ هنداً من الفرات هو هذا ..

وأشار الى أبيه !

فنهض الجميع يقبلون الرجلين وهم يقولون : لقد شاءت الاقدار ان تكافىء المحسن على ما كان منه ونحن لا نعرفه ..

وجعل ابو زبيد يبكي ويقول : قل لي الآن من انت واذكر اسمك ..

فمسح الفارسي دموعه وقال : اسمي مهاتب وهذا بهرام .

ـ وكيف أنقذت ابنتي ؟

ـ كنت أعبر بزورقي الفرات، فوق منازل اياد ، فأبصرت بين ذراعي التيار جسماً ترفعه اللجّة وتخفضه وهو يتهادى بين تينك الذراعين القويتين حتى انتهى الى الزورق ولامس جانبه فاذا هو جسم هند .. ـ اذن لم تكن عند كربلاء.

ـ لا ، ولم أرَ كليباً ولكن هنـداً خبرتني كل شيء منذ خفق قلبها على حب المنذر حتى ضيعت الرجاء .

وجعل يروي حكايته مـع هند ، وعامر بن مذعور وسواد ، والدموع في عينيه ، والامراء جميعهم يذرفون الدموع ، ثم قـال : والآن أخشى ان تكون ايدي الاغرار من الفرس قد امتدت الى اهل بيتي .

فقال ولده : تظن هذا لان الفرار لم يكن من رأيك ..

أجل،وقد أوصيت بشتاسب وهنداً بانتبقيا ولوأبصرتا جيش العرببالباب.

وكانت هندتعلم ما الذييجب ان تفعله فيتلك الساعة ، ساعة دخول الجيش .

ـ اما انا فليس لي مثل ظنونك .. ـ وماذا اذن ؟

ـ أظن أن مهران ، وأركان حربه ، هم الذين أملوا على أهـل جلولاء ان يفرُّوا وأمروا رجالهم بان يكرهوا علىالفرار،اولئك القوم الذين يؤثرون البقاء.

فسكت مهاتب وقد ارتاح الى ظنون ولده .

ثم جعلوا ينظرون في أمر رحيل مهاتب الى خانقين ، قبل ان يزحف الجيش العربي وبعثوا بعقدالله، ليسأل هاشم بن عتبةان يأذن لهمفي البقاء خارج جلولاء.

وقد اشتد شوق امراء طيء وأمير النمر ، الى تلك الفتاة الضائعة التي قذفت بها الاقدار الى بلاد الفرس ..

٩

اخرجوا الآن فهذا ما أمرنا به قائد الجيش !

وكانت في جلولاء ، طائفة كبيرة من الفرس، لا تريد الفرار ، بل كانت تؤثر

البقاء في ظل الفاتحين العرب ، على الطواف في الارض بعد ان خسرت كل شيء .

ولكن رجال مهران الرازي لا يسمعون ولم تكن لهم غير غاية واحدة هي أن يخرجوا ، بالقوة ، اولئك المترددين في الخروج ، لتمتد أيديهم الى ما يطيب لهم من المتاع والمال ! اي انهم كانوا لصوصاً يلبسون لباس الجنود .

ومهران الرازي لم يكن يريد ذلك ، بل كان يرى ، انه خير لأهل جلولاء ، ان يستولي الجيش الفاتح على منازلهم وأشيائهم من ان يستولي على نسائهم والاطفال. وذلك ما أوصى به يزدجرد الملك نفسه .

أجل ، لقد رأى ذلك الملك بعينيه ، ولمس بيديه ، ان بلاده تسقط في أيدي العربان الأجلاف .. العربان الفقراء الذين كانوا عبيداً لأمته .. فأملت عليه مروءته ، وهو لا يستطيع ان ينقذ وطنه ، انّ ينقذ شعبه ، اذا استطاع .

وكان الأمر كما ظن بهرام بن مهاتب .

وطافت الجنود في أسواق جلولاء تدعو الناس الى الرحيل ، وليس في الامر شفاعة أو رحمة ، فجعلت النساء والجواري والغلمان يحملون ما يخطر لهم ان يحملوه ، ويخرجون من باب السور الشرقي الذي تحميه الجنود ولا تراه عيون العرب . حتى انتهوا الى منزل مهاتب ، فأبت بشتاسب ان تخرج وكانت تقول: لقد أمرني ابي بأن أبقى في هذا المنزل ريثما يجيء ..

فقال رئيس القوم : هنالك آمر آخر لا يذكر أمر أبيك مع أمره ..

ـ ولكني لا أستسلم الا الى ابي ولا أطيق الخروج وأنا لا أراه .

ـ بل تخرجين وانت آمنة وسيلحق بك أبوك اذا خرج حياً من ساحة القتال.

واقتحم الباب مع رجاله ، وأكره من في المنزل على تركه ، دون ان يلفت نظره وجه هند وعيناها العربيتان ..

وانصرفت طوائف النساء يقودها بعض الفرسان ، الى وادٍ بين جلولاء وخانقين ، ومنه الى جبل وراء تلك المدينة التي سيلجأ اليها الجيش ، وليس مع بشتاسب وهند ومن معها ، غير بعض الحلى والثياب !

وكانت الفتاتان تبكيان ، وقد قام في ذهنيهما ان الوالد وولده حصدهما

السيف ، ولم يبق لهما في هذه الحياة نصير ..

وكيف لا تظنان ذلك وقد أبصرتا جيش الفرس يحتمي بخانقين وقد خسر جلولاء ومهران الرازي في طليعة الهاربين ، وليس لمهاتب وبهرام ، وجود في ذلك الجيش ..

وكان مهران يريد بعد فراره ، ان يثبت وجوده ، ليزدجرد ، بل كان يريد ان يحسن الملك ظنه به ، ولو كان فارّاً ..

فمشى مع بعض أنصاره الى ذلك الجبل الذي جعلوا النساء فوقه ، ينظر في أمرهن ويتظاهر بالحرص على الشعب الفارسي !

فلما أقبل، قالت هند لبشتاسب : هذا قائد جلولاء فاسأليه عما جرى لأبيك وأخيك في الحرب .

فسارت اليه الفتاة كاللبوءة الجريحة ، وقالت له : ليأذن لي القائد ان أسأله سؤالاً . فرأى مهران وجهاً حسناً وعينين ساحرتين ، فقال : من أنتِ ؟

ـ اني فتاة خسرت أباها وأخاها في جلولاء وقد جئت أسألك عنهما .

ـ ومن هو أبوكِ ؟ ـ رجل من الأهواز يقال له مهاتب ..

قال : أعرف مهاتب وبهرام فهما من أركان الجيش .

فارتجف صوتها قائلة : وهل قتلا ؟

فنظر الى رجاله وجعل يقول : لا أعلم فقد رأيت أخاك عند الخندق بعد خروج النساء من المدينة ، ولم أره بعد ذلك ، ثم قال لجنوده : من رأى مهاتب وبهرام ؟ فسكت الجميع لأنهم لم يروهما .

فقال صبراً فستنتهي الينا أخبارهما بعد قليل وقد يكونان أسيرين .

فلطمت المسكينة خديها ورفعت صوتها تندب القتيلين ..

قال : أليس لك أخ آخر ؟

قالت : بلى ولو كان أخي الآخر قادراً على حمل السيف لقتل كما قتل أبوه وأخوه.

ولم تنتظر جوابه ، بل انصرفت وركبتاها ترتجفان، وقد أعانها بعض النساء على الرجوع .

وقد أيقنت هند ، عندما أبصرت دموعها ، ان الاثنين قتلا ، فاستسلمت الى البكاء ، ويئست من النجاة .

وبدأت تنظر من جديد الى دجلة ، نظرها الى المنقذ ، وكان قد مرّ على فرار الجيش ثلاثة ايام .

١٠

عليّ بالقعقاع بن عمرو

قالها هاشم بن عتبة لرجاله ، بعد مرور بضع ساعات ، على دخول العرب جلولاء .

وكان القعقاع ، ذلك البطل العظيم ، يدور حول المدينة ، ليقضي على من يراه من الفرس .

فلما انتهى اليه أمر هاشم ، ركض فرسه وهو يعلم الغاية من ذلك الطلب .

ثم مثل بين يديه ، وهو في السوق !! فقال : اني لأعلم لماذا دعاني الامير .

قال : لماذا ؟ — ليبعث بي في آثار القوم .

قال : أصبت وذلك ما كتبه امير المؤمنين الى عمي سعد .

قال : اذكر لي ما كتب .

فقال : لقد ورد في كتابه : « اذا فتح الله عليكم جلولاء فسرح القعقاع بن عمرو في طلب الفرس حتى ينزل بحلوان فيكون رداءاً للمسلمين ويحفظ الله لكم السواد » . قال : اني لها ايها الامير وهذه فرسي ..

قال : ان الجيش الذي يكون فيه القعقاع لا يغلب .. اختر من تشاء من الرجال فليس في الجيش من لا يسمع لك .

قال: سأطوف في السوق وأنا على ظهر فرسي وأنادي: من يتبعني الى خانقين؟ فمن أراد ان يفعل فقد اخترته ..

فضحك قائلاً : انه اختيار لا بأس به .. افعل ما تشاء .

فركب القعقاع ونادى: من أراد ان يتبعني الى خانقين فليركب.. لقد وهب الله لكم ارض فارس فاشكروا الله وأجيبوني ..

فارتفعت الأصوات قائلة : الخيل الخيل نحن جنود القعقاع ..

فأرسل هاشم الى القعقاع من يقول له : احذر ان تزحف بالجيش كله .

فقال : سأبقي في جلولاء من يحميها ويحمي هاشماً وأعدّ جنداً من أفناء الناس لا يعلم ممن هم وجعل دليله رجلاً من الحيرة يعرف بلاد فارس ويصف جبالها وأوديتها وقصورها كما يصف وطنه .

فأقبل زياد الطائي الى أبيه يقول: لقد ندب هاشم بن عتبة ، القعقاع بن عمرو للزحف الى خانقين وحلوان ، وكان القوم جميعهم في خيمة المنذر ، ومهاتب وبهرام يسمعان . فقال ابو زبيد : ومتى يخرج القعقاع من جلولاء !

– في هذه الليلة وقد يخرج بعد ساعة !

– وتهيأ القوم ؟ – نعم ولم يبق غير مؤونة الجيش .

فنهض قائلاً : انه اذا خرج الليلة ضيعنا هنداً .. لا والله لا يخرج .

وترك الخيمة وهو يقول : سأرى فارس بني تميم ثم أعود ، وخرج معه زياد حتى انتهيا الى ساحات جلولاء ، كان القعقاع قائماً فيها يستعرض جنوده . وكان المساء قد أقبل ، فوقف ابو زبيد ريثما انثنى القعقاع فأتاه فقال : لي حاجة يا فارس بني تميم . قال : سيد طيء ؟ – نعم . – وما هي حاجتك ؟

– قيل لي انك ستزحف الليلة الى خانقين .

قال : أزحف عندما ينتهي القوم من امر مؤونتهم ..

– ومتى ينتهي هذا الأمر . – لا أعلم ولكن سنغادر جلولاء قبل الفجر.

قال : جئت أسألك ان تبقى الى مساء اليوم الثاني ! – لماذا ؟

– لان لي ولداً يريد ان يحارب تحت لوائك !

قال يستطيع هذا الولد ان يجيء الساعة .

قال : هو جريح ولا يقدر الليلة على الركوب !

ـ وتراه يقدر على ذلك بعد يوم ؟
ـ أجل فالجرح جرح سيف وهو غير قاطع .   ـ وأين موضع جرحه ؟
ـ في الكتف اليسرى من جهة الصدر .
قال : كان فتح جلولاء أمس أليس كذلك ؟   ـ بلى .
ـ ومتى سمعت ان جراح السيوف تبرأ في يومين ؟!
ـ لم أسمع شيئاً من ذلك ولكني رأيت بعيني ما أذكره لك وأنا واثق .
ـ واذا عجز ولدك غداً عن الرحيل ؟
ـ تسير أنت على بركات الله وتكون طيء مدينة لك بالجميل .
قال : أستشير هاشما فقد يغضب لهذا التردد في طلب العدو .
قال : الرأي رأيك انت وقد علمت ان هاشما فوّض اليك الأمر .
وبينا الاثنان يتحدثان ، أقبل رجل تميمي يقول: لا نستطيع يا ابن عمرو ان نترك جلولاء الليلة .   ـ ولِم ذلك ؟
ـ لأن مؤونة جيش جلولاء لا تكفيه ، ونحن مكرهون على التزوّد غداً من الأشياء التي تركها الفرس في المنازل ، وفي السهل القريب .
فقال القعقاع عندئذ لأبي زبيد : لقد ساعدك الحظ يا ابا زبيد فليتهيأ ابنك .
قال : اذا رأيته قادراً على المسير غداً بعثت به اليك قبل الرحيل .
قال : وسيكون رفيقاً لي في القضاء على الهاربين .
فانصرف الطائي وهو يهامس زياداً قائلاً : سيستطيع مهاتب ان يرحل غداً وسيسبق الجيش ، ولما عاد الى الخيمة قال للقوم : الخيل لا ترحف الليلة .
فقال مهاتب : ومتى اذن ؟   ـ في مساء اليوم الثاني على ما رأيت .
وحدثهم بما جرى بينه وبين القعقاع ، ثم قال للفارسي :
أقادر انت غداً على الرحيل ؟
فنهض من فراشه بهدوء وجعل يقول: بل اقدر على ذلك الآن فليس في جرحي خطر على الحياة ، وسأستعين بالصبر على احتمال الألم .
فقال بهرام : ولكن انظروا الآن في أمر خروجه من المعسكر ، فهو فارسي

وسيراه جيش العرب فيقبض عليه . ولولا بهرام لغفلوا عن هذا الامر ..

فقال عبدالله : وكيف نسينا ذلك ومهـــاتب أسير ، وهو لا يستطيع في خروجه من جلولاء ، ان يحتجب عن العيون .. ما الرأي الآن ؟

فأجابه بهرام قائلاً : الرأي ان يخرج بلباس العرب ، والى جـانبه ابو زبيد وعبدالله حتى ينتهيا معه الى الوادي .. وبعد ذلك ؟

– تعودان بعد ذلك ويرحل هو . – أي أنه يسير قبل مسير الجيش .

– نعم ، وخير لكم انتم الثلاثة ان تخرجوا من الجانب الشرقي الذي خرج منه اهل جلولاء ..

فاستحسنوا جميعهم رأي الفتى، وباتوا ليلتهم ، وهم يحلمون بتلك اللذة ، لذة اللقاء بعد ذلك الفراق ..

ولم يحدثهم مهاتب بما سيفعله في خانقين، فهو نفسه لم يكن يعلم ما الذي يصنعه بعد ان يجتمع ببهران ..

١١

لم يزحف القعقاع في مساء اليوم الثاني، كما ظن أبو زبيد ، بل فعل ذلك عندما جنّ الليل .

أما مهاتب وأميرا تغلب وطيء فقد تركوا المعسكر عند المساء ، والنـــاس يرون الفارسي ويحسبونه من رؤساء العشائر .

حتى توسطوا الوادي ، فودعهم منقذ هند على أمل اللقاء بعد أيام ، ورجع الاميران وقد بسط الليل ظله الرهيب .

وبعد ساعة مشى الجند العربي يطلب عدوه .

ولكن الجيش لا يسير يوماً، حتى يسير الرجل وحده يومين، ومهاتب يعرف بلاد قومه ، اكثر مما يعرف القعقاع ودليله ، ومعنى ذلك ان مهاتب انتهى الى

خانقين ، وكان بينه وبين القعقاع مسيرة نهار وليل .

وكان مهران مع فلول الفرس ، في الجانب الجنوبي من البلد ، وهو قريب من سفح الجبل ، والنساء في القمة ، التي تؤدي الى طريق حلوان ، والفيرزان القائد الآخر ، يحمي الجند الهارب .. من الوراء .

فلما وصل مهاتب رأى القوم رجلاً عربياً يحادث الحراس !

فأقبلوا من كل ناحية يسألون عنه ، حتى عرفوه ، وعرفوا منه انه جريح وقد أسره المسلمون ثم فرّ على فرس من أفراسهم ، وتقدموه الى قائدهم وهم يقولون له: نجا مهاتب من الأسر ! فاستقبله مهران باسماً وقال : كيف نجوت ؟

ـ قتلت اثنين من الحراس ثم ركبت هذا الفرس ولحقت بك !

ـ وأين ولدك ؟

ـ تركته جريحاً عند الخندق ولا أعلم اذا كان القوم قد أجهزوا عليه .

وتظاهر بالبكاء .

قال : ما سمعت من قبل ان المسلمين أجهزوا على جريح .. ان لهم من هـذا الدين الذي اتبعوه ما يمنعهم من ذلك ..

ـ وهل تظن انهم نقلوه الى خيام الاسرى ؟

ـ أجل ولا تنظر العرب في أمر الاسرى الا بعد ان تنتهي الحرب .

قال : ولكني خسرت ولديّ الاخرين فقد تركا جلولاء مع أهلها وأنا لا اعلم الى أي بلد انتهيا !

قال : أما ولداك الآخران فهما على قمة الجبل ، مع النساء .

فبرقت عيناه قائلاً : وهل رأيتهما أيها القائد ؟

ـ رأيت ابنتك وكانت تبكي ولكني ضمنت لها انها ستراك .. قل الآن كيف وقعت أسيراً ؟

ـ ضربني أحدهم بسيفه ، فوثبت فرسي ، فسقطت ثم أحاط بي القوم .

ـ وماذا رأيت وانت في أسرهم ؟

ـ رأيت قوماً ينسون العداوة ويتجاوزون عن الذنوب ..

قال : كثيراً ما سمعنا ذلك عن العرب .. وماذا صنعت بجرحك ؟

ـ لقد نزف بعض دمي ولكن الرغبة في الفرار أنستني ضعفي . أتأذن لي ان ارى ولدي وامكث بالجبل ريثما يبرأ الجرح ؟

قال نسألك عن جيش الاسلام قبل ان تفعل . قال : سل ما تشاء .

ـ الا يفكـّر المسلمون في اللحاق بنا ؟

– من يعلم ، فقد دخلوا جلولاء دخول الفاتحين وانا لا ادري ما الذي تحدّث به القواد . لنفرض انهم قدموا خانقين فماذا ترى ؟

– ارى ان ندافع حتى تخور القوى ثم نذهب الى حلوان فنسمع رأي الملـك الذي يقيم بها . – والنساء ؟

– يتقدمن الجيش كما فعلنا ونحن في جلولاء . اني انا الذي أمرت الرجال بأن يكرهوا النساء على الرحيل .

ورأى مهران عندئذ ان الرجل يتململ من الألم فقال للحراس: دعوا مهاتب يصعد الى الجبل فابنته بين النساء، ثم قال له: ابقَ ريثما يصل اليك أمري بالنزول او بالفرار الى حلوان .

فمشى الرجل في طريق الجبل وهو يظهر للحراس ان الدماء التي نزفت من جرحه ، نهكت قواه . مع انه لا يشكو ألماً ولا يشعر بتعب ..

* * *

ـ بشتاسب ! – أبي،وارتمت الفتاة على صدر أبيها وهي تخاطبه بالدموع.

وبينا هو يقبّل رأسها هامسها قائلا : أين هند ؟

– انها هنا مع أخي والجواري .

ودخل الاثنان خيمة لا يحجبها ستار ، من النواحي الاربـع .

انها مظلة يستظل بها الانسان من الشمس .

وكانت هند تخفي كآبتهاوراء المظاهرالكاذبةخوفاً من ان تلفت اليها الانظار فالويل لهند ، اذا عرفت النساء وحراسهنّ انها من العرب ..

فلما أبصرت مهاتب اختنق صوتها ..

فصافحها وعانق ولده وجلس بين الثلاثة والفرح يملأ قلبه وقد أيقن بان ساعة نجاة هند ، قد دنت .

فقالت بشتاسب وهي تخفض صوتها : أين أخي يا مولاي ؟

– في معسكر العرب ! – أسير ؟

– أجل ، كنا نحن الاثنين أسيرين ولكن الاقدار جعلت أثرنا ذلك الرجل الذي أحبته هند وأبعدها القضاء عنه . فصاحت هند : المنذر !

قال : تكلمي همساً يا بنية فلسنا الآن في المنزل ، نعم المنذر ... وقد رأيت أباك وأخويك وأمير تغلب ونحن الآن أصدقاء .. وحدثها بما جرى .

فخفق فؤادها وجعلت تقول : وعامر بن مذعور ؟

– اما عامر فلم يصل الى بابل وأنا أظن ان الفرس قتلوه ونظر الى الجانبين وقال: وأين سواد لا أراه ؟ – لقد جعلوه بين الاسرى .

– وعرفوا سبب اسره ؟

– لا بل قال لهم انه دخل جلولاء خلسة ، فألقيت انت القبض عليه .

قال : لقد أنقذك الفتى من الموت .. انه لو باح لهم بما يعلم لأخذوك عنوة ، ولم نسلم نحن من الاذى . فقالت بشتاسب : وماذا تصنع الان ؟

قال : سيصل الجيش العربي بعد يوم فيستولي على خانقين . – ونحن ؟

– اما نحن فنفر مع قومنا اذا استطعنا الفرار ، وتلحق هند بقومها فتنضم الى من تحب .

– ولكنهم سيكرهوننا على الرحيل،قبل استيلاء العرب كما فعلوا في جلولاء!

قال : لا تنسي اني جريح لا استطيع ذلك ....

قالت يحملونك على محفة . – بل يتركونني على قمة هذا الجبل ويفرون .

– وبعد ذلك ؟ – اسلم هند الى أبيها ثم اسير في أثر القوم الى حلوان !

فاجابته هند قائلة : بل تبقى مع العرب وستكون بينهم أعزّ منك في بلاد فارس ، واعظم شأناً . قال : ان في هذا شيئاً من الخيانة لوطني ...

وهمس في اذن بشتاسب قائلاً : مع اني أميل الى هـذا الدين الذي نشره نبي المسلمين وحارب قومه من اجله .

وعاد فقال لهند : اتريدين ان تقول العرب في انفسها اني كنت نذلاً وقد بعث قومي بشيء من الراحة ؟

– وهل تظن ان قائد الجيش العربي يأذن لك في اللحاق بقومك وانت منقذ ابنة طيء ؟ ان العرب لا يتخلون عن المحسن .

قال : أعود فأستسلم الى العرب بعد ان تنتهي الحرب .

– واذا قتلت وقتل ولدك ؟

– ذلك خير من ان يُنظر اليّ نظرات الاستخفاف .

– ولكن بهرام اسير عند العرب وسيبقى اسيراً .

– بل يطلقونه عندما يشاء . – ومن قال لك ذلك ؟

– لم يقله احد ولكني واثق بانهم سيجودون عليه بحريته .

– قالت : سأسألهم ألا يفعلوا وسيسمعون لي .

قال : ليس لنا ان ننظر في الامر قبل ان ننتهي اليه .

واستلقى على بعض الثياب ، تحت تلك المظلة ، واوصى الفتاتين والجواري بأن يظهرن للنساء ، انه جريح لا يستطيع النهوض .

واغمض عينيه ، وهو يفكر في موقفه ، وفي ذلـك الدين الذي انبثق فجره في الحجاز ، وراح القوم ينشرونه في الاقطار .

١٢

قال دليل الجيش للقعقاع بن عمرو : اعرف يا مولاي طريقاً آخرغير هذا .

قال: قل الان ابن هي خانقين. – وراء هذا الجبل الذي يقوم في آخر الافق.

وكانا يتحدثان عند الصباح . فقال : ومتى نبلغ الجبل ؟

– عند المساء وهنالك طريقان ينتهيان الى البلد . قال : صفهما .

قال : طريق يمتد في السفح من هذه الناحية وينتهي عند خانقين من الناحية الاخرى وطريق يصعد منها الى الجبل حيث تتحد بطريق حلوان وتنحدر من أعلى الى أسفل . – وأي طريق تختار ؟

– الطريق الوعر، طريق الجبل، فنقطع خط الاتصال بين حلوان وخانقين، بفريق من الجيش ، وينقضُّ الفريق الآخر انقضاضاً على المدينة .

قال : افعل ، على ان تصعد عندما يجن الليل .

وهكذا سار جيش القعقاع ، ومهران غافــل لا يبعث عيونه ! ولا يبالي الا بوسائل الفرار ، يعدّها له ولقومه اذا غلبهم المسلمون .

حتى بلغ العرب الجبل، في اول الليل، فخطر للقعقاع خاطر فقال : اجعلوا الجيش قسمين ، وصبّحوا الفرس من الناحيتين .

فمشت جنود الجبل بقيادة الدليل الحيري ، وجنود السفح بقيـــادة القعقاع نفسه ، ولم يستيقظ اهل خانقين ، عند بزوغ الفجر ، الا على الخيل تحيط بهم ، والسيوف تحصد الرجال ، والمسلمين يكبرون على القمة ويهتفون هتاف الظفر .

فتضعضع مهران ، ثم نادى مناديه : ادفعوا الخيل بالرماح وافتحوا طريقاً الى حلوان ثم قال : النساء النساء ، فستسبيهنّ العرب . ولكن القعقاع سدَّ منافـذ الهرب ، ونساء الجبل وقعن في الشرك .

ولم يجل فارس بني تميم جولته الاولى حتى أبصر فرساًيثب بفارسه وعلى ذلك الفارس الثياب الصفر ثياب القواد والامراء .. وكان ذلك الفارس مهران ، فهمز ابن عمرو جواده وتصدى له قائلاً : أين تفرّ وأنت من قواد فـــارس ، ولعلك مهران الرازي ؟!

وعاجله بطعنة أصابت عينه ، ثم عمد الى السيف فبرى به عنقه وهو يقول : يا لتميم انا القعقاع بن عمرو ...

فصاح فارس عربي وراءه : هذا والله مهران ... لقد قتل مهران ...

وردّدت فرسان العرب هذا النداء . فتفرّق الفرس المساكـــين في الجوانب

الاربعة وأدرك فارس عربي القائد الآخر ، الفيرزان ، فنزل عن فرسه ، ولجأ ماشياً الى الصخور فاختفى بينهـا ، ولم تغرب الشمس ، حتى أمست خانقين ، ملكاً لجيش الاسلام !!

وكان القعقاع يخطب قائلاً : لقد تمَّ لكم النصر ايها الابطال فتهيأوا للزحف الى حلوان حيث تمثلون بين يدي يزدجرد .

وقد فات القعقاع ان نبأ الهزيمة في جلولاء ، بلغ الملك الفارسي ، فـترك حلوان الى الريّ واستخلف على المدينة رجـلاً يقـال له خسر سنوم . وحسب يزدجرد انه ينجو بنفسه ولو جرّ أذيال الذل والعار .

***

ضرب جيش المسلمين ، على قمة جبل خانقين ، نطاقاً من الرجال ، فأصبحت نساء الفرس داخل ذلك النطاق .

فتمّ لمهاتب ذلك الامر الذي كان يرغب فيه ، من ناحية هند ، وخانه الحظ ، من الناحية الاخرى ، ناحيته الخاصة .

لقد كان يريد ، كما قرأت، ان يسلم هنداً الى طيء، ثم يلتحق بقومه ويحارب في ظل مليكه حتى تغمد السيوف ، ولكنه سقط من جديد ، في أيدي العرب ، والذنب في ذلك ذنبه وحده لا ذنب سواه !

كان عليه ان يشير على ابي زبيد بالزحف الى خانقين ، مع القعقاع ، فيدفـع اليه ابنته ، ويسير هو وأهل بيتـه الى حلوان ، ثم يطلق أبو زبيد بعد ذلك، ولده بهرام ، فيلحق بجيش الفرس .

اما الان ، فقد أحاط المسلمون بالنساء ، وليس فيهم من يعرف سرّه ، فـلم يبق الا ان يستسلم كما يستسلم الاسير ، ويترك للعرب أمر التصرف بشؤون ذويه .

وماذا يقول لسيد الجيش ؟ أيبوح له بسره فيفضح نفسه ويستخف بـه كل حامل سيف ، ام يسكت على غلّ ويعود مكرهاً الى المعسكر العربي ثم ينظر في أمر النجاة ، بعد ذلك .

خير له ان يسكت ، ويستعين بالكتمان على بلوغ غايته ، من ان يستعطف قائد العرب وفي الاستعطاف ذل .

وكان رئيس الجند ، في الجبل ، رجلاً من بني عبس ، وقد قيل له ان بين نساء الفرس ، رجلاً فارسياً جريحاً وولداً له .

فأقبل العبسي على مظلة القوم فرأى مهاتب ومن حوله .

وهند مطرقة ، والكآبة تبدو على جبينها كما تبدو على جباه جميع النساء اللواتي ضاع أملهن باللحاق بالجيش .

ولم يشكّ الرجل وحراسه ، في انهما من الفرس ! فقال لمهاتب : اتتكلم العربية أيها الرجل !

– نعم . – وانت من رجال السيف؟ – نعم . – ولماذا تقيم بين النساء؟

– لاني جريح وقد استأذنت قائدي في المجيء الى هذا الجبل .

– ومتى جرحت ؟ – منذ بضعة ايام في معركة جلولاء .

– وهل يجعل قواد الفرس جرحى الحرب بين النساء ؟

– لا ، ولكني قلت اني استأذنت في المجيء . – وهؤلاء ؟

فأشار الى بشتاسب وهند وولده الاصغر قائلا : هؤلاء اولادي .

وكان قد اوصى هنداً بألا تقول كلمة .

قال : اتستطيع الركوب الى المدائن ام نحملك على محفة ؟

قال : وهل تبعثون بالأسرى الى المدائن أم الى جلولاء ؟

– نبعث بهم وبمن نسبي من النساء الى معسكر القائد العام سعد بن ابي وقاص فيرى فيهم رأيه ، فخفق قلبه وجعل يقول في نفسه : لقد خانني الحظ مرة اخرى وأبعدني عن بهرام وأبي زبيد .

ولكن هنداً لم تبالي فقد كان يكفيها أن تعود الى معسكر العرب ولو كان المنذر في منازل النمر ، وابوها في بلاد طيء ! انها تستطيع ، وهي بين قومها العرب ، ان تطلع سعداً على أمرها ، ثم تسأله ان يبعث بها الى العشيرة .

فنظرت الى مهاتب نظرة خفية اعادت الى قلبه الرجاء. فقال: متى نرحل؟

فأجابه الرجل قائلاً : عندما ينتهي الينا امر القعقاع وقد بعثنـــا نستشيره وسيعود الرسول بعد ساعة .. قل أتستطيع الركوب ؟ ـ أجل .

ـ اذن فانهض لتنضم الى الاسرى من قومك ؟ ـ واولادي ؟

ـ تذهب ابنتاك مع النساء ولك ان تضم اليك ولدك هذا .

قال : خير لي ان تجعله مع شقيقتيه .

قال : لا بأس فهو صغير وليس ما يمنعنا من ذلك ، وكان الفتى الذي ارسل الى القعقاع في خانقين ، قد عاد ، وهو يحمل امر القائد ويسأل عن العبسي ، فلما رآه قال : ان القعقاع يأمر بالرحيل عند المساء .

ـ وهؤلاء الجنود جميعهم يذهبون مع السبي ؟

ـ لا ، بل يسير مئة جندي وأنت معهم ويبقى الآخرون على هذه القمة حتى يمرّ القعقاع في طريقه الى حلوان . ـ وأسرى خانقين !

ـ يتركون خانقين في هذا المساء ، وتنتظرهم انت مـع السبي في سفح الجبل فتقدّم المساء ، وتقوم انت على حراسة الجميـع حتى تبلغ جلولاء فـــترى هاشما وتقصّ عليه أخبار الفتح ، وتنقل اليه ان القعقاع زحف الى حلوان .

قال : أوَ يريد القعقاع ان نسير الى جلولاء ام الى المدائن ؟

ـ الى جلولاء ، ولهاشم بن عتبة الرأي الذي يشاء .

ـ قيل لي ان الاسرى يرسلون الى سعد .

ـ ولكن القعقاع لا يريد هذا وهو يقول : بعث بي هاشم الى خانقين فهو قائدي الذي أعود اليه .

فطابت نفس مهاتب عندئذ وأيقن بالفرج ، ثم قال له العبسي : لك ان تمكث اذن بهذا المكان حتى تغيب الشمس. وتركه لينظر في الأمر الذي عُهد اليه فيه.

وهند تبتسم وتقول : لقد أتت الساعة التي يكافىء فيها الله عزَّ وجـــلّ ، اولئك القوم الذين أحسنوا اليَّ .

ومهاتب يقول : أما انا فأخشى ان تخونني الاقدار مرة ثانية .

١٣

أقبل ذلك العبسي الى جلولاء ، بعد خمسة ايام ، ومعه سبي خانقين .
ومهاتب الفارسي ، وسواد العربي ، مع الأسرى ، وسواد لا يقول كلمة .
وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله ، عندما نزل القوم ، وراء الاسوار .

فلما نفضوا غبار السفر ، كما يقولون ، مرّ فتى عبس بين صفوف الاسرى يسألهم عما يطيب له ، ثم انتقل الى صفوف النساء ينظر في أمرهنّ حتى انتهى الى المكان الذي نزلت فيه بشتاسب وأخوها ، وهند .

فجعل يحدق الى الطائية وهو ساكت ، وهند جالسة وقد أرخت نظرها الى الارض خجلاً منه ، ثم قال : أتعرفان العربية ؟

فهزّت هند رأسها كأنها تقول له : لا نفهم ما تقول !.

فعلت ذلك لأنها قرأت غرامه في عينيه ..

أما هو فلم يزد ، بل انثنى الى خيام الاسرى وأمر مهاتب بان يتبعه . ولم يلبث الاثنان حتى جلسا بالقرب من الفتاتين ، ثم قال العبسي : لقد انتهينا الآن الى جلولاء كما ترى ، وستمثلون غداً بين يدي قائدها هاشم بن عتبة ..

فقالت بشتاسب بالفارسية : احذر ان تقول له ان هنداً من العرب .

وكانت هند قد أوصتها بذلك ، عندما انصرف الرجل .

فلم يجبها مهاتب، بل كان يقول : أعرف الان اننا أمسينا في جلولاء وسنرى هاشما. قال: ولكنك لاتعرف انابنتيك ستصبحان غداًملكاً لرجلين من العرب!

فتظاهر بالاستغراب قائلاً : أيجعلها هاشم جاريتين وهما من بنات الاشراف؟

– أجل ، وسيقتسم الجيش السبي دون ان ينظر الى هذا الشرف الذي تنظر اليه .   – وأنا ؟

– اما انت فستبقى اسيراً مع ولدك هذا ريثما يرى سعد رأيه فيك وفي الاسرى من قومك !   – واذا اطلق الفرس أسرى العرب ؟

– ان سعداً وحده يستطيع ان يجيبك عن هذا .

قال : سأسأل سعداً ان يعيدني الى قومي ! — ويدفع اليك بنيك ؟
ـ نعم .. فقهقه ضاحكاً ثم قال : ومن أين لك ان تصل الى سعد ؟
قال : ليس لسعد حجاب يمنعون الناس من الوصول اليه ..
ـ ولكنه لا يسمع لك .
ـ بل يفعل وهو يعرفني كما أعرفه وقد وقعت أسيراً في جيشه ليلة الهرير ؟
ـ وفررت من الجيش ؟ ـ لا .. ولكني سألته ان يطلقني ففعل .
قال : انك تهزأ بي ايها الرجل ..
ـ بل أقول لك ما ستسمعه من فم سعد نفسه ..
قالها ليثبت له ان له مقاماً في الجيش العربي !.

وكان قد رأى ، ما رأته بشتاسب وهند ، من دلائل الغرام ، وقد خاف ان يلجأ الرجل الى ما يكرهه وتكرهه هند .

على ان العبسي لم يؤمن بما سمع .. وكيف يصدق ان سعداً يخلي سبيل هذا الفارسي وهو يحارب قومه ، وقد أسر في ساحة الحرب ؟! بل كيف يصدق ان للرجل مقاماً خاصاً عند القائد العربي وهو من الأعداء !

انه كاذب في روايته ، وليس بينه وبين سعد ، ما يجعل له هذا المقام الذي يدعيه. وكانت صورة الغرام قد ظهرت على وجهه، فقال: لك ان تقول لسعد ما تشاء عندما ترسل الى المدائن ، ولكن هاشماً سيجعل هذه الفتاة ، ملكاً للرجل الذي يحملها اليه ، وهذا الرجل هو أنا !

وأشار الى هند ، فرأى الفارسي ان يعمد مع الرجل الى اسلوب آخر خوفاً من ان يخرجه عن حده ، فقال له : وليس للفتاة رأي في ذلك ؟

ـ الرأي في ذلك للقائد وحده فهو الذي يقسم السبي بين رجاله ويقول لفلان هذه جاريتك وللآخر هذه لك ! ثم قال : وهب ان للمرأة رأياً فيما ذكرت أفلا يطيب لفتاتك ان تمسي جارية لي ؟

ـ نسألها عن ذلك فقد ترضى بما ترغب فيه ، والتفت الى بشتاسب قائلاً : لتقل لك هند ما يجب ان أقوله ..

فجعلت الفتاتان تتهامسان ثم قالت بشتاسب : ليس لأختي ما تقوله الآن ..
ـ ومتى تفعل ؟ ـ عندما تمثل بين يدي القائد الذي تدعونه هاشما .
فنقل مهاتب ذلك الجواب الى العبسي فقال : سأرى هاشماً الليلة وأسأله ان يجعل فتاتك الحسناء حصة لي .
وانصرف وهو يقول في نفسه : الويل لهاشم بن عتبة اذا تصدى لي ..
ثم جعل يناجي في سره تلك الفارسية الحسناء التي استولت على فؤاده ، وقد فاته انها من بني قومه ، وان أباها من أعزّ العرب ..

* * *

كان هاشم قد اختار لنزوله في جلولاء ، منزلاً يطل على الخندق .
وكان تلك الليلة ، ينتظر ورود الاخبار من القعقاع بن عمرو .
فلما خبَّروه ان طوائف كثيرة من الأسرى والنساء ، أقبلت الى جلولاء في ذلك الليل أوصى حراسه بأن يأذنوا في الدخول ، لذلك القائد العربي القادم مع الأسرى من خانقين ، عندما يشاء ، ولو كان ذلك بعد نصف الليل .
على انه لم يلبث حتى رأى ذلك العبسي مقبلاً ، وهو لم يرَ له وجهاً من قبل ولا يعرف من هو . ففاجأه بقوله : من خانقين ؟ ـ نعم .
ـ وأنت على الأسرى ؟ ـ على الأسرى والسبي ايها الامير .
قال : ويل للفرس أيستولي الجيش العربي على نسائهم ويفرّون من الساحة ؟ كم هو عدد النساء ؟ ـ اكثر من ألف ! ـ والرجال ؟
ـ اما الرجال فضعفا هذا العدد . ـ وممن أنت ؟
ـ من عبس واسمي شراحيل .
قال : انكم معاشر عبس ابطال العرب خبرني بما فعل القعقاع .
ـ كنت أسمع صوت القعقاع ، وأنا في الجبل ، وهو في الوادي ، ينادي : لقد تمَّ لكم النصر في خانقين ايها العرب فتهيأوا للزحف الى حلوان .
قال : لا تقع العين في ساحات الوغى على بطل أثبت جناناً وأشدّ احتمالاً من

هذا التميمي .. صف لي خانقين .

– انه بلد كبير فيه القصور تشبه قصور المدائن وهو يمتدّ في سفح الجبل الذي جعل الفرس نساءهم على قمته ! – ومن كان يحمي النساء ؟

فابتسم قائلاً: بعض الفرسان الذين أمرهم مهران بان يسيروا بالنساء الى حلوان عندما يطل الجيش العربي على خانقين !

– قتلهم الله فقد باعوا نساءهم بل تخلوّا عنهنّ .. وماذا جرى لمهران ؟

– قتله القعقاع وهو يهمّ بالفرار . فأشرق جبينه قائلاً : والقائد الآخر ؟

– سمعتهم يقولون انه خلّى فرسه ولجأ ماشياً الى الجبل فاختفى بين صخوره.

وجعل يقصّ عليه ما رآه من فرار الفرس ، ثم قال : لي كلمة أقولها الآن اذا أذنت . – قل . – أيقسم السبي هنا في جلولاء ام تبعث به الى سعد ؟

قال : ان لك من وراء هذا السؤال غرضاً فما هو ؟

قال أطلب اليك ان تجود عليّ بجوابك قبل ان افعل ..

فضحك وقال : ليس لسعد شأن بغنائم جلولاء ... نقتسم هنا كل شيء ثم نبعث بالاخماس الى المدائن فيبعثها سعد الى امير المؤمنين .

– إذن أسألك الآن قضاء حاجة لي .

قال : يخيّل اليّ اني أعرف حاجتك .. لقد رأيت بين السبي فتاة حسناء تريدها لنفسك أليس كذلك ؟ – أجل . قال ألست مسلماً ؟ – بلى .

– ومتى كان المسلم يؤثر نفسه على اخيه .. قل لي من علـّمك هذا الطمع واي شيء ، مما رأيته في الاسلام ، أوحى اليك بهذا ؟

قال : ليس في القضية عاطفة طمع يا ابن عتبة !

– انما هي اذن عاطفة غرام !

فأطرق الرجل ولم يجب ، فقـــال هاشم : وهل رأيت من قبل فتىً مسلماً يذكر غرامه وهو في الميادين ؟

فرفع رأسه قائلاً: رأيتها فأحببتها فجئت اسألك ان تهبها لي وانا أتنازل عن حصتي من الغنيمة !

قال : لا والله لا افعل ولو امرني بذلك عمي سعد ! انك اذن تريد ان تخالف امير المؤمنين فيما امرنا به .. أليس هو القائل لأمراء الجيش : لا تغلوا عند الغنائم ونزّهوا الجهاد عن عرض الدنيا؟ وكيف تنزه جهادك وانت تجعل احدى حسان الفرس ثمناً له !

ـ ولكني استحق ما يستحقه سواي من القسمة وانا أتنازل عن كل شيء كما قلت على ان تعطيني ما اشتهيه ..

ـ ما كنت لاعطيك ما تشتهي ايها الرجل وامير المؤمنين ينهاني عن ذلك ..

ـ ومتى نهاك امير المؤمنين ؟

ـ عندما رأى ولده يأكل اللحم وقد اشتهاه..! لقد قال له : أوكلما اشتهت نفسك شيئاً أعطيتها إياه ؟؟ ثم قال : انني اذا فعلت هذا فكأني أقول لرجال الجيش : لكم من الغنائم والسبي ماتشتهون ، لا ما تستحقون !

قال : اجعل حصتي في الخمس الذي تبعث به الى سعد .

ـ بل أدفعها اليك وانت تبعث بها الى من تشاء ..

قال : سأحمل الفتاة الى المدائن واخبر سعداً ..

ـ ويضرب سعد عنقك عندما يراك ..

قال : لقد ظلمتني يا ابن عتبة وسعد لا يصنع مثل هذا !

فبان الغضب في وجهه وقال : أليس في الجيش ايها العبسي رجل له في الحرب مثل بلائك ؟ ـ بلى .

قال : لو جاء هذا الرجل غداً وطلب اليّ ان أهب له الفتاة التي تطلبها انت فماذا أفعل ؟ ـ تقول له انها للعبسي .. ـ وان أبى الا ان تكون له ؟..

فتردد في الجواب وجعل ينظر الى الجانبين .. فقال هاشم :

لي سؤال آخر فاسمع : لو مثل الآن بين يدي رسول القعقاع بن عمرو ، وسألني باسم ذلك القائد البطل ان أجود عليه بهذه الفتاة التي أحببت ، فماذا أقول ؟ أأقول أحبّها العبسي وأرادها لنفسه؟! قال تدعو الفتاة وتأمرها بأن تختار..

فرأى هاشم ان يعبث بهذا الجندي العاشق ، فقال : سأدعوها عند الصباح

وأسألها ان تختار واحداً منا نحن الاثنين ..

فتراجع الرجل الى الوراء وقال : أنا وانت ؟

ـ نعم ، فأنا من القواد ، وقد أبليت في حروب الشام والعراق احسن بلاء ، ولي في الغنائم والسبي مثلما لك ..! ـ ولكنك لم ترَ الفتاة .

قال : لقد اكتفيت الآن بما وصفته لي وأيقنت بأنها أحسن النساء !!

ولم يكن الرجل قد وصف الفتاة كما يقول هاشم ، فقال : لا تقوّلني ما لم أقله يا ابن عتبة .. اني لم أصفها لك ولم يخطر لي ان أفعل ذلك .

قال : ذكرتها !. وانت تلجّ في طلبها .. وهذا نوع من الوصف ..

قال : والآن ..

ـ أما الآن فانصرف !. وسأنظر في أمرك عندما تطلع الشمس ..

فنهض الرجل ، وشفتاه ترتجفان ، وجعل يقول : هذه أول مرة يحاول فيها قائد من قواد عمر بن الخطاب ، ان ينتزع نصيب جندي من جنود المسلمين .. انك ابن اخي سعد وانت لا تخاف امير المؤمنين ..

فابتسم هاشم ، ثم حوّل وجهه ليخفي ابتسامته ..

وخرج الرجل وهو يقول: لم يبقَ الا ان أشكو الى سعد ابن اخيه وسينصفني منه ، والا فسينظر في الامر امير المؤمنين نفسه .

وكان يخاطب نفسه قائلاً : الويل لمن يسلبني هذه الفارسية الحسناء .

* * *

عندما دنا القعقاع بن عمرو من حلوان ، خرج اليه خسرسنوم ومعه رجل آخر هو والي المدينة ومعهما الجند .

فاقتتل الجيشان في سهل هناك ، يوماً وليلة ، كان النصر بعدهما للمسلمين ، وقد قتل والي حلوان وفرّ خسرسنوم الذي استخلفه يزدجرد .

فاستولى القعقاع على ذلك البلد الكبير وكتب الى هاشم يخبره بالفتح ويسأله ان يأذن له في اللحاق بالفرس ، الى حيث يلجأ الملك .

على إن هاشماً استأذن عمه ، وسعد لا يستطيع ان يأذن في ذلك الا اذا أمره عمر بن الخطاب ، فكتب اليه يسأله رأيه ، وأمر القعقاع بأن يبقى في حلوان ، ريثما يصل اليه أمر آخر منه ، ثم ورد جواب امير المؤمنين ينهى به القعقاع عن اللحاق بيزدجرد ، وقد جاء في جوابه : « وددت لو ان بين السواد والجبل سداً لا يخلص الفرس الينا منه ولا نخلص اليهم ، حسبنا من البرّ السواد .. اني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » .

فأمر سعد القعقاع بأن يمكث بحلوان لا يبرحها الا اذا دعاه هو نفسه الى الخروج ، وأمر هاشماً بان يرسل خمس الغنائم ليبعث بها الى عمر ، وأقام بالمدائن يعدّ العدة لفتح جديد .

١٤

طلع الصباح ، فاذا ذلك العبسي بين يدي هاشم ، وقد جاء دون ان يدعوه، ليشهد ما يفعله أميره . فقال هاشم : أنبدأ الآن ؟ قال : افعل ما تشاء .

قال : أين فتاتك ؟ ـ في خيمتها . ـ وليس لها أهل ؟

ـ بلى، فأبوها بين الأسرى ومعه غلام وفتاة اخرى له تتبعهم جواري ثلاث.

ـ وهل تأذن لي ان أرى من ذكرت ؟

قال : انك تهزأ بي ايها الامير وهذا ما لا اطيقه ، قل لغلامك ان يدخل القوم فهم بالباب. فأومأ الى الغلام بان يفعل. وما هي الا لحظة حتى دخل القوم.

فجعل سعد ينظر الى مهاتب وقد استوقفته مظاهر نبالته .

ثم أبصر بشتاسب وهنداً فجعل يتفرس في الاثنتين وهو لا يتكلم ، ثم قال : يخيل اليّ ايها العبسي ان بين هذه الوجوه وجهاً عربياً .. أهذه هي الفتاة التي أحببت ؟ وأشار الى هند . فقال : نعم وهذه اختها .

ـ ومن هو الترجمان بينك وبين هؤلاء ؟ فنظر الى مهاتب قائلاً : هذا ؟

ـ مهاتب .   ـ وهذا أصغر بنيك ؟   ـ اجل وفي جلولاء ولد آخر لي .
ـ هنا ؟   ـ نعم وقد سقط أسيراً ليلة الخندق .   ـ وماذا يدعى ؟
ـ بهرام .   ـ وتريد ان تراه ؟   ـ وأي أب لا يريد ان يرى ابنه ؟
قال : ستضمه اليك بعد حين فقد علمنا امير المؤمنين الرفق بالاسرى وانتما الاثنين أسيران .. ولكن سنفرّق بينك وبين فتاتيك وجواريك .
قال : ان العرب اعظم من ان تفعل مثل ذلك .
ـ ولكن النساء سبيٌ ونحن نقسم السبي كما نقسم الغنائم والفرس يفعلون كما نفعل عندما يستولون على نساء الاعداء.
قال : ليس لي اذن الا ان أصبر على الفراق ... ولكن هل يستطيع الاسير مثلي ان يسأل الامير مثلك ، سؤالاً واحداً ؟
قال : أجل .   قال : من يتولى أمر القسمة ؟
ـ قائد الجيش يساعده بعض الرجال .
ـ واذا كان هناك جندي يرغب في فتاة من السبي ولا يريد سواها ؟
ـ ينظر القائد في امره ، فاذا رأى انه يستحق ما يرغب فيه ، أعطاه.
ثم قال ضاحكاً : هذه حكاية هذا الرجل مع احدى ابنتيك وقد خبرني بها امس ، وأردت الان ان اسألك رأيك في ذلك .   قال : سل الفتاة ايها الامير .
قال: اسأل اباها فهي تجهل ، على ما ارى ، لغة العرب .
ـ بل تحسنها كما تحسنها انت !
وكان هاشم قد رأى ذلك الوجه العربي كما قرأت ، فقام في ذهنه عندئذ انها من العرب ، فقال : متى علمتها لغة قومنا ايها الفارسي ؟
قال : نحن من الاهواز ، ولكننا نشأنا على شاطيء الفرات ، في العراق ، والعرب يكثرون على ذلك الشاطيء وقد تعلمتها منهم .
فقال العبسي : لقد قال لي هذا الاسير امس انها تجهلها !!
قال : انسَ ما جرى لك امس واسمع لغتها الآن ..
والتفت اليها قائلاً : اتعلمين ايتها الفتاة انك ستمسين جارية لعربي ؟!

– نعم. – ومن قال لك ذلك ؟ – هذا الرجل الذي يخاطبك الساعة.

فسمع هاشم بن عتبة لهجة فصيحة، ولغة صحيحة، فقال : اقسم انك لست من الفرس. قالت : نشأت بين العرب كما قال ابي ايها الامير.

– وتعرفين عاداتهم ؟ – اعرف بعض هذه العادات وانا لا اخافها.

قال : سنأمرك اليوم اذن بأن تتخلي عن ابيك وتنضمي الى رجل من اركان هذا الجيش. قالت : لا انضمّ الا الى الرجل الذي ينضم اليه ابي نفسه !

– اما أبوك فأسير، وليس للاسير حرية ورأي. – وماذا تفعلون به ؟

– يبقى أسيراً حتى يرى القائد الاكبر رأيه فيه وفي ابناء قومه.

– اذن فأنا لا انضمُّ الى احد، وخير لي ان اعيش مع ابي في الاسر مـدة من الزمن، من ان اعيش العمر كله في ظل رجل لا اطيق ان انظر اليه.

قال : سأفعل في قسمة السبي ما لم افعله من قبل .. قالت : ماذا ؟

– نأذن لك ان تختاري الرجل الذي تريدين.

قالت : انها كلمة اسمعها ولا أؤمن بها .. واني لأراك غداً جالساً بـين نساء الفرس تقسمهنّ بين رجالك دون ان تبالي بشيء مما حولك ...

قال : لك ان تختاري الان. – واين الرجال !

– في المنزل رجلان اثنان العبسي وانا !

فابتسمت قائلة : لقد انتهى الان دور الاختيار ايها الامير ..

– وما معنى ذلك ؟

– معناه اني رأيت من قبل فتى عربياً فأحببته .. واني أوثر ان امسي جارية له على أن تجعلوني ملكة على عرش !!

فأشرق جبين العبسي وقد قام في ذهنه انها آثرته على اميره !..

وكان هاشم يقول في نفسه : هذا جزاء عبثي بالفتى العاشق ..

ثم قال : لقد تعجلت في الاختيار فقد يدفعك قائد الجيش الى فتى آخر لا تحبينه ولم تبصري له وجهاً من قبل.

– ولكني لا أرضى بما يرضاه هذا القائد الذي ذكرت !

قال : ليس في المعسكر العربي من يجسر على يقول هذه الكلمة التي تقولينها الآن . ـ اما انا فأقولها ، وسأفعل ما يطيب لي وعين القائد تنظر اليّ .

قال: ارجوان تذكري لي هذه القوة التي تستطيعين ان تفعلي معها ما لا يستطيعه امير المؤمنين نفسه .

ـ اذكر لك قوتين . قوة الرجل الذي أحببت ، وقوة الخنجر الذي ألجأ اليه اذا رأيت ما أكره !

قال: لا يجرؤ هذا العبسي، بقوة سيفه ، وقوى قومه بني عبس، ان يتصدى لهاشم بن عتبة الذي يخاطبك الآن !

قالت : ليس لهذا الرجل شأن بما ذكرت ..

فقهقه وقال : اخرج يا ابن عبس فقد خسرت الآن كل شيء .

قال : والله لا اخرج حتى اسمع حكايتها الى النهاية .

ـ اذن لم يبق الا ان تصف لنا الفتاة ، ذلك الرجل الذي أحبت .

قالت : بل اذكر لك اسمه فهو في جيشك ، وقد اشترك في فتح جلولاء مع رجاله الأشداء ! قال : من هو ؟

فلمع الحب في عينيها وتمتمت قائلة : هو المنذر سيد النمر .

فنهض عن مقعده وصاح قائلاً : احلف بالله انك هند !

وكان يعرف حكايتها وقد سمعها من ابي زبيد ..

فقالت : نعم ايها الامير ، اني هند .. تلك الفتاة الطائية التي أعادها الله الى قومها العرب بفضل هذا الفارسي !

وحدثته عندئذ بكل ما جرى لها منذ تركها البويب .

فقال للعبسي: لقد سبيت فتاة من قومك، ابوها واخواها وعشيرتها وخطيبها في جلولاء وهم ابطال العرب .

قال : لقد نسيتها الآن ، ونسيت غرامي وسأنقل البشرى الى أبي زبيد .

قال : نرسل اليه من يدعوه دون ان نذكر له شيئاً .

والتفت الى غلامه قائلاً : أتعرف ابا زبيد الطائي ، الذي لم يشأ ان يدخل

جلولاء بعد فتحها ؟ – اعرفه ، واعرف ولديه ورفاقهم جميعاً .

– اذهب وادعُ جميع من ذكرت ولا تذكر هنداً .

ثم قال لمهاتب : لقد قلت الان ان لك ولداً آخر هو اسير في جلولاء .

– نعم . قال : سنبعث بك الان الى خيام الاسرى لتحضر ولدك .

قال: انه في خيمة المنذرابها الأمير وقد تركته فيها يوم تقدمت جيش القعقاع الى خانقين . – وكان جريحاً ؟ – أجل .

فقال للغلام : وقل لبهرام الاسير الفارسي ان يجيء مع القوم .

فخرج الغلام لينفذ امر مولاه ، ودخلت هند مع بشتاسب ، بأمر الامير ، حجرة صغيرة ، بينها وبين تلك القاعة جدار .

وقلب هند يرقص من الفرح وعيناها تدمعان .

١٥

كان أبو زبيد، يهمّ في ذلك الصباح، بدخول جلولاء، ليتبين الأسرى ، ويعدّ نساء الفرس واحدة واحدة فقد تكون هند بينهنّ ، وذلك هو العهد بينه وبين مهاتب الفارسي .

وكان بهرام يقول للقوم : قلبي يحدثني بان هنداً في السبي ، وان أبي وسواداً بين الاسرى .

والمنذر لا يصدّق ولا يؤمن بأحاديث القلوب .. حتى دخل غلام هاشم فقال : الامير يدعوكم جميعكم الى المثول بين يديه .

فقال ابو زبيد : هنيئاً لك يا نفس فقد عادت هند .. ثم قال للغلام : من رأيت في مجلس هاشم ؟

– ليس في المجلس غير غلمانه ورجل من بني عبس يدعى شراحيل .

– وهو الذي جاء بالاسرى ؟ – لا أعلم .

ـ ولكنك كنت في المجلس فماذا سمعت ؟

ـ لم اسمع غير صوت مولاي يأمرني بأن أدعوكم اليه !

فقال عبدالله : يكفي هذا،فالغلام أخرس أصمّ وقد اوصاه هاشم بالسكوت ولكن أيذهب بهرام ام يبقى ؟

فأجابه الغلام قائلاً : بل يذهب فقد أمرني مولاي بذلك .

فنظر بعضهم الى البعض الآخر وجعل المنذر يقول : وكيف يدعو الامير بهرام ولم يبلغه من قبل خبر وجوده ؟!

قال : ان مولاي نفسه يتولى امر الجواب عما تقول ..

قال : قوموا نذهب فالخبر عند هاشم .

فخرجوا جميعهم يريدون قصر ابن عتبة ، وتقدمهم الغلام اليه ، وكان هاشم قد اوصى مهاتب ، بالاّ يقول كلمة الا اذا امره بذلك .

فلما دخلوا ، أشرقت وجوههم عندما أبصروا صاحبهم الفارسي .

وجعلوا ينظرون الى ولده الأصغر وهم لا يعرفون من هو ، الا بهرام ، فقد عرف أخاه ، ولكنه ظل ساكتاً احتراماً لفاتح جلولاء .

ثم اسودّت وجوههم اذ لم يروا هنداً.. وخفقت القلوب واضطربت النفوس.

ثم قال أبو زبيد : نحن بين يديك يا ابن عتبة فقل ماتشاء .

فتظاهر هاشم بالغضب ، قائلاً : أتعرف هذا الرجل يا أبا زبيد ؟ وهو يريد، ان يمهّد بغضبه ، اسباب ذلك اللقاء العذب .

فقال : اعرفه فهو مهاتب الفارسي صاحب الفضل على بني طيء جميعهم وبني النمر ، الذين يحاربون الفرس مع قومهم العرب ..

ومدّ يده الى الرجل ، يصافحه ومهاتب ساكت .

قال : والفارسي الآخر الذي اراه بينكم ؟

ـ انه ولده وكان جريحاً !! ـ ولكن قل لي كيف عرفت الاثنين ؟

ـ عرفتها وهما أسيران في خيمة المنذر بعد واقعة الخندق .

ـ وباحا لك ، في تلك الخيمة ، بما يعرفانه عن هند ! ـ نعم .

ـ ثم اطلقت الوالد من اسره ، وارسلته الى خانقين ليعيد اليك هنـداً أليس كذلك ؟ ـ بلى ، فأين هي هند ؟

ـ ستعلم اين هي بعد قليل فقل لي الان متى جعلك سعد بن أبي وقاص قائداً لجيش جلولاء ؟

فبدا الاستغراب على وجهه ثم قال : لم يعد اليّ سعد في القيادة وانا لا يطيب لي الا ان اقود عشيرة طيء !

ـ اذن عهد اليك سعد في أمر آخر وانا لا أعلم !! ـ وما هو هذا الامر ؟

ـ هو ان تخلي سبيل الأسرى عندما يخطر لك ذلك !!

قال : لم افهم شيئاً مما تقول يا ابن عتبة !!

فقال المنذر : اما انا فقد فهمت .. تريد ان تقول ايها الامير ان أبا زبيـــد اطلق مهاتب بدون اذنك ..

ـ أجل ، واريد ان أعلم أي رجل في جلولاء يملك حق اطلاق الأسرى هو ام أنا ! قال : اني انا آسر الرجلين وانا الذي اطلقت أحدهما .

ـ اذن فأبو زبيد بريء وأنت المذنب ! ـ نعم .

ـ وكيف فعلت ما لا يجوز ان يفعله الا القواد !

ـ اني سيد عشيرتي، وانا الآسر، وليس لأحد ان يسأل الآسر عما يفعله باسيره.

قال : هب ان النمر أسرت الف رجل من الفرس ثم خطر لك ان تطلقهم جميعاً فهل تفعل ؟ قال : لا يخطر لي ان أطلق الفاً دون ان أستشير قائد الجيش.

ـ ومع ذلك فقد أطلقت مهاتب دون ان تستشير أحداً .

قال: أيطرح القدر بين يدي منقذ هند، وتريد ان أجعل القيد في رجله يا ابن عتبة ؟ ـ بل اريد ان تستأذن قائدك في كل ما تفعل فقد يأذن لك ..

قال : لم يتعود الشرف العربي ان يشاور احداً في امر مروءته ..

قال : بيني وبينك سعد .

قال : لو كان عمر بن الخطاب في المدائن لما رضيت الا بحكمه .. اني لا اخاف سعداً فسعد من الأشراف ، وقد كنت أنا فيما فعلت من أشرف الناس !

ـ على ان القدر لم يكن شريفاً كما رأيت فقد سقط صاحبك اسيراً، من جديد ولم تعد هند !

فارتجفت شفتاه ، وخفض صوته قائلاً: وهل ضاعت هند ايها الفارسي .

فأجابه الأمير قائلا : ان هنداً لا تضيع ، ولكنهم حملوها مع ابنته الى بلد آخر ، وتركوا هذا الغلام الصغير والجواري الثلاث اللواتي تراهنَّ الآن ..

ومهاتب مطرق ، لا يرفع عينيه ، ولا يسمع له صوت !

فقام في اذهان القوم ان هاشما صادق في قوله ، فقال ابو زبيد لشراجيل : أتعرف أنت اسم البلد الذي نقلوا اليه هنداً ؟ فاكتفى الرجل بان يقول : لا ؟ ولم يزد. ـ ومن سلَّم اليك النساء والاسرى ؟ ـ القعقاع بن عمرو .

قال : لي سؤال ارجو ان تجيبني عنه يا ابن عتبة .. اني ارى مهاتب الفارسي في مجلسك الآن ، فلماذا دعوته اليك ، وانت لا تعرفه ولا تعرف حكايته ؟

ـ لان القعقاع بن عمرو بعث اليَّ يقول: ان في صدر الرجل سراً لم يبح له به.

ـ وكيف عرف القعقاع ان الرجل يحمل الأسرار .

ـ لان مهاتب نفسه ، طلب اليه ان يخليّ سبيله ، ليستطيع ان ينقذ ، وهو حر ، فتاةً من العرب .. على ان القعقاع لم يصدقه وقد ارسله اليَّ ليعترف لي بما يعلم فأرى عندئذ رأيي فيه . ـ اما الآن فقد اعترف لك بسره ، فماذا ترى ؟

ـ أرى ان أجعله بين الأسرى ، كما كان ! ـ وماذا تصنع ببهرام ؟

ـ ينضم بهرام الى أبيه ؟

ـ ونترك هنداً بين ايدي الفرس يحملونها من بلد الى آخر ونحن نشقى ؟

ـ سأنظر في امر هند ، وانا واثق بان القعقاع سيعيدها الى ابيها بعد بضعة عشر يوماً .. ولكن لا افعل هذا الا على شرط ! ـ ما هو ؟

ـ هو ان اجعل المنذر اسيرا في هذا القصر أو في احد المنازل ثمانية ايام لا تنقص ولا تزيد ! ـ وبعد ذلك ؟

ـ اخبر سعداً خبر هذين الفارسيين ثم أرسلها الى المدائن .

فغضب ابو زبيد لكرامته يجرحها قائد جلولاء، ورأى ان تسلم هذه الكرامة

وتضيع هند ، فقال : اما نحن فلنا غير شروطك .. قال : ماذا ؟
قال : تطلق مهاتب وولده في هذه الساعة فيمسي الاثنان ضيفين لا أسيرين .
– أفعل ذلك وتخسر ابنتك ؟؟
– اجل فخير لي ان أخسرها وأخسر حياتي بعد ذلك ، من ان يلزم العار بنيّ الى الابد . – وأي عار هذا الذي تعنيه ؟
– تريد ان أرضى بأسر المحسن اليّ وتسألني أي عار هذا ؟ اني والله لا اصدق ان هشاماً ابن اخي سعد قائد جيوش الاسلام يقول مثل هذا القول !
فأعجب الامير بعزّة الرجل ، وهمّ باخراج هند وبشتاسب من تلك الحجرة الصغيرة التي احتجبتا فيها عن عيون القوم .
ولكنه كان يخشى ان تقتل تلك المفاجأة أبا زبيد ، فقال : وماذا تصنع يا أبا زبيد ان لم أطلق الرجلين ؟
– أسير بقومي وقوم النمر وتغلب الى المدائن وأشكو الأمر الى سعد ، فاذا رأى ان ينصفني من ابن أخيه، حمدت وشكرت، والا فالرجوع الى منازل طيء خير من حمل السيف مع قوم ينتهكون الحرمات !!
قال : أتقسم الآن انك فاعل ما ذكرت ؟
– اقسم بالله اني لا أغيّر كلمة واحدة مما قلت ..
فقال للقوم : وانتم ، أتوافقون أبا زبيد في رأيه ؟
فأجابه المنذر قائلاً : نعم ونقسم اننا فاعلون .
فخطر له عندئذ خاطر جديد هو خير ما يلجأ اليه ، فقال : يا غلام ، عليّ بجنديين من الجنود النازلين في فناء القصر .
فخرج الغلام ثم لم يلبث حتى عاد ومعه الرجلان ، فقال لهما : اقبضا على هذين الفارسيين واجعلاهما في احدى حجرات الفناء ..
فامتدت اليهما الأيدي، ومهاتب يخفي ابتسامته وراء مظاهر الكآبة والضعف وبهرام يهم بالكلام، وعينا أبيه تمنعانه منه ..
حتى خرج الرجلان بهما كما أمرهما هاشم ، فقال عندئذ لأبي زبيد : تستطيع

الآن ان ترحل مع العشيرتين اللتين ذكرت !!.

فنهض الرجل كما ينهض الليث وقـال : يخيل اليّ انك ستمنعني من الرحيل بقوة السيف .. — هذا ما أفكر فيه !

قال : مرحباً فما كان ابو زبيد الطائي ليذلّ قومه .. اني راحل يا ابن عتبة فمر جنودك بان تلحق بي .. قال الآن ؟

قال : الآن .. وخرج دون ان يلتفت اليه ، وأومـأ الى القوم بالخروج ، فتبعوه ، والأيدي على السيوف ، والغضب في العيون !

وسمعت هند صوت أبيها ، يعلو وينخفض ، ولكنها لم تسمع شيئـاً ، فقد كانت ذاهلة ، بل كانت تفكر في ذلك اللقاء القريب ..

وعندما فتح الغلام باب الحجرة ، خرجت مع بشتاسب الى قاعة الجلوس ، فلم تجدا غير قائد جلولاء ، والجواري الثلاث معهن ذلك الفارسي الصغير !

فقالت هند : أين ابي ايها الامير ؟

قال : خفت ان يقتله اللقاء في هذه الساعة فرأيت ان تجتمعا في وقت آخر .

– وهل تظن اني أستطيع الصبر وقد سمعت صوته وصوت المنذر ؟

– تستطيعين كل شيء عندما تعلمين انني أريد ان أحفظ حيـاة ابي زبيد .. فثقي بي ، وانا اقسم انه سيكون لك ما تشائين .

وأمر ، فأعاد الجنود مهاتب وولده ، وجعل هاشم يحدثهم بمـا يفكر فيه ، وهند تبكي .. وهو لا يعبأ بذلك البكاء .

١٦

عندما دخل سعد المدائن ، وأعدّ عدته لإرسال قواد المسلمين الى الأقاليم ، بلغه ان الروم اصحاب الموصل، اجتمعوا فيها ، مع قوم من تغلب واياد والنمر ، ثم زحفوا منها الى بلد يدعى تكريت ، يحمون فيه أرضهم من غارات الاسلام .

وأمر قائد الروم ، بأن تحفر الخنادق حول ذلك البلد ، ليجعل جيشه داخل نطاق من الماء ، تتراجع عنه الخيل .

وقد قام في ذهنه ، انه أمسى ، بفضل خندقه ، آمناً في بلده ، لا تصل اليه أيدي الفاتحين .

فلما فتحت جلولاء ، وانتهى خبر الفتح الى سعد ، دعا اليه عبدالله بن المعتم ، قائلاً له :

عهدت اليك في قيادة الجيش الزاحف الى تكريت ، وجعلت على المقدمة ربعي بن الأفكل ، وعرفجة بن هرثمة على الخيل ، ولكن اعلم ان مع الروم قو. من العرب فلا تنسَ ان تدعوهم الى نصرة الاسلام واذا استطعت فاجعلهم عيو لك . قال : سأفعل وسأدعوهم الى الاسلام .

قال : اخرج في خمسة آلاف وانا واثق بان الله سيظفرك بعدوك .

ثم عاد ضرار بن الخطاب وقال له : لقد جمع آذين بن هرمزان جمعاً من الفرس وخرج بهم الى السهل .. واني باعث بك اليه ولا أرضى الا بان تضرب عنقه على مرأى من قومه . قال : اي سهل هذا ؟

– سهل ماسذان وقد قيل لي ان طائفة من القواد انضمت الى جيشه ، وان اهل البلد جميعهم أعواناً له . قال : قتلني الله ايها الامير ان لم احمل اليك رأسه .

– ومن تجعل على المقدمة ؟ – الرجل الذي يختاره الامير .

– بل تختار انت ذلك الرجل . قال : ابن الهزيل الاسدي ان شئت .

قال : لقد جعلناه .. وعلى الجناحين ؟

– عبدالله بن وهب والمضارب العجلي .

فدعا سعد القواد الثلاثة وأوصاهم بما يوصي به الغزاة من جيشه .

وكان عمر بن مالك بن عبد مناف حاضراً ، فالتفت اليه قائلاً : امـا انت يـ عمر فستخرج بألفي رجل الى هيت وقرقيسياء فقد اعتصم القوم هناك بخندقهم وعولوا على الدفاع حتى الموت . قال : أيأذن لي الأمير ان اطلب طلباً ؟

– افعل . قال : مر الحارث بن يزيد العـــامري بان يكون على المقدمة

والحارث في القوم ، فقال سعد : لقد أمرناك بذلك يا ابن يزيد .

قال : اني لها وستسمع عني ما تحب. قال : تهيأوا واخرجوا على بركات الله.

فانصرف القواد يعدون عدتهم ، ثم تركوا المدائن بعد خمسة ايام ، زاحفين الى الميادين التي أرادها القائد العام ، والايمان في الصدور .

وانتهى عبدالله بن المعتم ، بعد اربعة ايام الى تكريت ، فرأى الروم ومن معهم من العرب وراء الخندق ، وقد استعدوا للحصار .

فأمر جيشه بان يسد جميع المنافذ ، وبدأ منذ الليلة الاولى يراسل العرب ويدعوهم الى نصرة قومهم ، وترك الروم .

وكانت العشائر التي أرادت الاشتراك في حرب تكريت ، تميل بحكم القومية والعاطفة ، الى المسلمين ، وهي قد انضمت مكرهة الى صفوف الجيش الرومي .

فلما راسلها عبدالله، تشاور الرؤساء، ثم أجمعوا على ان يكونوا عوناً لقومهم، من وراء الستار ، حتى يستولي المسلمون على تكريت .

وبعثوا اليه يقولون : نحن عون لك .

فجعل يزاحف القوم كل ليلة حتى انقضى اربعة وعشرون زحفاً لم يكن فيها زحف واحد للروم .

حتى رأى عبدالله أخيراً ان يقتحم الابواب عنوة ويدخل البلد ولو خسر الفاً من جيشه !

ولكنه لم يكن واثقاً بالعشائر القائمة وراء الاسوار ، وثوقاً يحمله على ذلك الاقتحام الذي يتصدى له بعده الموت .

فقال لرسله : لم يبق الا ان ارى رؤساء تغلب والنمر واياد ، واسمع اقوالهم، وأسألهم الوفاء بما وعدوا .

فاستطاع اولئك الرسل ان يسألوا بعض الرؤساء ، المثول بين يدي عبدالله.

وكان الروم قد تركوا امراءهم ، ونقلوا متاعهم الى السفن في الجانب الاخر من دجلة استعداداً للفرار .

ولماذا لا يفعلون ذلك وهم يرون انهم لم يخرجوا الى العرب مرة الا كانت الهزيمة اخر ما يلجأون اليه .

وعبدالله يعلم ذلك ، وهو يتهيأ لليوم العصيب .

فبينا هو يطوف بين صفوفه ، اتاه بعض اركان حربه يقولون : لقد اقبلت العيون من تغلب والنمر واياد ، فقال :

احجبوهم في احدى الخيام ريثما انتهي من هذا الطواف ، ثم مشى بعد قليل الى تلك الخيمة فأبصر ستة من الرجال ، فقال لهم : أتمثلون العشائر الثلاث ؟

فأجابه أحدهم قائلاً : أجل وكل اثنين منا يمثلان عشيرة .

قال : لقد اشتركت تغلب والنمر في فتح العراق منذ بدأ بالفتح أبو عبيد بن مسعود ، على شاطيء الفرات الغربي . قال : نعلم ذلك .

ـ ثم ذهب للعشيرتين صيت وذكر ، في حروب المثنى بن حارثة .

ـ نعلم ذلك . ـ وكيف خطر لكم ، وانتم من هؤلاء القوم ان تحاربوا العرب في ظل الأجنبي ؟

قال : لم يندبنا احد من المسلمين الى القتال . انـّا نقيم في منازل تبعد عن منازل قومنا الذين ذكرت . ـ والان ؟

ـ أما الان فقد فعلنا ما أمرتنا به فقل لنا ماذا نصنع .

قال : سنقتحم الأبواب وندخل المدينة . ـ من الخندق أو مما يلي دجلة ؟

ـ ندخل من الخندق وانتم تأخذون بالأبواب الاخرى .

قال : اعطنا يدك فنصافحك على الوفاء .

ـ ولكني لا أؤمن بالمصافحة فقد علمتني الحرب ان اظن الظنون ...

ـ وبماذا تؤمن اذن ؟

قال : ان كنتم صادقين فاشهدوا ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله وأقرّوا بما جاء به من عند الله . قال انها دعوة الى الاسلام .

ـ أجل وأنا لا أرضى الا بهذا والا فانتم أعداء .

قال : امهلنا نشاور قومنا في تكريت . ـ افعلوا ثم اعلمونا رأيكم.

فرجعوا وذكروا لقومهم ما سمعوه ، فردوهم الى عبدالله قائلين له :

نحن مسلمون ، نقر بما تقرّون ونشهد كما تشهدون .

قال : اذا سمعتم تكبيرنا في الليلة الآتية فاعلموا اننا قد اقتحمنا الأبواب التي تلي الخندق . ـ وعندئذ .

ـ تأخذون عندئذ بالابواب التي تلي دجلة وأنتم تكبرون حتى يظن القوم ان المسلمين فاجأوهم من الوراء ، ثم قال : والزموا الصمت بعد التكبير ولتتكلم السيوف ! فخرجوا وهم يقولون : لم يبق من عمر تكريت غير ليلة ويوم .

وعندما جنّ الليل الثاني ، اخذ جيش عبدالله بالابواب وكبر كأن صفوفه كلها رجل واحد يهتف : الله أكبر .

فكبّرت في اللحظة نفسها تغلب والنمر واياد وقد مدّوا سيوفهم ورماحهم وراء الابواب الاخرى ليمنعوا الروم من الخروج .

فحسب القوم ان ابوب دجلة قد فتحت ..

فلجأوا الى ابواب الخندق ، وهم يرون ان وراءها النجاة التي يطلبون .

ولكن كان وراءها عبدالله وقومه ، وقد سكتوا بعد تكبيرهم سكوت الاموات.

فتناولتهم السيوف من امامهم ومن خلفهم ، وجعلت الرؤوس تتدحرج الى الخندق من الهزيع الثاني من الليل الى الفجر ، حتى رأى المسلمون ، مع الصبح ، انه لم ينجُ من جماعة تكريت غير العرب الذين اعتنقوا الاسلام .

وكان عبدالله لا يغفل عن شيء ، فقال لربعي وهو يمسح سيفه ، وقد صبغت الدماء وجهه وثيابه : بقي عليك يا ابن الأفكل ان تخضع اهل الحصنين .

فأجابه وهو لا يتردّد : لقد أحسنت اذن اذ مسحت سيفي فسأصبغه من جديد . من يزحف معي الى الحصنين ايها القوم؟ فقال بعضهم : سر ونحن وراءك.

فقال عبدالله : ووراءك العشائر الثلاث التي دخلت في الاسلام .

فزحف ربعي مع اولئك الرجال الأشداء ، حتى اقتحموا الحصنين على اصحابه وارتفعت الاصوات تنادي : كل من يرغب في الصلح فهو آمن .

فهربت طائفة من القوم ، وبقي كل راغب في السلام ، حتى قدم عبدالله بن المعتم ، فتراجع من هرب ونزلوا على الذمة والامان .

ثم اقتسمت الغنائم ، فأصاب الفارس العربي ثلاثة آلاف درهم ، واخذ الراجل

الفاً ، وبعث عبدالله بالفتح ، مع الحارث بن حسان ، وبالأخماس مع فرات بن حيان ، ثم ولي حرب ما بقي من الموصل ، ربعي بن الأفكل ، والخراج عرفجة بن هرثمة ، وعاد بن المعتم الى المدائن يجرّ اذيال الفخار ..

* * *

اما ضرار بن الخطاب فقد قاد جيشه الى سهل ماسبذان .

وكان آذين بن هرمزان في ذلك السهل ، وقد جعل من حراب جنوده حصناً لم يكن في نظره أمنع منه !

وقد قرأت فيما مرّ ، ان ابن الخطاب هذا ، اقسم لسعد بن ابي وقاص ، انه سيحمل اليه رأس آذين !

وهو يذكر قسمه ولم يخطر له ان يتناساه ..

فلما تلاقى الجيشان ، وقامت الخطباء على ظهور الخيل تنفخ في الصدور روح الحرب، خيّل الى القائد الفارسي، ان كثرة جيشه ستسحق ذلك الجيش الصغير، الذي ارسله اليه الفاتح العربي ، عندما تتلاحم السيوف .

ولكنه رأى ، عندما تلاحمت ، ان ذلك الجيش جبل راسخ لا يتزعزع ، وان القلة التي استخف بها ، ستحطم حصنه المنيع .

لقد جاهد آذين ، جهاد اليائس الذي يرى الموت بعينيه، فأمسى جهاده عند غروب الشمس ، فشلاً وعاراً ، وأمست اجسام جنوده اشلاء ، تملأ ذلك السهل الفسيح ..

على ان ابن الخطاب لم يكن راضياً بما فعل !. ان النصر لا يتم له ، في نظره ، الا اذا حمل رأس الفارسي على سنان الرمح !

كان فرسه يمرق بين الصفوف ، كما يمرق السهم ، وكانت عيناه ، كعيني النسر تنظران الى ما حوله باحثتين عن الرجل ، حتى وقعت العين على العين وآذين في حلقة ضيقة من جنوده ، وهو يهمّ بالفرار ، فصاح ضرار قائلاً : والله ما رضيت الا برأسك ... إني ضرار بن الخطاب فارس بني محارب ... واقتحم الحلقة

وراءه بعض رجـاله ، فتفرقت الفرس .. ولكن السهل ضاق في وجه قائدهم ، فتلفت مذعوراً يتبين منفذاً للنجاة ، فخاب أمله ، وما هي الا لحظة حتى سقط اسيراً والرعب ملء قلبه .

فقال ضرر : ما اردت اسره ، بل أردت قتله .. ارفعوه فقد أقسمت ... فرفعوه ، فأهوى بسيفه فبرى عنقه وهو يقول : هذا والله ما وعدت به سعداً .

ثم قال : اخرجوا في طلب القوم ، فـاذا دعوتم احـــداً الى الاستسلام ولم يستجب لكم فافعلوا به كما فعلت الان .

فزحفت الخيل ، فلجأ من بقي من الفرس الى الجبال الجرداء ، التي تطل على المدينة ، ولحق بهم المسلمون يقتلون من لا يطيب له الرجوع .

حتى صاح القوم يطلبون الامان فأعطاهم ضرار ما يطلبون ، وخفق العـلم الاسلامي المظفر ، فوق اسوار ماسبذان .

وعندما انتهى خبر الفتح الى سعد ، انتهى اليه في الوقت نفسه ، خبر سقوط قرقيسياء ، واستسلام حاميتها الى عمر بن مالك .

وكان سعد ، كلما استفاق في كل صباح ، يستقبل بشائر النصر ، حتى طابت نفسه ، اذ رأى ذلك القطر الواسع ، في ايدي المسلمين .

ولم يبقَ الا ان يستشير امير المؤمنين ، في أمر فتح جديد ...

١٧

قضى مهاتب ومن معه يومهم كله في القصر الذي ينزل فيه هاشم بن عتبـة ، وقد خبرهم هاشم ما يريد ان يفعل .

وكان يقول لهند : لقد أتت الساعة التي تستعيدين فيها بهجة الامس، وسترين هذه البهجة في المدائن ، بعد بضعة ايام ...

وهي لا تصغي الى قوله ، ولا تؤمن بتلك الحكمـة التي أملت عليـه هـــذا الرأي ...

على ان مهاتب لم يضطرب كما اضطربت هند ، بل كان واثقاً بأن قوادالمسلمين لا يغضبون أبا زبيد ، وهو صاحب الشأن ، وصاحب الفضل في الجيش ، وان هاشماً لم يفعل ما فعل ، الا احتراماً لسعد ، ورغبة منه في ان يجتمع شمل القوم، بين يديه . فلما جنّ الليل ، استدعى هاشم شراحيل العبسي وقال له :

تخرج الليلة من جلولاء حاملاً رسالتي الى سعد . ــ وهؤلاء ؟

ــ اما هؤلاء فيمشون وراءك ، وانت وبعض الرجال حراس لهم .

قال : اوصني بما تريد ان اقوله .

قال : دمك ودم رجالك حلال لكل عربي اذا طُرفت لهؤلاء عين !!

ــ وبعد ذلك ؟ ــ واحذر ان تكون آمراً فالامر في يد هـذا الفارسي ، في الرحيل والنزول حتى يصبح القوم بين يدي سعد في قصر كسرى !

ــ اي انك جعلتني جندياً يسير في ركاب قائده !

قال : لك ان تختار أحب الالقاب اليك .

قال : يطيب لي ان اختار مرة في العمر ، صفةً غير صفة الجندي !

ــ ما هي ؟

ــ هي ان اكون عبداً لهذه الطـائية الساحرة ، اقود زمام ناقتها من جلولاء الى المدائن، وأقف عند رأسها، حاملاًسيفي ورمحي، عندما تستسلم الى الكرى. وأقضي ايام سفري وانا اتبعها كما يتبعها الظل ! فضحك القوم الا هنداً .. فقال : لقد كرهت هند ان يكون سيد عبس عبداً لها، يغضب عندما تغضب ، ويبتسم للحياة كلما افتر ثغرها .. بل اراها تكره أن تستأثر بي بضعة ايام وهي لا ترضى الا أن اعيش في ظلها العمر كله .. أجل يا هند سأبقى عبداً لك العمر كله ..

فضحكت عندئذ كما يضحك الطفل الباكي ، وارسلت اليه نظرة قصيرة هي مزيج من كآبة النفس ، والشكر .

واراد هاشم ان يمازح شراحيل لتنسى هند ذلك الموقف ، فقال : اما انا فقد رضيت ، على ان ترخي نظرك الى الارض ، كلما نظرت اليك ..

قال : انزل عن مقامي في عبس ، وأصير عبداً ، وتريد ان أغمض عيني يا ابن

عتبة كلما نظرت هند اليّ ؟ قال : لا ارضى الا بهذا .
ـ ولكني لا أسألك ان ترضى انت ، بل اسأل هنداً ..
قالت : جودوا على هند بلقاء من تحب واجعلوها عبدة لكم .
فقال هاشم : لقد أقسمت انه سيكون لك ما تشائين واعود فأقسم لك الآن انك ستجتمعين في المدائن ، بمن تحبين . ـ ولكن ابي خرج غاضباً كما تقول .
ـ اجل ، وهـذا معناه اننا سنعود جميعنا الى المدائن بعد حين ، وقد اردت ان يتقدمنا اليها القوم . ـ على ان ابي لا يعلم انك اردت ذلك .
ـ سيعلم كل شيء عندما يمثل بين يدي سعد . ـ ومتى نرحل نحن ؟
ـ في هذا الليل ، وسيقصّ شراحيل على سعد كل ما يعلم .
قالت : لقد وثقت بقسمك فليكافئك الله .
ـ ولكن قولي لأبيك ان ينسى مارآه فأنا لم أفعل ما فعلت الا لاحفظ حياته .
ونهض فكتب الى سعد مـا أراد ان يكتبه ، ثم دفع الكتاب الى شراحيل وهامسه قائلاً : احذر ان تبدر منك بادرة غرام ..
قال : قلت اني نسيت غرامي وأنا صادق ولم يبقَ الا ان أبذل حياتي ، اذا أكرهني القضاء على هذا البذل ، ليتمّ اللقاء .
وخرج ليتهيأ للسفر ، ثم دعا القوم الى الركوب ، ولم يمروا بالخندق ، بـل خرجوا من الجانب الآخر كي لا تراهم العيون .

١٨

الى المدائن يا بني طيء ، فقد ضاقت بنا الارض في جلولاء !
فـلم يسأل القوم ابا زبيد ، عن ذلك الحادث الغريب ، الذي قضى بذلـك الرحيل الفجائي ، الى عاصمة الفرس .
وكانت عشيرتا النمر وتغلب قد تهيأتا ، واجمع الامراء على ترك جلولاء ، عند

بزوغ الفجر ، دون أن يروا هاشماً او يقولوا له كلمة .

وابو زبيد يردد قائلاً : لقد قال هاشم بن عتبة كلمة لا يمحوها الا السيف .. اني سأنقل الى سعد غرور ابن اخيه ، ولئن رأيت سعداً لا يعبأ بي لأسعرنها حرباً لا تخمد نارها حتى تحرق العرب !

ثم قال : ماذا ترى يا عبدالله ، أتتصدّى لنا جنود هاشم ، في رحيلنا عند الفجر ؟ — لنفرض انه فعل ذلك .

قال : اذا فعلها لجأت الى السيف وملأت هذا الخندق من جثث ابناء قومنا.

قال : ما كان هاشم ليقذف بالعرب الى مثل هذه الهوة . واني لا اصدق ما رأته عيني ، وسمعته اذني ، في مجلسه حتى لأظن ان ذلك كان حلماً .

— أما انا فقد لمست غروره واستخفافه بيدي الاثنتين ، وسأرى غداً اذا كان ابو زبيد الطائي فارس الهيجاء ، يستطيع ان يطلق اسيراً بدون اذنه !!

قال : قد يكون هنالك سر لم يبح لنا به .

— وهذا هو الاستخفاف الذي عنيت ، انه يعلم الى اي بلد ذهبت هند ، وقد كتمنا اسم ذلك البلد كأنه يتعمد الاساءة الى هذا القلب . — ولكن مهاتب لم يقل كلمة . — رأيته يهمُّ بالكلام وهو لايجسر ان يفعل . — وهل تظن انه أمره بذلك ؟

— بل انا واثق ولو لم يكن له غرض بالكتمان لطلب الى مهاتب ان يقصّ علينا حكايته ، منذ ترك جلولاء .

وكان المنذر ساكتاً ، فقال : لقد رأيت الان رأياً ، هو ان تسيروا انتم الى سعد ، وأسير انا بقومي الى خانقين ، ومنها الى حلوان ، فقد أعرف في هذين البلدين ما لا أستطيع ان أعرفه وأنا في المدائن .

قال كفانا ما لقيناه من تشتت الشمل ولوعة الفراق .. نرى سعداً قبل كل شيء وسيكره سعد هاشماً على الاعتراف بما يعلم . — وبعد المدائن ؟

— اذا لم ينصفنا سعد ، بعثت قومي الى ارض طيء ، ورجعتم انتم الى قومكم.

— وهند ؟ — اما هند، فسأخرج من المدائن باحثاً عنها ولا أعود حتى أعلم

أهي فوق الارض ام تحت الارض .
ـ اذن يسير بنو النمر الى بلاد النمر واذهب انا الى حيث تذهب انت .
وهكذا قال عبدالله .
وباتوا يتحدثون حتى ضحك الفجر ، فركبوا ، وركب قومهم ، وعينا ابي زبيد تنظران الى المدينة ، نظرات الحذر والاضطراب ..
حتى جاوز السهل ، وصعدوا في الجبل وليس وراءهم احد ..
وكانت نفوسهم حزينة حتى الموت ، والالم يملأ القلوب ...

١٩

ضحك سعد بن أبي وقاص ، وطابت نفسه ، عندما قرأ كتاب ابن اخيه ، وفعلت في نفسه ، بشرى رجوع هند كما تفعل بشائر الظفر والفتح .
وقد قصّ عليه شراحيل ما جرى للقوم ، ولم ينس حكاية غرامه ، ومزاحه .
فقال : وكنت عبداً يا شراحيل ؟؟
ـ اي والله كنت عبداً لهذا الجمال وانا اخشى ان يمسي الامير نفسه عبداً له بعد قليل !! قال : ليس لك ما تخشاه يا ابن عبس فقائد الجيش لا يعبأ بمثل ما تقول وهو في الميادين .
فقال وهو لا يبتسم : عفواً ايها الامير فقد اردت ان أقول غير ما قلت ...
قال : ماذا ؟
قال : اردت ان اقول اني اخشى ان يستهويك جمال هند ، فتهزأ بالمنذر وغرامه ثم تسلبه حبيبته ، وقد تسعر نار الحرب ، من اجل ذلك ، بينك وبينه .
قال : لو كان الجمال يستهوي القواد لضيعوا النصر ... اين هند ؟
ـ ان القوم جميعهم في الرواق .
فقال هازئاً : ليدخلوا فقد بدأ القلب يخفق على الحب .

– والجواري الثلاث؟ – لتدخل الجواري فقد أختارلك واحدة منهن!!
– لو كنّ على شيء من الحسن لما انتهين اليك ... ان في القوم فتى من العرب يدعى سواداً فزوجه احداهن !
– بل نزوج الرجل الذي تسحره العينان السوداوان .. ليدخل القوم جميعهم وسننظر في الامر بعد ان نرى الجمال الذي وصفت .
فدخلوا ومهاتب يقول في نفسه : لقد دالت دولةالفرس فأين عينك ياكسرى يرى الايوان والعرش ...
وكان سعد واقفاً وعليه لباس الزهاد ، وليس في مجلسه غير واحد قائم في احد جوانب القاعة كأنه من الأصنام .
فانحنى مهاتب وبهرام ، كما كانا ينحنيان للمرازبة والامراء ، فمدّ سعد يده الى مهاتب قائلاً : لقد سمعنا من اخبار مروءتك ما يدعو الى الاعجاب اجلس ، ثم قال : من هي فتاة طيء ؟
فرفعت هند رأسها وقد أحست انها تخاطب الرجل الذي سيعيدها الىقومها ثم قالت وهي تبتسم : هذه فتاة طيء ايها الامير .
فهامس شراحيل قائلا : لقد كنت صادقاً ...
وأومأ الى الجميع بالجلوس وهو يقول لمهاتب :
انت الآن مع بنيك ، ضيف على قائد العرب ولستاسيراً ويستطيع الضيف ان يروح ويجيء ويطوف في المدائن ، عندما يخطر ذلك له .
قال : كنت اسير حرب فأمسيت الآن اسير معروف .
– ولكنك كنت صاحب الفضل فيما فعلت . وقد غمرت بني طيء ، بل غمرت قائد المسلمين نفسه ، الذي هو سيد القوم ، بفيض من أدب نفسك .
قال : لقد علمتني العرب المروءة والاحسان .
– بل أملى عليك ذلك ، محتد كريم ، وخلق نبيل .. اطلب ما تشاء ...
– لم أفعل ما فعلت لأطلب جزاءً .
– اما بنو طيء فلا يرضون الا بان يردّوا الجميل بشيء مثله .. وما كان قائد

العرب لينسى احسانا .. اذكر حاجتك ..

ــ أخشى ان يستخف الامير بهذه الحاجة اذا ذكرتها فلا يقضيها لي !

ــ ليس لك الا ان تسأل .

قال : لقد أيقنت الان بان هنداً رجعت الى اهلها وانتهى الامر. ــ نعم.

ــ ولم يبقَ لي ما أفعله بعد رجوعها . قال : ماذا تريد بقولك ؟

ــ اريد أن أعود الى قومي وأحمل السيف لادافع عن وطني . فجعل ينظر اليه والى شراحيل وقد ظهر الاستغراب على وجهه ، ثم قال : وهل يطيب لك بعد الان أن تحارب العرب ؟

ــ أجل ، فالعرب يحاربوننا ونحن مكرهون على الدفاع .

قال : لا تنسَ ان قومك لم يروا غير الخيبة .

ــ ذلك ما لا ننظر فيه الان فأنا أؤثر الخيبة في الميدان على الفرار من الواجب .

ــ وقد تقع أسيرا أو تسقط قتيلاً .

ــ وهذا أحبُّ اليَّ من موقف تكتنفني فيه النذالة واللؤم .

قال : لقد عرفت أبا زبيد وولديه والمنذر بن انس ، أليس كذلك ؟

ــ بلى . ــ ومــــاذا تصنع غداً ، وانت في ساحة الحرب ، اذا التقيت بأحد من هؤلاء ، وقد ثارت النفوس وتلاحمت السيوف ؟

ــ أضربه كما أضرب عدوي ولا أبالي .

ــ وتضيع عندئذ جميع ما صنعته مع هند ..

قال : عندما يخوض المرء غمار الحرب ، ينسى ماضيه وقد ينسى نفسه .

ــ ولكن هنداً لا ترضى بان تمتد اليك يد سوء .. ماذا تقول انت يا بهرام ؟ أتطلب ما يطلبه أبوك ؟

ــ نعم ، فلا خير في رجل يغوص قومه في لجة الحرب ، ويستسلم هو الى الراحة .

قال : ان الابن سر أبيه ، ما اسم فتاتك يا مهاتب ؟ ــ بشتاسب .

قال : أتؤثرين يا بشتاسب الفرار من بلد الى آخر وقد تسببكِ العرب ، على العيش مع هند ، في أحياء طيء ؟ قالت : ليس للنساء رأي فيما تسألني عنه .

– اذن اسأل هنداً .

قالت : لو خيروني بين الموت وفراق بشتاسب لاخترت الموت !

– وماذا تقول انت يا شراحيل ؟

قال : لا يملك مهاتب حق الرجوع الى قومه ايها الامير . – لماذا ؟

– لأنه أسير العرب . قال : لقد نسيت اننا جعلناه ضيفاً منذ دخوله .

– انه ضيف عندما تشاء وأسير عندما تشاء .. فاذا رأيت غداً ان البقاء في الجيش العربي لا يطيب له وهو يأبى الا ان يعود الى صفوف الفرس ، فانظر اليه عندئذ نظرك الى أسيرك ، وهذا خير ما تفعل .

قال : أصبت يا شراحيل وانه لرأي .. اسمع يا مهاتب ، انك الآن ضيفنا ، فاذا خطر لك ان تلحق بقومك فانت أسيرنا !!

قال : ستقول الفرس ، بل تقول العرب اني نذل وهذا ما لا أطيقه .

– اما الفرس فتظن انك بين الأسرى ، واما العرب فستقول انك أشرف الناس ، وسيد النبلاء ، وانا امير العرب أقول هذا .

قال : أستحلفك بالسماء والارض ان تأذن لي في الرجوع .

قال : أحلف اني لا أفعل ما بقيت الارض والسماء .

وانتقل الى ناحية اخرى فقال : أعد عليّ يا شراحيل ما جرى بين ابي زبيد وهاشم ابن أخي في جلولاء .

فأعاد عليه الحكاية وهو يضحك ثم قال : اذن خرج ابو زبيد غاضباً ويده على سيفه .

– نعم ، وكادت النار ، التي ترسلها عيناه ، تحرق من حوله ..!

– لقد أغضبه هاشم وهذا مزاح لا أغفره له .. وكان عليه ان يمازح المنذر . متى تظن انه يصل الى المدائن ؟

– لم يترك جلولاء عندما تركناها نحن ، بل أظن انه يبقى الى الصباح .

– اذن نراه في هذا المساء ونرى مظاهر غضبه .. وستسمعون حديثنا مع المنذر بشأن هذا الحب الذي برّح به .

وقال للقوم : امكثوا هنـا الى المساء فقد يخطر لنا ، بعد ساعة ، ان نجمع هنداً بأمها والفتاتين الاخريين .

فصاحت هند قائلة : افعل ذلك الآن ايها الامير فقد قتلني الشوق ، وكنت أهمّ بأن أسألك ذلك . قال : اي والله سنفعل فيكفي ما تقاسين .

ودعا عبده فقال له : ألم تقل لي منذ يومين ، ان في المنزل الذي يجـاور هذا القصر امرأةً من طيء لا تكف مع الفتاتين اللتين معها عن البكاء .

ـ بلى يا مولاي ، حتى اني رأيتهن اكثر من عشرين مرة والدموع في العيون.

ـ اذن تذهب الآن وتقول لهن ان يحضرن الساعة .

فخرج العبد وثباً حتى انتهى الى ذلك المنزل ، فقـال لأم زبيد : ان مولاي الامير يدعوك اليه مع الفتاتين . قالت : سعد بن ابي وقاص ؟

ـ نعم سعد وهو يريد ان تذهبن الآن .

فارتجفت ركبتاها وقالت له : ومن في مجلسه ؟

فتردد قليلاً ثم قال : أسيران من الفرس .

قالت : ويلي ، فقد يسمعني ما لا أطيق سماعه ، من أخبار هند .

ـ من يعلم فقد تسمعين ما تحبين ..

فنادت كبشة والزهراء ، ثم خرجن، والنفوس تضطرب، وهن لا يعلمن أي نبأ ينقله اليهن فاتح المدائن .

وكان سعد قد فعل ما فعله هاشم،من قبل، أمر هنداً بان تحتجب معبشتاسب والجواري الثلاث في قاعة اخرى واذن لام زبيد في الدخول،وكان يبتسم والفرح يملأ قلبه ..

ودخلت ام زبيد ويداها الاثنتان على صدرها ، وهي تنظر اليه ، ووراءها كبشة والزهراء ودم الخجل على وجهيهما ، فقال : دعوتك اليَّ لأسمعك اخبـار هند . فقالت وصوتها يرتجف : ومن نقل اليك أخبارها ؟

ـ هذا الرجل الذي ترين وقد كانت في بيته !

فرفعت يديها الى السماء قائلة : ليبارك الله هذا الرجل وليحفظ حياته . اين

هي هند الآن ؟ ـ لقد انتقلت من أيدي الفرس الى أيدي العرب !

فتجهم وجهها قائلة: خيل الي انها في هذا القصر . متى جرى هذا الانتقال؟

ـ منذ بضعة عشر يوماً يوم فتحت خانقين ! قالت : فتح خانقين القعاع بن عمرو . ـ أجل . ـ وهند معه اليوم ؟

ـ انها في جيشه وسيعلم ذلك الجيش من هي ؟

ـ وكيف وصل هذا الرجل اليك ؟

ـ ارسل مع الأسرى ، وبقيت هند في السبي ، وقد كتبت الى القعقاع اذكر له هنداً وأسأله ان يبعث بها الي . ـ وتظن انه يفعل ؟

ـ بل واثق بانك سترين الفتاة ، في هذه القاعة ، بعد ايام .

فجعلت تشهق بالبكاء وتقول : أخشى ان تذهب حياتي قبل ان ارى ذلك اليوم . لقد عللوني بالمنى ، وكنت اظن في كل ساعة اني سأرى ابنتي وأضمها الي كما كنت افعل حتى مر الزمان ولم أرَ احداً .

ـ اما اليوم فقد انقضى زمان المنى وأتت ساعة اللقاء .

قالت : لا تنسَ يا ابن ابي وقاص ان امامك أماً جار عليها القضاء ..

قال : ما نسيت ذلك قط ولن انساه .

قالت : انك تعدني بمجيء هند وتعيد الأمل الي .

ـ أجل وأنا اعلم ماذا أفعل .

ـ اذن لم يبقَ الا ان اعلل نفسي بما تعدني به .

ـ بل لم يبقَ الا أن تصبري ثلاثة ايام وقد تصل هند في هـذا المساء فتمسي الايام الثلاثة بضع ساعات .

وخرج كأنه يريد ان يخاطب غلاماً له ، ثم لم يلبث حتى عـاد وهو يقول : لقد انتهى الي الآن كتاب القعقاع . ـ وماذا جاء فيه ؟

ـ يقول القعقاع انه لقي هنداً فبعث بها الي وستبلغ المدائن مع خمس السبي، في هذا الليل ! وخشي سعد عندئذ ان يغمى عليها وعلى الفتاتين .

ولكنها مسحت دموعها قائلة : سأمكث بهذه القاعة ، اذا اذنت لي ، حتى

يجيء الليل فأرى ابنتي ..

ـ وسيجيء ابو زبيد على رأس عشيرته ، وعشيرتا النمر وتغلب ؟

فتمتمت قائلة : الشكر لله فسيجتمع الشمل .

ـ ولكني أخشى هذا اللقاء يا ام زبيد . قالت : ان فيه الهناء ..

ـ وقد يقتل الأم او الفتاة فيمسي شقاء .

قالت : لقد علمتني الحادثات ان استعين بالهدوء على ما يعرض لي ..

ـ وترين هنداً ولا تبالين ؟ ـ أجل ، فنشوة اللقاء ساعة ثم تزول .

ـ اذن فاعلمي انك ستفتحين ذراعيك لهند عندما يجيء ابو زبيد ..

ـ الليلة ايها الامير ؟ ـ نعم الليلة فانصرفي الآن ، وستعودين مع الفتاتين.

قالت : لي رجاء قبل ان انصرف . ـ ما هو ؟

ـ هو ان تحفظ حرمة بني طيء ولا تجعلهم أنذالا . ـ وكيف ذلك؟

ـ لقد أنقذ هذا الفارسي هنداً كما تقول ، أفتريد ان يقول الناس غداً ان العرب كافأوا المحسن اليهم بالأسر ؟ قال : كان أمس أسيراً وهو اليوم ضيف ..

ـ وهو حرٌ ؟ ـ بل هو صاحب هذا القصر فالعربي لا ينتهك حرمته بيده.

فخرجت وكبشة والزهراء وراءها وهنَّ يرددن ألفاظ الشكر ، وكانت ام زبيد تقول : قصر اللهمَّ هذا النهار لأرى هنداً . والفتاتان لا تصدقان ان اللقاء سيكون عند المساء .

٢٠

لقد سمعت كل شيء يا هند أليس كذلك ؟

ـ بلى ايها الامير ، سمعت صوت امي في هذا القصر ، وصوت أبي في قصر هاشم ابن أخيك ولكني لم أرَهما !! ألم ينتهِ بعد دور هذا الشقاء ؟

ـ سينتهي الليلة فقد هيأت الآن أسباب اللقاء .

ـ وهل تظن ان أبي يصل في هذا الليل ؟

ـ اذا كان قد ترك جلولاء ، في الصبــــاح الذي ذكره شراحيل ، فلا بد من وصوله . ـ وتجمعني بوالديّ على الأثر ؟

أفعل بعد ان أرى غضب أبيك وأسمع بأذني ألفاظ التهديد والوعيد .. ان أبا زبيد من أبطال العرب وانا يطيب لي ان أشهد ثورة الأبطال ..

قالت : أسألك ان تعدل عن ذلك أيها الأمير . ـ وماذا تخافين ؟

ـ أخاف ان يفضي الامر بينك وبين القوم الى ما نكره !

قال : اذا انتهى الامر الى ما تقولين فأمير الجيوش لا يصلح للامــارة. لقد تعودت ان اقابل الغضب بالحلم والشدة باللين ، فلا تخافي .

ثم قال : أنا خارج الآن وسأرجع عند المساء . فقال شراحيل : الى أين ؟

ـ الى المنازل التي تجاور الشاطىء لأنظر في هذا الامر الذي عرض للجيش .

ـ وأي أمر هذا؟ ـ داء خفي لا أعلم ما هو، ينتهي الى الهزال والضعف.

فقال مهاتب : ذلك ما يفعله هواء المدائن .

ـ هو كما تقول وسأختار للمسلمين بلداً غير هذا .

وأوصاهم بان يمكثوا بالقصر حتى يعود ، ثم انصرف بعد ان أمر الغلمان بأن يلزموا باب القاعة ، لأجل قضاء حاجات القوم .

ومرّت الساعات ومهاتب يظهر رغبته في اللحاق بقومه ، وشراحيل ينهاه عن ذلك ويقول له : ليس من الرأي ان تعود فانت لم تخن قومك ولست قادراً على ان تهب لهم النصر في الميادين ..

وهند بدورها تسأله ان يبقى وتستحلفه بآلهته .

حتى أقبل المساء فرجع سعد ، وكتب الى امير المؤمنين يسأله الرأي في ترك المدائن واختيار بقعة اخرى للجيش صحيحة المناخ والهواء .

ثم لم تمرّ ساعة حتى قيل له : جـاء ابو زبيد ومن معه ، فاهتز جسم هند ، وجعل قلبها يضطرب، فقال : اذا لم تستعيني بالصبر حجبتك شهراً عن عيون من تحبين ..

قالت : سترى اني اشدّ احتمالاً من الرجـــال ، ولكنها عاطفة تستيقظ ثم تشتعل نارها وانا لا استطيـع ان اخمد هذه النار .

فابتسم قائلاً : ادخلي اذن ، ومن الرأي ان يحتجب هؤلاء .

وأومأ الى الجميـع بالدخول الى القـاعة وشراحيل معهم ، ثم جعل يروح في مجلسه ويجيء حتى استأذن عليه القوم ، وهو يبدو انه مضطرب مهموم !

* * *

من أرى ؟! أرى أبا زبيد ، وابن الفهر وابن انس في قصر كسرى ؟ انهـــا لنازلة اخرى نزلت بالمسلمين .. ماذا جرى في جلولاء حتى اتيتم المدائن ؟

فقال أبو زبيد : ستعلم لماذا أتيناها .. قل لنا اولاً ماذا نزل بالمسلمين .

ـ هذا الهزال في أجسام الرجال ، وسببه المدائن ودجلة . قال : أتركها .

ـ سأفعل عندما يرد عليّ جواب امير المؤمنين .. قولوا لي الآن متى قدمتم وما الذي دعاكم الى ذلك ؟

ـ اما متى قدمنا ففي هذه الساعة ، واما الذي دعانا الى المجيء ، فهاشم ابن اخيك ، فاتح جلولاء ! ـ اذن جئتم بأمر منه ..

ـ بل أمر كل منا عشيرته بالركوب ونحن الآن بين يديك .

ـ ومعكم العشائر ؟

ـ اجل ولم نترك منها في جلولاء غير جثث رجالها التي سقطت ليلة الخنـدق قبل الفتح . ـ اراك غاضباً يا ابا زبيد !

ـ ان الأمر كما تقول ولولا هذا الغضب لما طرحنا السيوف !

فتظاهر الامير بالاستغراب ، ثم دعاهم الى الجلوس وقال : اسمع منك الآن ما لم أتعوّد سماعه من قبل .

ـ ذلك لأني سمعت ، من هاشم ، أغرب مما تسمعه انت .

ـ ماذا فعل هاشم ؟

ـ أراد ان يجعلني في الجيش ، عبداً من عبيده .. بل أراد ان أكون أذل من

عبد ، وانا ابو زبيد !

قال : الأبي لا يذل الا اذا نسي نفسه .. قصّ عليّ ما جرى لك .

قال : ألا تعلم ان الزمان قد جار عليّ باحتجاب ابنتي ؟ — بلى أعلم .

ـ وهل نسيت انك كنت عوناً لي ، في السؤال والبحث وقد أرسلت الرسل الى الاقطار يحملون أخبارها الى الأمراء ؟ ـ لم أنسَ شيئاً مما ذكرت .

ـ ولكننا سمعنا بعد ذلك ان رجلاً من اهل فارس أنقذ هنداً من الفرات، ثم شاءت الأقدار ان يسقط هذا الرجل أسيراً في يدي المنذر ، ويقصّ علينا حكاية هند ، منذ وثبت الى الفرات في كربلاء .

وجعل ابو زبيد يقصّ بدوره هذه الحكاية ، على سعد حتى انتهى الى قوله انه أطلق مهاتب من الأسر وبعث به الى خانقين . فقال سعد : أرجعت هند ؟

ـ لم ترجع ولكن خيّل اليّ ان هاشماً يعرف أين هي وقد كتمني ما يعلم .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ عاد مهاتب ، ولكنه لم يعد اليّ ، بل عاد الى الاسر ، ولم يشأ هاشم الا ان يحتفظ به كأسير حرب . ـ ورأيته انت ؟

ـ أجل ولم يجسر على ان يقول كلمة فقد منعه ابن أخيك من الكلام ،

ـ وماذا تطلب الآن ؟ ـ ان تنصفني من هاشم .

قال : ان الفارسي اسير المنذر لا أسيرك !

ـ وماذا تعني بقولك ؟ ـ أعني ان للمنذر وحده حق الدفاع عن كرامته .

فقال المنذر : أطلب ما يطلبه ابو زبيد . ـ اذكر هذا الطلب .

ـ ان يطلق مهاتب واهل بيته فأجعلهم ضيوفاً عليّ .

ـ خير لك ان تعمد الى امر آخر . ـ ليفعل الأمير ما يطيب له .

قال : نسأل هاشماً ان يعيد هنداً وليصنع بمهاتب ما يشاء !

ـ ومن أين له ان يعيدها وقد حملها الفرس ، على ما أرى ، الى حلوان ، ولا أعلم الى أي بلد آخر يحملونها بعد ذلك .

ـ ليس لك الا ان ترى هنداً ثم تزفّ اليك ..

فتردد قليلاً ، لتهدأ عاطفة حبه ثم قال : ومن قال لك ان ابنة طيء تريـد ن تزفّ الى عربي لا كرامة له؟ لا والله لا أرضى بهذا ولا أطيق ان يبقى مهاتب في الأسر ، والقوم الذين أحسن اليهم ، ينظرون اليه .

ـ اذن انت تؤثر مهاتب على هند ! ـ بل أؤثر شرفي على غرامي !

وتلجلج صوته كأن البكاء يتردد في صدره .

قال : اذا فعلت لك ما تطلبه الآن خسرت هنداً الى الأبد !

قال : افعل ، وانا اخرج في طلب هند . ـ ولكنك لن ترى لها وجهاً .

فخفق قلبه ، وجعـــل ينظر الى من حوله نظرات الذهول .. ثم صحا وهو صف مجنون ، وأجابه قائلاً : يظهر ان الأمير يعلم اين توجد هند !

ـ اما انا فلا اعلم ما تقول ، ولكن هاشماً يعلم ذلك !

ـ وما هي غايته من الكتمان ؟

وكان ابو زبيد يتفرس فيه وقد كاد يضيّع هداه .. والأمراء يصغون اليه وقد حبسوا الانفاس ، وبان الغضب في العيون .

فقال سعد وهو هادىء : ان له غاية غريبة لا بـــدّ من ذكرها الآن .. لقد ستهواه جمال الفتاة ! ـ وهل رآها ؟ ـ أجل ، وهي في قصره في جلولاء.

فصاح القوم جميعهم : في قصر هاشم بن عتبة ؟

ـ نعم ، وكانت تسمع صوت المنذر وصوت أبيها وتصغي الى ما يقولان ..

قال : أكاد اجنّ يا سعد فلا تعبث بي ..

ـ وأين العبث فيما أقول ؟ قلت انهـــا سمعت كل شيء واعيد قولي الآن وانا ثق .. ـ وكيف كانت تسمع أصواتنا وهي لا تقول كلمة ؟

ـ هذا سر لا ابوح لك به !

ـ بل تبوح الساعة فهذا القلب يكاد يثب من مكانه ..

قال : قد لا يطيب لك ان تسمع ايها الفتى ، أكثر مما سمعت ..

ـ قل ولا تخف فقد علمني الزمان ان أحتمل جوره .

قال : لقد رضيت الفتاة بما قاله لها هاشم فآثرت السكوت على الكلام ..

ـ وماذا قال ؟ ـ سألها ان تستبدل المنذر برجل آخر اعظم مقاماً منه !
ـ اي انه سألها ان ... ترضى به ... زوجاً لها .. ففعلت ؟
ـ بل سألها ان ترضى بالقائد الاكبر فلم تتردد في الرضى ..
ـ بك انت يا سعد ؟
ـ نعم ، وقد بعث اليّ يذكر لي ما جرى فاستجبت له .
فقهقه كما يقهقه المجنون ثم قال : من هاشم بن عتبة ، الى سعد بن ابي وقاص ! انها لقسمة عادلة يعمد اليها امراء المسلمين في بلاد الفرس.. لا والله لا اصدق كلمة مما تقول . قال : لا تزد يا ابن انس فالامير لا يكذب .
ـ وكيف تريد ان اصدق ان فتاة طيء تخون عهد الحب ، وتعبث بكرامة العشيرة ؟ ـ لقد أنساها الأسر في أيدي الفرس ، هذه الكرامة التي ذكرت .
ـ ونسيت حبها ؟
ـ أجل ، فقد قام في ذهنها انك نسيت انت غرامك ولم تفكر في البحث عمن أحببت ... ـ ولكن لم يقم في ذهنها قط ان أباها فعل كما فعلت ..
ـ بل خيل اليها ان أباها نفسه لم يخطر له ان يسأل عن ابنته ..
قال : لقد نقل اليها عامر بن مذعور وسواد ، ما أعانيه من لوعة الفراق .
ـ أما هي فلم تصدق الاثنين وقد أيقنت بأنهما رسولا كليب بن خالد ..
قال : لا أستطيع ان أنسى ما قاله لي مهاتب الفارسي .
ـ أعد عليّ قوله .. ـ كان يصف لي شوق هند ووفاءها بالعهد .
ـ وكان مهاتب كاذباً وغرضه من الكذب ان ينجو من الأسر !
ـ ومن أين علمت أنت كل هذا ؟
ـ من هاشم ، فقد اعترف له مهاتب بكذبه ، وكره هو ان يفضح الرجل وهو في مجلسه ، فمنعه من الكلام ، ولم يشأ ان يسترضي أبا زبيد عندما غضب..
ثم قال : وانتم الآن تسألون اطلاق الرجل من الأسر كأنه محسن ، وهو الخائن الذي ضيّع الاحسان بالأكاذيب !
فكاد أبو زبيد يختنق .. فأومأ الى المنذر بالسكوت قائلاً : لقد جاء دوري

الآن . فقال سعد : لا يتكلم غير المنذر !؟
ـ اني أنا ابو زبيد والد هند ، وليس لأحد ان يقول كلمة وأنا حاضر .
ـ ولكني أمنعك .. قال : ان هذا المنع يا سعد يكلف العرب حرباً .
قال : أتفعلها يا أبا زبيد ؟
ـ أي والله اضرم النار حتى تفنى العشائر ولا أصبر على ذلّ !!
ورأى سعد ان الصاعقة ستنقض ، وان السيوف ستخرج من الأغماد فقال : لقد أذنت لك في الكلام فماذا تطلب ؟ ـ اطلب أمرين لا ثالث لهما .
ـ افعل ، ولكن لا تخوفنا الحرب .
قال : أين مهاتب الفارسي الذي خدعنا بحكايته ؟ ـ قد يكون في جلولاء
قال : أريد ان أعلم أين هو ؟ ـ انه في المدائن . ـ وتقسم لي ؟
ـ أقسم لك . ـ اذن أطلب ان تعيده الى قومه في هذا الليل !
قال : ليس هذا من الرأي .
ـ ولكني لا أطيق الا ان أردّ الاحسان بالاحسان ولو كان كاذباً .
فابتسم ولم يجب .. قال : جوابك يا سعد . ـ ألا تنزل عن سؤالك ؟
ـ لا ، فاستجب لي واحقن الدماء .. ـ أعدك بأن أفعل . ـ الليلة ؟
ـ أجل الليلة وقبل ان تنصرف ..
قال : انتهينا من الطلب الأول وبقي الآخر . قال : هات .
فاصفرّت شفتاه المرتجفتان وجعل يقول : اريدان أرى هنداً .. ـ لماذا ؟
قال : اتسألني يا ابن ابي وقاص لماذا اريد ان أرى ابنتي ؟ انك أعدل من عمر ابن الخطاب امير المؤمنين ... اريد ان اراها قبل ان أخرج من المدائن ...
ـ ومن قال لك انها هنا ؟
ـ عرفت ذلك من قولك ، وقد بعث بها هاشم اليك .
ـ وهل تذكر لي ما تريد .
ـ يطيب لي ان اسأل هذه الفتاة الطائية سوألاً واحداً ثم أقف ساكتاً هادئاً حتى تجود بالجواب عنه ..!!

وكانت لهجته لهجة أبيّ أُهين عرضه . وهذا ما يرغب فيه سعد .

ـ كان يريد ان يوغر صدر المنذر وأبي زبيد ، على الفتاة ، لتحجب عاطفة الغضب عند اللقاء ، عاطفة الشوق ، وهو تمهيد لا يخلو من خطر ، كما رأيت .

ولكن سعداً ، وهو من دهاة العرب ، كان يعرف ان يمحو ذلك الغضب عندما يحتاج الى ذلك ، فقال : اما انا فقد عرفت سؤالك وا كاد اقرأ كلماته على شفتيك. تريد ان تسألها عما سمعت .

ـ نعم اريد ذلك لأسمع باذنيّ ما خبرتني اياه . ـ وبعد ان تسمع ؟

فهمّ بان يقول : اذبحها والله بهذا السيف .. ولكنه تجلّد فقال : اخرج من هذا القصر لأنصرف الى بلاد قومي . ـ والمنذر ؟

ـ وما يصنع المنذر ؟ ـ تبدر منه بادرة غضب فيحدث ما نكره .

فقال المنذر وهو ينظر الى الارض : اعدك يا سعد اني سأصبر الى النهاية ، كما تصبر الرجال .

ثم قال في نفسه : خير لي ان اموت انا من ان تموت هند !

فرأى سعد عندئذ ان الامر قد تمّ له كما أراد ، فقال لعبده :

ـ ادعُ ام زبيد وفتاتي النمر . فقال ابو زبيد : وأي شأن لمن ذكرت ؟

ـ أوءثر ان تسأل ابنتك عما تشاء وامها حاضرة .

ـ اما انا فأوءثر غير ذلك وخير لامّ زبيد الا تسمع ما سمعت .. وتصدّى للعبد يحاول ان يمنعه من الذهاب . فأمر مولاه بالانصراف قائلاً : كفى يا أبا زبيد فأنا الآمر في هذا القصر .

فتمتم قائلاً : اجل انك الآمر ، والقائد الذي يحجب بنات الامراء عن عيون اهلهن .! فتظاهر سعد بانه لم يسمع وكان يقول : لك ان تخاطب هنداً بما تشاء ولكن بهدوء ..!

قال : لقد عدلت الان عن الكلام فأنا اخشى ان أضيع هدوئي .

ـ ومن يتولى الامر ؟ ـ امير تغلب .

فقال عبدالله : لم يبقَ لي ما اقوله للفتاة بعدالحكاية التي قصّها سعد ليقم زبيد مقام ابيه . وكان الفتيان الثلاثة ، في تلك الساعة ، شعلة نار .

فقال زبيد : اذا اراد ابي ان اتكلم فعلت .

قال : انظر في أمر اختك يا بني وسأصغي الى ما تقول ..

وساد السكوت القاعة ، كأن جلساء الامير تماثيل ..

ثم نهض سعد فدخل القاعة الاخرى وهمس في اذن هند بضع كلمات .

فابتسمت ، ولكنها لم توافقه فيما قال. ثم فتح الباب ورفع صوته قائلاً للقوم: هذه هند الطائية ، وهذا مهاتب الفارسي وبنوه !

ومشى الجميع حتى توسطوا القاعة .

فعقدت روعة اللقاء وثورة الغضب، ألسنة الجماعة ورفع ابو زبيد عينيه ينظر الى فتاته الخائنة التي فضحت عشيرتها وأذلّت أباها ... وتلألأت دموع الحب والقهر في عيني المنذر وهو يتفرس في ذلك الوجه الساحر الذي جعله من قبل ، اسير الغرام ، وارتجفت أيدي زبيد وزياد على سيفيهما كأن اختهما التي طافا في بلاد العراق والشام باحثين عنها ، تحمل اليهما العار ، وبدت على جبين عبدالله مظاهر الاحتقار والاستخفاف بالفتاة التي باعت حبيبها وأباها بعظمة الامارة الخلابة !!

وكان سعد الداهية ، يلمس ما تخفق عليه القلوب ، فى ذلك الموقف الرهيب فقال : سل يا زبيد ! فناداها الفتى كأنه القاضي ينادي الجاني ، قائلاً : هند !! أتذكرين العشيرة التي تنتمين اليها ؟

فأخفت ابتسامتها قائلة : لا يستطيع المرء ان ينسى عشيرته ..

ـ وتذكرين أباكِ ؟ ـ وأية فتاة تنسى أباها ..

ـ تلك التي تخون عهد خطيبها لتزفّ الى سواه ..

فلمع الحب في عينيها ، ونظرت الى المنذر ، ثم نظرت الى سعد وقالت له : كفى ايها الأمير فأنا أعجز من ان أقوم بما سألتني اياه .

وأقبلت على أبيها فطوقت عنقه بذراعيها وهي تقول : لا تصدّق شيئاً مما

رأيت وسمعت فالزمان لا يغيّر هنداً وانا انا ..
وو ثب المنذر قائلاً : والله هذه هي هند ولم اضيّعها .
ونهض زبيد وزياد يقولان : عادت زهرة بني طيء .
وكان رأس هند ، بين يدي أبيها ، ودموعه تنحدر فوقه وشفتاه ترتجفان .
ودخلت ام زبيد، وكبشة والزهراء ، في تلك الساعة، وارتفعت الاصوات.
وأمست هند داخل نطاق من الايدي .. وغمر من القبلات .
وان القلم لأعجز عن ان يدخل الى القلوب ، ويصف خفقانها، في تلك الساعة الرائعة ، ساعة اللقاء .

* * *

سكت القوم واتجهت العيون الى مهاتب ، ثم الى سعد، وكان الاثنان يبكيان كما تبكي الاطفال ! ومسح ابو زبيد دموعه وقال : ماذا فعلت ايها الأمير ؟
ـ فعلت ما أملته عليّ الحكمة ، وقد آثرت ان يستفيق غضبك على ان تهيج عاطفة شوقك . قال : عفواً فقد أسمعتك ما لا تحب .
قال : لم يخطر لي ، عندما فعلت ذلك ، اني سأسمع غير ما سمعت . فاحمدالله الذي أعاد اليك هنداً بعد هذا الزمان الذي مرّ .
ـ أحمده عزّ وجل وأشكر للأمير عنايته بي وبطيء .
ـ بل اشكر هذا الفارسي النبيل الذي دفعته المروءة الى انقاذ هند وارجاعها اليك عالية الجبين موفورة الكرامة .
قال : لو قضيت العمر كله بالثناء والشكر لما قمت ببعض ما يستحق، ان حياتي وحياة بنيّ ملك له منذ الآن .
ـ ولكنه سيعود الى بلاد قومه ليحمل السيف في وجه العرب !
ـ ومن قال لك ذلك ؟
ـ هو نفسه ، ولم يشأ ان يصغي الى رجائي بالبقاء في طيء .
قال : لو بعثت ملوك الفرس من قبورها لما استطاعت ان تعيده الى قومه .

فقال مهاتب : البلاد تسقط في يد العربي عدو الفرس وانا ضيف على هـــذا العدو ، أستظل بظله ، وأعيش في نعمته ؟
ـ بل يستظل هذا العربي ، بظلك انت ايها المحسن ، ويعيش في نعمتك .
قال : لا يليق بي ان أبقى ، وأهل بلادي تحصدهم السيوف وهم يدافعون عن أرضهم ويبذلون دماءهم في سبيل الشرف والعز .
ـ ونحن لا يليق بنا ان نتخلى عن الرجل الذي يحفظ الحرمـــات ويصون الكرامات ..
قال : أستحلفك يا أبا زبيد ، بالإله الذي تسجد له كل يوم ، ان تمهد لي سبيل الرجوع .. قال : أحلف بالله القادر على كل شيء اني أقتل نفسي اذا رجعت ..
فقال سعد : كفى وان لي رأياً . ـ اذكره ايها الامير .
قال : خير لنا ولمهاتب ، اذا بقي بيننا ، ان يمسي هو واهل بيته من المسلمين.
فقال الرجل : وهل سدّت في وجهي منافذ الرجوع ؟
ـ نعم فانت لا تستطيع ان تترك العرب بعد الآن .
ـ اذن فأنا راغب في الاسلام ، واني لأرى العربي المسلم أفضل من الفـارسي الذي لا دين له .
فصافحه سعد قائلا : لقد أمسيت الآن عربياً لك ما لنا وعليك ما علينـــا وسيعتنق الاسلام طوائف كثيرة من قومك ، ثم قال : ولي رأي آخر يا أبا زبيد ، فقل لي متى تزف هند الى المنذر ؟
ـ لا نترك المدائن قبل ان تزف اليه وتزف كبشة والزهراء الى زبيد وزياد .
ـ وبشتاسب ؟ ـ اما بشتاسب فتزف الى الفتى الذي يختاره الامير .
ـ لقد اخترناه الآن اذا رضي أبوها به .. قال : من هو ؟
ـ هو هذا وأشار الى شراحيل العبسي .
وكان شراحيل من الفتيان النبلاء ، كما عرفت ، وهو سيد قومه .
والتفت سعد الى مهاتب ينتظر جوابه فقال : اسأل الفتاة قبل ان أجيب ، وجعل يخاطب ابنته بالفارسية وهي مطرقة حتى قالت كلمتها، بعد تردّد قصير ،

فقال : لقد رضيت بشتاسب ورضي أبوها بما أراده الامير سعد .
– وانت يا شراحيل ؟ – أما انا فلم أرَ أحسن من هذا الرأي ..
فضحك القوم، ثم نهض ابو زبيد يقول : والآن فنحن نستأذن في الانصراف.
قال : وستعدون عدة الزواج ؟
– نعم فنحن نخشى ان يتجهم لنا وجه الزمان ..
قال : لقد أشرق وجهه وندم على ما بدا منه ..
فقال عبدالله : أرى ان الامير نسي أمراً آخر أذكره له اذا أذن لي .
– قل فقد أذنت . قال : رأيت ان تزوج بشتاسب ونسيت بهرام !
فوضع يده على جبينه قائلاً : أصبت فانا قد نسيت ذلك .. من ترون حولكم من حسان العرب ؟ فترددوا جميعهم في الجواب ، فقال شراحيل : زوجته اختي صفية . – وأين هي اليوم ؟ – في المدائن مع امها وأخويها الصغيرين ..
فبكى مهاتب وقال : الحمد لله الذي جعلني مسلماً .
– ونحن نحمده على اجتماع الشمل .
وخرج الجميع من قصر كسرى ، وهم لا يعلمون لشدة الفرح أين يضعون أقدامهم . وكانت أشعة الحب ، في ذلك الظلام ، تطلّ من عيون المحبّين ..

٢١

والان ؟ أفلا تقول لي يا زياد اين تركتم كليباً ؟
ـ اقول لك ذلك يوم يتم الزواج .
ـ بل تفعل الساعة فأنا استطيع ان احتمل الخبر الرائع ولو كان فيه الموت !
قال : سنمسي يا كبشة زوجين ، بعد ثلاثة ايام ، وأنا اعدك اني سأقصُّ عليك اخبار كليب منذ ترك البويب .
قالت : استحلفك بهذا الحب ان تقصها الليلة .

ـ ذلك ما يفعله زبيد فهو أعلمُ.   ـ اذن فادعُ زبيداً ، فقد خيّل اليّ منذ لحظة ، ان اخي مضرج بالدماء ... وخرجت هي نفسها لتنادي اخاه ، فتقدمها قائلاً : سأدعوه وليكن ما تريدين .

وكان سواد قد أصبح من غلمان أبي زبيد ، فقال له : ان مولاك زبيداً على الشاطيء فقل له اني بحاجة اليه . فانصرف الغلام ، ثم رجع ، ووراءه زبيد والمنذر وهند والزهراء . فقالت كبشة وهي تغص بالدمع : اين اخي كليب يا زبيد ؟ فجعل ينظر الى القوم وقد ذعر لهذا السؤال ، ثم قال : خير لك ان تنسي كليباً فهو اصل البلاء ..

قالت : لو كنت انت اخاً له لما نسيته .. اريد ان اعلم الان ما كتمتموني اياه ... أين هو ؟

فقالت هند : لقد انقضى شقاؤنا الان وغفرنا لكليب .. خبّر كبشة بما تعلم.

قال : لا تلجي في الطلب ففي الحديث ما لا تحبين .

ـ لو كان في السرّ ما احب لبحتم لي به دون ان اسألكم ذلك .. قل أقتل كليب ام مات حتف انفه . قال تركناه في سهل فسيح بين دمشق وفلسطين ..

ـ وهو حيّ ؟ فتلعثم قائلاً : بل هو ميت ...

فاستيقظت عاطفة الاخت ، فبكت ، ثم جعلت تقول : خبّروني ايّة يد انغمست بدمه ..! قال : يد القضاء الذي لا مردّ له ..

ـ ومن كان شاهداً على هذا القضاء ؟   ـ انا يا كبشة وقد أغمضت عيني كليب بيدي ، ونقلت جثته الى حفرة في ذلك المكان ، لا تدوسها الاقدام .

قالت : اقسم لي انك بريء من دمه ..   ـ اقسم لك اني بريىء وان يدي لم تمتدّ اليه .   ـ وكيف مات اذن ؟   ـ قتله الخوف ولم نكن نحن نريد قتله.

فاستسلمت الى البكاء ، والصمت يسود المكان ، حتى بكى القوم جميعاً كأن كليباً كان أحب الناس الى القلوب !!

ثم رفعت رأسها قائلة : ان الله لم يشأ ان يحرمني زياداً كما حرمني كليباً ...

فعرف المنذر ما الذي تعنيه ، فقال : لو كانت يد زبيد ، انغمست بدم كليب ،

لما رضيت كبشة بان تزف الى زياد .. أليس كذلك ؟

ـ بلى ، وكيف ازفّ الى فتى دم أخي في عنق أخيه ؟!.

ـ وماذا كنت تصنعين يا ابنة العم ؟

ـ كنت اسير الى هذا الشاطيءِ فاقذف بنفسي الى دجلة كما قذفت هند بنفسها الى الفرات ، وانا اسأل الله ان ينسي زياداً حبي ويرسل اليه فتاة تجعل ايامه نعيما وحياته كلها بهجة وهناء ..

ثم قالت لزبيد : قصّ عليَّ ما جرى لكليب وهو حي .

فجعل الفتى يروي لهـا حكاية ذلك الشقي ، وهي لا تكفّ عن البكاء حتى خارت قواها ، وجفّت في عينيها الدموع .

فقـال زياد : كفى الآن بكاء فنحن في عرس ، وليس من الرأي ان تذكري الماضي وتستسلمي الى العاطفة .

قالت : فعلت ذلك الآن كي لا أنغـّص عليك العيش بعد الزواج .. ثم نذهب الى الشاطىء فقد نسيت الآن كل شيء ..

فأعجب القوم بتلك العاطفة العالية ، وخرجوا جميعهم الى دجلة يروحون ويجيئون على ضفته الواسعة ، وصفية اخت شراحيـل ، وبهرام معهم ، وهم يتحدثون بامر الزواج ، ويصف بعضهم للبعض الآخر ، ذلك اليوم المبارك الذي يتحد فيه المحبون بالمحبين .

ولم يكن هنالك ما يعكر صفو الحياة ، غير تلك الذكرى الضعيفة التي تتردد في صدر كبشة ، كما رأيت .

* * *

مرّت الايام الثلاثة كما يمرُّ الظل .

وقام القدر الضاحك ، مقام القدر القاسي الجائر ، فزفّت هند الى المنذر ، والزهراء الى زبيد ، وكبشة الى زياد ، وبشتاسب الى شراحيل ، وصفية الى بهرام.

ولم يشأ فاتح بلاد فارس ، الا ان يشارك القوم في عيدهم .. ويشاطرهم ، مع

امراء العرب ، والقواد المقيمين بالمدائن ، ذلك الفرح الذي كانوا يتوقون اليه ، وينتظرون يومه .

ودامت أفراحهم ثمانية ايام لجأت ، كل عشيرة ، في خلالها الى عاداتها في أعياد الزواج ، ويد سعد في كل وليمة وكل عيد .

٢٢

عندما مثلت وفود القوم ، بين يدي عمر بن الخطاب ، تحمل اليه أخماس الغنائم ، من بلاد الفرس، وتنقل اليه أخبار الفتح ، رأى أجساماً ضعيفة وألواناً صفراء لم يرَ مثلها من قبل ، في وجوه العرب .

فقال لهم : ما هيئتكم بالهيئة التي أعلم ، فما غيَّركم ؟

قالوا : البلاد التي نحن فيها .

فنظر في حاجاتهم ، وتعجل في إرجاعهم ، وكتب الى سعد :

أنبئني ما الذي غيَّر ألوان العرب ، فكتب اليه : ذلك فعل المدائن ودجلة وكنت أهمّ بان أسألك الرأي في الانتقال الى بلد آخر فيه خير لنا .

فبعث اليه بالجواب يقول: ان العرب لا يوافقها الا ما وافق إبلها من الارض، فابعث من يرتاد لك منزلاً ليس بيني وبينكم فيه لا بحر ولا جسر .

وكانت قد دخلت السنة السابعة عشرة ..

فبعث سعد رجلين من رجال الجيش سار احدهما الى الانبار ومنها في غربي الفرات لا يرضى شيئاً مما يراه حتى أتى موضع الكوفة .

وسار الآخر في شرقي الفرات لا يعجبه شيء مما رآه حتى أتى ذلك الموضع ، وتلاقى الاثنان فيه .

فأعجبتهما الارض وأتيا سعداً فخبراه . فشاور من يعرف العراق ، من وجوه العرب ، فأشاروا عليه ، « باللسان » وظهر الكوفة يقال له اللسان ، وكانت

العرب تقول : أدلع البر لسانه في الريف .

فبعث الى عمر يصف له ذلك المكان، فأمره عمر به، وبالتعجل في المسير اليه.

فكتب سعد الى القعقاع بن عمرو : احضر وخلف على النـاس ذلك الرجـل الذي يقال له قباذ . واصل قباذ من خرسان .

وكتب الى عبدالله بن المعتم: ليكن مسلم بن عبدالله خليفة لك على الموصل ولا تتردد في المجيء الى المدائن . فأقبل القوم ، فنادى منادي سعد :

انتم مخيرون ايها المسلمون ، بين الاقامة بالمدائن ، والرحيل عنها الى الكوفة فمن شاء فليبق بين الحامية ، ومن شاء الرحيل فليتهيأ .

فآثرت البقاء طائفة من المسلمين ، اكثرهم من بني عبس .

وارتحل الناس فبنوا في الكوفة مسجدهم ، ثم جعلوا يبنون بامر عمر منازلهم واسواقهم ، وبنوا لسعد داراً تجـاور المسجد بينها وبينه مئتا ذراع ، وجعلوا فيها بيوت الاموال ، وهي التي يقال لها اليوم قصر الكوفة .

وادعى بعض الناس على سعد انه قـال : لا أطيق ، وانا في قصري ان اسمع اصوات الناس في الاسواق !

وبلغ ذلك عمر ، وان الناس يدعون القصر قصر سعد .

فدعا محمد بن مسلمة ، فسلم اليه كتاباً الى سعد ، وسرّحه الى الكوفة قائلاً : اعمد الى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع !

فخرج الرجل حتى قدم الكوفة، فاشترى حطباً ثم اتى به الى القصر فحرق بابه وسعد لا يعلم !

فلما انتهى اليه خـــبر محمد قال لمن حوله : هذا رسول ارسل لهذا الغرض ، انظروا من هو ، فقيل له: انه محمد بن مسلمة ، فدعاه الى الدخول فأبى ، فخرج هو اليه واراده على النزول في قصره فلم ينزل ، ثم عرض عليه نفقة فلم يأخـــذ ودفع اليه كتاب عمر ، فقرأ سعد :

« بلغني انك بنيت قصراً اتخذته حصناً، ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً . فليس القصر قصرك وانما هو قصر الخبال « الفساد » انزل منه

منزلاً مما يلي بيوت الأموال ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع النـــاس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك اذا خرجت » !

فحلف سعد لمحمد انه لم يقل ولم يفعل ما بلغ عمر .

ورجع الرجل حتى قدم المدينة فخبر امير المؤمنين خبر سعد وذكر له يمينه.

فقال الخليفة العظيم : لقد صدقت سعداً انه اصدق ممن روى .

وشدة عمر،هي التي جعلت العمال في كل قطر،ينهجون نهج خليفتهم ويقيمون العدل في الناس .

وكان سعد ، قد أرسل قبل ذلك ، عتبة بن غزوان ، الى البصرة ، فمصّرها واتخذها مدينة للمسلمين .

ويقول بعض المؤرخين ، كان ذلك في السنة الرابعة عشرة ، وقـال البعض الآخر ، في السنة التي بعدها .

ثم مات عتبة وهو عامل عمر عليها ، فولى بعده أبا سبرة، ثم عزله واستعمل المغيرة بن شعبة ، ثم عزله وولى ابا موسى الأشعري .

* * *

لم يبقَ لك ايها القارىء ، وقد قرأت : هند والمنذر ، واختطاف هند ، ولقاء المحبين ، الا ان تقرأ اخبار الفتح الاسلامي ، في ايام عمر بن الخطـاب ، لتطوي الروايات الثلاث وانت مطلع على كل ما فعله المسلمون ، منذ ظهور النبي العظيم ، الى اليوم الذي مات فيه عمر ، رضي الله عنه .

نكتب لك اخبار الفتح ، باختصار ، لترسخ في الذهن ، ويبقى اثرها الخالد في الصدر ، وتتغلل في النفس عاطفة الاعجاب بقومـك العرب ، الذين حطموا العروش، ومدوا رواق ملكهم، في ذلك الزمان القصير ، في كل فضاء في الشرق.

* * *

٢٣

هيّج أهل جزيرة العرب ، في السنة السابعة عشرة ، قيصر الروم هرقل،على المسلمين النازلين في حمص .

ووعدوه انهم سيكونون عوناً له ، على استرجاع المدينة ، والظفر بفاتح بلاد الشام ، ابي عبيدة بن الجراح .

وهرقل ، طالب ثأر .. وهو ينتظر غفلة الدهر ، ليقود جيشه الى ميـادين الشام ويسترجع المجد الذي سلبه اياه المسلمون !

وعند هرقل المال والرجال ، ولكنه يحتاج الى نصير عربي يحمل السيف في وجه هؤلاء الفاتحين . فلما انتهى اليه ان عرب الجزيرة يتحفزون للوثوب ، ضمّ اليه انصاره وجنوشه من كل اقليم ، ومشى على رأسهم الى حمص .

وبلغ الخبر أبا عبيدة ، فدعا خالد بن الوليد ، من قنسرين ، وجميـع من حوله من امراء الجند ، وجعلوا يتشاورون .

ولم يشأ أبو عبيدة الا ان ينزل عند رغبة الجماعة ، في التحصن أو الحرب في السهل خارج الاسوار . فكان رأي خالد ، ان يناجزوا الروم ، ويحـاربوهم كما حاربوهم من قبل ، وكان رأي سائر القواد ، ان يتحصنوا ويكتبوا الى امـــير المؤمنين . فأطاع أبو عبيدة القوم ، وعصى خالداً ، ثم كتب الى عمر ، بخروج الروم باغراء اهل الجزيرة ، وطلب اليه ان يأمره بما يصنع .

وكان عمر ، لحكمة في نفسه ، قد جعل في كل بلد خيولا هي عدة للمسلمين اذا فاجأتهم حرب . وفي الكوفة من ذلك ، اربعة الاف فرس .

فكتب عمر الى سعد: اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وابعث بهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي الى حمص فان ابا عبيدة قد احيط به .. وارسل سهيـل ابن عديّ الى الجزيرة في الجند وليأت الرقة فإن اهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على اهل حمص.وسرّح عبدالله بن عقبة الى نصيبين وليأتيا حران والرها. وابعث بالوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعـــة وتنوخ، وليكن معه

عياض بن غنم فان كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً الى عياض .

وكان عياض من اهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد الى الشام ، وممن انصرفوا من اهل العراق الى القادسية .

فمشى القعقاع في اربعة الاف ، في اليوم الذي اتاهم فيه كتاب عمر ، وخرج عياض وامراء الجزيرة كل واحد منهم الى البلد الذي امر بالذهاب اليه .

ولم يكتفِ امير المؤمنين بكل هذا ، بل خرج هو نفسه من المدينة مغيثاً لاهل حمص ، وهو لم يفعل ذلك ، الا لانه كان يخشى ان يستعيد الروم في الشام عزّهم المفقود . فلما بلغ اهل الجزيرة الذين اعانوا هرقل ، وكانوا في جيشه ، ان جنود الاسلام خرجت من الكوفة تريد ارضهم ، فارقوا القيصر ورجعوا الى جزيرتهم ليتدبروا شأنهم وينظروا في الامر الذي انتهوا اليه .

فتغير موقف ابي عبيدة ، ورأى في ذلك الحين امراً لم يره من قبل فاستشار خالداً في الخروج فكان الخروج من رأي خالد فزحف الجيش الى الروم فأظفر الله المسلمين ولجأ هرقل وقومه الى الفرار .

وقدم القعقاع بن عمرو من الكوفة بعد ثلاثة ايام وكان النصر قد تم لأبي عبيدة كما رأيت ، فكتب الى عمر وهو قد وصل الى الجابية ، يسأله حكمه في الغنائم ويخبره بوصول القعقاع بعد فرار الروم . فأقام عمر بالجابية ، وكتب اليه :

جزى الله اهل الكوفة خيراً ، يكفون حوزتهم ، ويمدون اهل الامصار... اشركوهم في الغنيمة كأنهم اشتركوا في القتال .

وأمره بأن يبعث اليه بخالد بن الوليد ومن معه ، وهو ينتظرهم في الجابية ، فسار خالد حتى لقي امير المؤمنين ، فدعاه عمر الى الذهاب معه الى المدينة وقد عزله عن امارة الجند لانه كان كثير العطاء .

وكان خالد، بعد ان انتهى الى المدينة ، يشكو عمر ويقول له : انك في امري غير مجمل . وعمر يقول : قل لي يا خالد من اين هذا المال ؟!

قال : من الغنائم ، فما زاد على ستين الفاً فهو لك .

فقوّم عمر ماله فزاد عشرين الفاً ، فجعلها في بيت المال ثم قال : يا خالد ،

والله انك عليّ لكريم وانت اليّ لحبيب . وكتب الى الامصار : « اني لم أعزل خالداً عن سخط او خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا بــه فخفت ان يستسلموا اليه واحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع» .

وكان خالد ابن خال عمر ، لان امّ عمر ، حنتمة بنت هـــاشم بن المغيرة ، وخالد بن الوليد بن المغيرة .

وكان في قلنسوة خالد التي يقاتل فيها شعرات من شعر رسول الله صــلى الله عليه وسلـّم وسماه النبي سيفاً من سيوف الله .

ولخالد ترجمة واسعة وقد توفي في خلافـة عمر وهو في حمص - وقيـــل في المدينة – في السنة الحادية والعشرين . ولما حضرته الوفاة قال :

«لقد شهدت مئة زحف او زهاءها وما في جسمي موضع شبر الا فيه ضربة او طعنة أو رمية، وها انا اموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء وما من عمل عندي ارجى من لا إله الا الله» .

الجزيرة :

الجزيرة بلاد تشتمل على ديار بكر وربيعة ومضر ، بين دجلة والفرات .

قدمها القواد الذين امرهم عمر ، فنزل سهيل بن‌عدي على الرقة وحاصرها حتى سأله اهلها الصلح . ونازل عبد الله بن عتبان نصيبين فصالحوه كما فعل اهل الرقة قبلهم . واتى الوليد بن عقبة عرب الجزيرة فنهضوا معــــه جميعهم الا بني اياد بن نزار فانهم دخـــلوا ارض الروم . فكتب الوليد بذلك الى عمر فكتب عمر الى هرقل : بلغني ان حياً من احياء العرب تركوا دارنا واتوا دارك فوالله لتخرجنهم او لنخرجن النصارى اليك . فأخرجهم هرقل وتفرق منهم اربعة الاف فيما يلي الجزيرة والشام . وبعد ان استولى المسلمون على الرقة ونصيبين ضم عياض اليـه سهيلاً وعبدالله وسار بالناس الى حران ، فلما وصل اجابه اهلها الى الجزية واجروا كل ما اخذوه من الجزيرة عنوة مجرى الذمة فكانت الجزيرة اسهل البلدان فتحاً .

فطلب أبو عبيدة الى عمر بن الخطاب عندئذ ان يضم اليه عياض بن غنم بدلاً

من خالد بن الوليد. فصرفه اليه واستعمل علىعجم الجزيرة حبيب بن مسلمة وعلى عربها الوليد بن عقبة وأمرهما بان يحاربا من لم يخضع .

فأبى الوليد وهو ينظر في امورالعرب، ان يقبل الجزية من بني تغلب النازلين في الجزيرة ، وكان يقول لهم : ليس الا الاسلام .

فكتب اليه عمر : دعهم على ان لا ينصّروا وليداً ولا يمنعوا احداً منهم من الاسلام ، اذا رغب فيه . وكان في تغلب عز وامتناع .

فهمّ بهم الوليد ، فخاف عمر ان يفعل ، فينفرهم ، فعزله وولّى فرات بن حيان ، وهند بن عمرو الجملي ، ورجع الوليد الى معسكر سعد[1] .

غزوة الفرس من البحرين :

كان العلاء الحضرمي ، عاملاً على البحرين ، في خلافة ابي بكر ، ثم في خلافة عمر بن الخطاب ، وكان عمر ينهاه عن الغزو في البحر ، خوفاً من ان يغرق المسلمون فيه ، ولكنه خالفه وندب الناس الى قتال الفرس ، وعمر لا يعلم .

وقد أجابه القواد الذين معه ، وتهيأوا لركوب البحر غزاة فاتحين .

ففرقهم أجناداً ، الجارود بن المعلّى على جند ، وسوار بن همام على آخر ، وخليد بن المنذر على جميع الناس ، ثم حملهم في البحر الى فارس .

فعبرت الجنود من البحرين الى بلاد فارس ، ونزلوا بالقرب من بلد يقال له اصطخر ، يقابلهم من الناحية الاخرى جند فارس ، وقائدهم بطل من ابطال الاعجام يدعى الهربد ، وهو ذو منزلة وشأن في قومه .

وكان الفرس كثاراً وامراؤهم من رجال الميادين .

فلما ظن قواد العرب ان الجيشين سيلتقيان عند اصطخر ، تراجع الهربد بجيشه الى سهل فسيح يقال له سهل طاوس ، وأقام به ينتظر قدوم العدو .

وهو يرى ان الحرب في ذلك السهل خير من البقاء في اصطخر .. بل كان يرى ، ان سهل طاوس سيكون قبراً لرجال الاسلام .

فلم يرَ المسلمون بداً من اللحاق بعدوهم وهم يظنون انه تراجع من الخوف .

وفي سهل طاوس تلاحمت السيوف .. ولكن الكثرة هذه المرة ، غلبت القلة الباسلة ، وخسر المسلمون قائدين هما الجارود بن المعلّى وسوار بن همام .

فرأى خليد بن المنذر ان يرجع بجيشه الى البصرة ، فلم يجد سبيلاً الى الرجوع ، ولم يستطع ان يخترق صفوف الفرس ، الذين طوقوا رجاله ، من النواحي الاربع .

وكان عليه عندئذ ان يختار له مكاناً يحمي جيشه من الوراء ، ويقيم به ، ربما ينزل عليه الفرج من السماء .

وبلغ عمر ، رضي الله عنه ، صنيع العلاء الحضرمي ، فأرسل الى عتبة بن غزوان ، يأمره بارسال الجنود الى المسلمين بفارس قبل ان يهلكوا .

ففعل عتبة ما أمره به ، وبعث باثني عشر الف رجل ، عليهم ابو سبرة بن ابي رهم ، احد بني عامر بن لؤي ، فسار ابو سبرة بالناس على الساحل لا يعرض له احد ، حتى قدم ذلك المكان الذي يحتمي به خليد بن المنذر ، ووقعت العين على العين .

وكان اهل اصطخر ، الذين أخذوا الطريق على المسلمين ، قد جمعوا اليهم اهل فارس ، ليكرهوا جيش الاسلام على الاستسلام .

ولكنهم عندما أبصروا جند الساحل ، خرجوا من سهل طاوس ، الى مكان آخر مجاور له ، واشتعلت في ذلك المكان النار .. ولم يلبث المسلمون حتى قتلوا عدوّهم وأصابوا منه ما شاؤوا ، وهي الغزوة التي شرّفت اهل البصرة ، وكانوا أفضل اهل الامصار . ثم رجعوا الى البصرة وقد اكتفوا بما أصابوا ، وكان ذلك في السنة السابعة عشرة ، لهجرة النبي .

فتح الأهواز وما حولها :

وفي السنة نفسها فتحت الاهواز – مسقط رأس مهاتب منقذ هند – وفتحت بعدها المدن التي حولها . اما السبب في هذا الفتح فهو هذا :

عندما فرّ الهرمزان يوم القادسية ، كما قرأت ، قصد خوزستان ، فملكها وأخضع بالسيف من لم يشأ ان يخضع مختاراً ، وهذا القائد من كبار قواد الفرس وعظماء القوم .

ثم جعل يغير على من جاوره من الناس ، حتى كاد ينتهي الى المدن التي دخلت في حوزة المسلمين ، فاستعان عتبة بن غزوان بسعد ، فبعث اليه اولئك الرجال المغاوير الذين دان لهم ذلك القطر الواسع من الشرق ، ولم تجل الخيل جولةً حتى لوى القائد الفارسي عنق فرسه هارباً من قضاء الله ، لاجئاً الى الشاطىء الآخر من نهر دجيل .

ولكنه رأى ان الانهار والبحار لا تمنع العرب من النصر ، فطلب الصلح ، فأجابه اليه عتبة ، محتفظاً بالبلاد التي استولى عليها جيشه، قبل ذلك اليوم ، ولم يستطع الفارسي الا ان يتظاهر بالرضى ، ويسكت على غلّ .

ثم مرّت ايام ، فمد الهرمزان يده الى ارض ليست له ، فاشتعلت النار من جديد ، وقامت جماعة من الاكراد تحمل السيف تحت لوائه .

غير ان المسلمين لم يبالوا به وباكراده ، بل زحفوا اليه وتلاقى الجيشان عند جسرالسوق، سوق الاهواز ، ففرّ الرجل في ذلك اليوم كما فرّ من قبل، وأمست الاهواز وما حولها للعرب ، واتسعت لهم الارض الى بلد يقال له تستر .

والحرب لا تخمد نارها بينهم وبين ذلك القائد، حتى ملّ الرجل حياة الشقاء والتعب ، فعمد الى اللين يسأل القوم مرة ثانية ان يصالحوه !

وقد أجابوه في هذه المرة ايضاً الى طلبه ، وجعلوا يمنعونه اذا تصدّى له عدوّ ، وهو يجبي لهم الخراج ، من قومه .

وكان يزدجرد ، ذلك الملك الطريد ، مقيماً بمرو، وهو يوغر الصدور، ويثير اهل فارس على كل عربي ويسألهم باسم آلهتهم ووطنهم ان يذكروا العزّ الذي انقضى ، والمجد الذي مضى ويسترجعوا ما خرج من الملك .

ولكلام الملك الشاب أثره في النفوس فهو لم يندبهم للقتال واسترجاع العزّ حتى سمعوا له وحملوا السيف وهم يهتفون لصاحب التاج الفارسي .

وكتبوا في ذلك الى اهل الاهواز، والى الهرمزان نفسه، فخان اهل الاهواز وخان الهرمزان ، وتعاهد القوم جميعهم على خوض الميادين !. ثم مشت جيوشهم حتى قدمت الاهواز فأحسّ امراء العرب ان هنالك خيانة من القوم الذين حقنوا

دماءهم ، ومن الهرمزان الذي ولّوه امور قومه .

فكتبوا الى سعد يسألونه رأيه ، فبعث الى الاهواز جنداً كثيفاً قائده النعمان ابن مقرن ، وكتب عمر الى ابي موسى الاشعري والي البصرة :

ابعث الى ساحة القتال طائفة كبيرة من الرجال، وأمّر عليهم سعد بن عدي أخا سهيل بن عدي ، وارسل معه البراء بن مالك ، ومجزأة بن ثور ، وعرفجة ابن هرثمة .

وكان الامر كما أراد عمر ، فخرج النعمان في اهل الكوفة وسار الى الاهواز يريد الهرمزان ، وقد سبق جيش البصرة .

فلما سمع الفارسي الخائن بمسير النعمان اليه ، فاجأه بالشدة ، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً كان نصيب الهرمزان منه ، الهزيمة والعار .

ولم ينزل عن ظهر فرسه الا عندما بلغ تستر .

وتستر بلد حصين ، حوله الخنادق والاسوار ، وفيه الحصون والابراج .

فتبعه المسلمون اليه، جيش البصرة وجيش الكوفة، وأمدّهم عمر بن الخطاب بأبي موسى الاشعري نفسه ، مع فريق آخر من الرجال .

والهرمزان وراء أسواره ، مع اهل الجبال واهل الاهواز ، فحاصروه ثم أمعنوا في الشدة حتى مرّت الاشهر واهل البلد يخرجون الى عدوهم في وضح النهار ثم يحتمون خلف أسوارهم عندما يجنّ الليل .

فلما كان آخر زحف لهم، قال البراء بن مالك ـ وهو اخو انس بن مالك ـ :

اللهم اهزمهم لنا واستشهدني .

فهزموهم حتى ادخلوهم خنادقهم ، ثم اقتحموها عليهم ، فدخلوا مدينتهم وأحاط بهم المسلمون من كل ناحية .

فبينا هم على ذلك ، وقد ضاقت المدينة بهم ، وطالت حربهم ، خرج رجل منهم الى النعمان يستأمنه على ان يدله على مدخل يدخلون منه .

فأمنوه ، فقال : انهضوا من وراء مخرج الماء فانكم تقتحمونها .

ففعلوا ، فدخلوا المدينة ثم كبروا على عاداتهم في مواقف الروع ، بل في

مواقف الفخر ، وكبر المسلمون من الخارج ثم فتحت الابواب .. وجرت الدماء عندئذ كالانهار . فلم يبق الا ان يلجأ القائد الخائن الى الحصن الاكبر يتحصن به. ولكن ماذا تفعل الحصون وضربات العرب تزعزع الجبال .

فاستسلم الهرمزان المسكين ونزل على حكم عمر ، ان شاء قتله وان شاء ابقى عليه. فقبل المسلمون ، ونزل الرجل فأوثقوه ، على ان يبعثوا به الى المدينة ليرى فيه امير المؤمنين رأيه ..

على ان المسلمين خسروا في ذلك الفتح فريقاً من رجالهم الأشداء ، اصحاب الوجاهة في العرب ، بينهم مجزأة بن ثور ، والبراء بن مالك .

وعندما استقام للمسلمين الأمر ، ارسلوا وفداً الى عمر بن الخطاب ، بين رجاله انس بن مالك ، والاحنف بن قيس ، ومعهم الهرمزان .

فلما قدموا به المدينة ، البسوه كسوته من الديباج وفيه الذهب ، وتاجه وكان مكللا بالياقوت ، ليراه عمر والمسلمون ، فعلوا ذلك قبل ان يروا امير المؤمنين.

ثم استأذنوا عليه فقيل لهم : انه في المسجد وقد جلس لوفد من الكوفة .

وكانت اخبار الظفر قد انتهت الى عمر .

فلما انصرف الوفد عنه ، نام في المسجد والدرة في يده ..

وأقبل الاحنف وانس بأسيرهما ، فقال الهرمزان :

أين عمر ؟ قالوا : هوذا ! — وأين حرسه وحجابه ؟

— ليس له لا حارس ولا حاجب ..

فاستيقظ عمر واستوى جالساً ثم نظر الى القوم فقال : الهرمزان ؟

قالوا : نعم. قال: الحمد لله الذي أذلّ بالاسلام هذا .. وأمر بنزع ما عليه ، فنزعوه وألبسوه ثوباً غير ثوبه ثم قال عمر : يا هرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله ؟

فقال : يا عمر ، كنا واياكم في الجاهلية ، وكان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم ، فلما كان الآن معكم غلبتمونا .

— ولكن ما حجتك وما عذرك في انتقاضك مرة بعد اخرى ؟

قال : أخاف ان تقتلني قبل ان أخبرك . قال : لا تخف ذلك .

فطلب ان يشرب ، فأحضروا له الماء في قدح غليظ ، فقال : لو مت عطشاً لم استطع ان اشرب في مثل هذا ..

فأحضروا له اناء يرضاه ، فقال : اني اخشى ان اقتل وانا أشرب .

فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه ، فأكفأه وجعل يبتسم .. فقال عمر : أعيدوا عليه ولا تجمعوا بين القتل والعطش، فقال : لا حاجة لي الى الماء وانما اردت ان استأمن به ، قال : اني قاتلك .

ـ ولكنك أمنتني .. قال : كذبت فأنا لم أفعل .

فقال انس بن مالك : صدق يا أمير المؤمنين فقد امنته .

قال : يا انس ، انا اؤمن قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك ؟ والله لتأتين بمخرج او لاعاقبنك .

قال : لقد قلت له يا أمير المؤمنين : لا بأس عليك حتى تشربه .

وقال القوم لعمر مثل ما قال انس .

فأقبل على الهرمزان وقال : خدعتني والله لا انخدع الا ان تسلم .

فأسلم الرجل وانزله عمر المدينة ، وكان المترجم بينهما المغيرة بن شعبة فقد كان يحسن الفارسية كما يحسنها أهلها .

وأمسى ذلك القائد ، الذي سقطت القتلى من قومه ومن المسلمين في سبيل مطامعه ، من رجال الاسلام .

وكانت جماعات الفرس في كل مكان تعتنق الاسلام والفارسي يحارب اخاه الفارسي مؤمناً بدينه الجديد ومدافعاً عنه حتى سقطت في ايدي العرب جميع البلاد التي زحفوا اليها فاتحين ناشرين في فارس نور الاسلام ، ولم يبقَ الا ان يأذن عمر لقواده وعماله ان يتوغلوا في بلاد الفرس وينصرفوا الى حيث يطيب لهم ليخضعوا المتمردين ، وقد استطاع القوم ان يقنعوا امير المؤمنين بذلك بفضل الاحنف بن قيس فقد قال له : يا امير المؤمنين نهيتنا عن التفرق في بلاد فارس والقوم لا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم ؛ وسيبقى هذا دأبهم حتى تأذن لنا

فيما نسألك اياه فنزيل ملك القوم ويضيع رجاؤهم .

قال : صدقتني يا ابن قيس فسأفعل ، وامر من يومه ابا موسى الاشعري ان يسير من البصرة الى ما يليها من ناحية الشرق ويمكث هنالك حتى يأتيه أمر آخر.

وبعث بالألوية الى القواد :

دفع لواء خراسان الى الاحنف، ولوء ازادشير وسابور الى مشاجع بن مسعود السلمي ولواء اصطخر الى عثمان بن ابي العاص الثقفي، ولواء بلد آخر الى سارية بن زنيم الكناني ولواء كرمان الى سهيل بن عدي، ولواء سجستان الى عاصم بن عمرو التميمي ، وأوصاهم بان يشرفوا قومهم .

فخرجوا في السنة السابعة عشرة ، ولكن لم يتهيأ لهم الانصراف الا بعد ان دخلت السنة الثامنة عشرة .

وامدهم عمر بأهل الكوفة ، من القواد والامراء والابطال .

وكان المسلمون قد فتحوا السوس ، وجند يسابور ، وكرمان وغيرها ، وعرفوا ان يزدجرد الملك انتقل الى مرو ، فجعلوا يتشاورون ويفكرون في أمر اللحاق به ، بعد ان يعدوا للأمر عدته ويستاذنوا سعد بن ابي وقاص .

٢٤

لم يكن يزدجرد يعرف الهدوء ..

انه ملك غلب على أمره ، فجعل يبذل جهده وقواه ليسترجع العرش .

والعروش لا تسترجع الا بحد السيف ..

فكتب الى امراء بلاده وعظمائها ، بين الباب والسند ، وخراسان وحلوان يسألهم ان يقودوا جنودهم الى نهاوند ، ويعدهم بالنصر .

والامراء يحلمون بالعزّ ، ولا يطيقون الا ان يبقوا سادة القطر الفارسي .

وبلغ الخبر سعداً ، فكتب الى عمر يطلب اليه ان يفاجيء المسلمون القوم قبل

ان يتهيأوا للامر . وكانت في الكوفة ، جماعة خالفت سعداً في جميع اموره ، وسعت به عند الخليفة لا يشغلها ما نزل بالناس .

سيد هذه الجماعة ، الجراح بن سنان الاسدي ، وأسامة بن قتادة .

وبلغ الخلاف حدّه حتى خاف عمر الفتنة ، فبعث محمد بن مسلمة الى الكوفة ، ليقتصّ آثار من شكا ، فطاف محمد بسعد على أهل الكوفة يسألهم عنه فما سأل عنه احداً الا اثنى عليه خيراً ما عدا رجال الجراح الأسدي فانهم سكتوا ولم يقولوا سوءاً ، حتى انتهى الى بني عبس ، واسامة بن قتادة منهم فسأله فقال : اللهم انه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية .

ثم سأل غيره فقالوا مثل قوله . وسعد يقول : اللهمّ ان كانوا قالوها رياءً وكذباً فعرّضهم للفتن فرأى محمد بن مسلمة عندئذ ان يرجع الى المدينة ومعه سعد والقوم الذين شكوه ومثلوا جميعهم بين يدي عمر ، وخبروه ، فقال : كيف تصلي يا سعد ؟ قال : أطيل الأولين واخفف في الأخيرتين .

قال : هكذا الظن بك يا أبا اسحق ولولا الاحتّياط لأعدناك الى الكوفة ..

وانما اراد عمر ان يحتاط للأمر قبل ان يمعن القوم في الشر ويتسع النزاع .

ثم قال : من خليفتك يا سعد على الكوفة ؟ قال : عبدالله بن عتبان .

فقال : لقد وليناه أمرها واني لم أعزلك عن خيانة وضعف ..

فلم يقل الرجل كلمة ، ولم يبدُ على وجهه ما يدلُّ على ضغينة وحقد ! فكأنه لم يكن والياً أو كأن الامر لا يعنيه .

وكان مهاتب الفارسي في القوم ، وقد رافق سعداً الى المدينة ، فقال عمر : من هذا ؟ فأجابه سعد قائلاً : رجل من المسلمين . — ولكني ارى وجهاً فارسياً ..

— نعم فهو من أهل الاهواز وله على العرب فضل . ثم قصّ عليه خبره منذ أنقذ هنداً . فأعجب امير المؤمنين بخلق الرجل وقال دون ان يتردّد :

سنجعله عاملاً لنا على اقليم من اقاليم بلاده ، بعد ان تخمد النار .. انه أهل للاحسان .. قال : أتأذن له في البقاء في المدينة ؟

— لا بل يعود الى ساحة القتال ليساعد العرب ، وسأنظر في امره .

ثم شاوره في أمر نهاوند ، فقال سعد :

لقد كتبت اليك يا امير المؤمنين وانا في الكوفة ، واني أرى اليوم ما رأيته من قبل . فجمع عمر اركان دولته رجعل يحدّثهم بأمر نهاوند ويزدجرد ثم قال : ليبدِ كل منكم رأيه الساعة فالامر خطير . قالوا : رأيك يا امير المؤمنين ..

قال : هممت بان أسير فيمن حولي من الرجال ومن اقدر عليه فأنزل منزلاً وسطاً بين المسلمين ثم أستنفرهم واكون لهم عونا حتى يفتح الله عليهم او يقضي ما أحب وليس لي الان رأي غير هذا .

فقال طلحة بن عبيد الله : انت وشأنك يا أمير المؤمنين ، فمرنا نطع وادعنا نجب ، واحملنا نركب فانك وليُّ هذا الامر وقد بلوت وجربت .

ثم جلس وابن الخطاب ينظر الى القوم كأنه يدعوهم الى الكلام فقام عثمان بن عفان فقال :

ارى يا امير المؤمنين ان تكتب الى اهل الشام فيسيروا من شامهم ، والى اهل اليمن فيسيروا من يمنهم ، ثم تسير انت باهل الحرمين الى الكوفة والبصرة فتلقي جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت قلّ عندك ما قد تكاثر من عـــدد القوم.. ان هذا يوم له ما بعده من الايام فاشهده برأيك واعوانك ولاتغب عنه..

ولما جلس ، قام علي بن ابي طالب فقال :

انك اذا اشخصت اهل الشام من شامهم سارت الروم الى ارضهم ، وتخطفت ابناءهم بالسيوف ، وان اشخصت اهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة وفعلت في اليمن ما تشاء، واذا تقدمت العرب من هذه الارض، انتقض عليك بعض العشائر من اطرافها واقطارها حتى يكون القوم وراءك ، أهمّ اليك ممن بين يديك مـن رجال الفرس . ــ وماذا ترى ؟

ــ ليجتمع اصحاب الألوية والامراء في مكان تختاره لهم ، واكتب الى اهـل البصرة ليتفرقوا فرقاً ثلاثاً، واحدة في حرمهم تحميه وتحمي الاطفال ، وواحدة بين اهل العهود من الفرس حتى لا ينتقضوا ولتذهب الفرقة الاخرى الى المسلمين بالكوفة مدداً لهم .

ولكن عدد الفرس كثير ، وقد بلغني انه سينضم تحت لواء يزدجرد ، مئة وخمسون الفاً من رجال الحرب !

قال : أما عددهم ، فنحن لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة .

قال : هذا هو الرأي ، ثم قال لجلسائه : أشيروا عليّ برجل اوليه ذلك الثغر وليكن عراقياً . قالوا : أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك .

قال : والله لاولينّ رجلاً يكون أول الأسنة اذا لقيها غداً . — من هو ؟

— هو النعمان بن مقرن المزني . قالوا : هو لها .

وكان النعمان يومئذ في جمع من اهل الكوفة وقد اقتحموا جند يسابور والسوس فكتب اليه عمر : اذا انتهى اليك كتابي فسر الى « ماه » لتجمع الجيوش تحت رايتك فأنت قائدها فاذا اجتمعوا فسربهم الى الفيرزان ومن معه في نهاوند.

وكتب الى عبدالله والي الكوفة بعد سعد يأمره بأن يستنفر الناس مع النعمان.

فندب عبدالله القوم فكان أسرعهم الى ذلك اولئك الرجال الذين لم يدركوا فيما مضى حظهم من الحرب ، ثم خرجوا وعليهم حذيفة بن اليمان ونعيم بن مقرن اخو النعمان ، حتى انتهوا الى معسكر قائدهم الجديد .

ثم كتب عمر الى جند الاهواز ليشغلوا اهل فارس عن المسلمين ويمنعوا القوم من ان يكونوا مدداً لجيش نهاوند .

واجتمع الناس على النعمان القائد العام وفيهم أبطال العرب المغاوير .

المغيرة بن شعبة وجرير بن عبدالله وطليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب وعمرو بن ثني وغير هؤلاء . فأرسل النعمان ثلاثة من رجاله ليأتوه بخبر القوم .

وكان بين المسلمين ونهاوند ، بضعة وعشرون فرسخاً .

فذهب الرجال ثم عادوا وهم يقولون للنعمان :

ليس بينك وبين نهاوند شيء تكرهه .

فعبّى القائد اصحابه ، وهم ثلاثون الفاً ونادى مناديه : هيا الى نهاوند .

فزحف الجيش وكان رجاله يقولون : ستكون ايام نهاوند اعظم من ايام القادسية .

وقد جعل النعمان على مقدمته ، اخاه نعيما ، وعلى الجناحين حذيفة بن اليمان، وسويد بن مقرن ، وعلى المشاة القعقاع بن عمرو ، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود، وتوافت الى الجيش امداد المسلمين من كل ناحية .

وواصلت الجيوش زحفها حتى انتهت الى اسبيذهان ، والفرس على تعبيتهم، واميرهم الفيرزان الذي يعرفه قراء هذه الرواية .

فلما رآهم النعمان كبّر وكبر معه الناس ، فملأت أصوات التكبير الفضاء ، ثم حطت العرب اثقالها وضرب فسطاط النعمان وابتدر اشراف الكوفة فضربوا خيامهم .

ونشب القتال في ذلك اليوم واليوم الذي بعده والحرب سجال بينهم حتى كان مساء اليوم الثالث فلجأ الفرس الى خنادقهم لا يخرجون منها الا عندما يطيب لهم الخروج ، والمسلمون يحصرونهم وقد عمدوا الى الشدة في الحصار .

حتى مرت الايام وهم على هذه الحال .

فكاد النعمان يملُّ موقفه وقد رأى ان يستشير أهل الرأي من جيشه ، فأحضرهم وقال: لقد اعتصم هؤلاء المشركون بخنادقهم ومدينتهم فهم لا يخرجون الينا الا اذا ارادوا ولا يقدر المسلمون على اخراجهم فما الرأي ؟

فتكلم عمرو بن غنم وكان أكبر الناس قال : ان التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم وقاتل من اتاك . فردَّ القوم عليه رأيه .

وتكلم عمر بن معديكرب قائلاً « ناهضهم وكابدهم ولا تخفهم » .

فردوا عليه رأيه وقالوا : ان جُدرهم اعوان علينا .

فقال طليحة بن خويلد : أرى ان تبعث خيلاً ينشب أصحابها القتال ، فاذا اختلطوا بهم رجعوا الينا وهم يتظاهرون بالفرار ، فاذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فنقاتلهم عندئذ حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب .

فأمر النعمان القعقاع بن عمرو بان يسعر النار . ففعل ، فخرجت الفرس من الخنادق كأنهم رجل واحد وقد تواثقوا ان لا يفروا . فلما رأى القعقاع صفوفهم تراجع الى الوراء . فقام في اذهان القوم ان الذعر يملأ قلبه وقلب رجاله ، ولم يروا الا ان يغتنموها ويقضوا على المسلمين . وجعلوا يقولون : لقد دنت ساعة

العرب. ثم برزوا جميعهم الى الساحات لم يبق منهم احد الا من يقوم على الابواب.
ولحق القعقاع بالناس وهو فارّ ... والفرس يتبعونه وقد انقطعوا عن الحصون
وتفرقت صفوفهم في جوانب الميدان .

وكان النعمان قد امر الناس بان يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ولو دخلت الفرس بين الصفوف . ففعلوا ما أمرهم به واحتجبوا وراء تروسهم خوفاً من ان تصيبهم السهام التي يرسلها اليهم العدو .

وأقبلت الفرس ترميهم حتى أفشت فيهم الجراح ، والنعمان لا يقول كلمته ، فخاف الناس وقالوا له : الا ترى ما نحن فيه ؟ إئذن لنا في قتالهم .

فقال : رويداً رويداً !

وانتظر أحب الساعات التي كان رسول الله يلقى فيها عدوه ، وذلك عند الزوال . فلما قربت تلك الساعة ركب فرسه وسار في الناس وهو يقف عند كل راية يذكر اصحابها ويحرضهم على القتال ، وكان يقول : اني حامل الان فاحملوا، فاذا قتلت فالامر بيد حذيفة بن اليمان . ثم قال : اللهم اسألك ان تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الاسلام واقبضني شهيداً .

فبكى الناس لقوله ، ثم رجع الى موقفه وكبّر ثلاثاً والناس سامعون .. ثم حمل والناس معه وانقضت رايته انقضاض العقاب، ثم احتجبت بين الصفوف عن العيون ... وكانت ساعة هول لا تستطيع ان تصفها الاقلام .. الخيل تقتحم الخيل والفرسان تغوص في لجة الموت . والرؤوس تتدحرج على الارض المصبوغة بالدماء . وانت لاتسمع غير وقع الفولاذ على الفولاذ ولا ترى غير العجاج يحجب الفضاء .. وقد صبر المسلمون صبراً الموت اهون منه، حتى خارت قوى الاعجام وعمدوا الى الهرب من طوائف الجن التي لا ترجع الى الوراء .

وبينا النعمان يبتسم للنصر ، وقد اقر الله عينه بالفتح استجاب الله له فقتل شهيداً ، والدماء تقطر من سيفه .

رمي بسهم فأحس بالموت . ثم زلق به فرسه فصرع .

فغطاه اخوه نعيم بثوب ، وأخذ الراية فتناولها حذيفة خليفة النعمان وكان

المغيرة بن شعبة يقول للقوم :

اكتموا مصابكم حتى تنظروا ما يصنع الله فينا وفيكم .

والليل قد طال . والمسلمون يتبعون الفرس حتى سقطوا في خنادقهم ونامت اجسادهم فيها الى الابد . وكان الفيرزان قد نجا وسار نحو همذان .

غير ان نعيما كان يطلبه من هذه الناحية ، والقعقاع يطلبه من الناحية الاخرى حتى أدركاه عند جبل كان يصعد فيه . فقتلاه ورجعا وهما يحملان بشرى النصر الاخير في نهاوند . وجعل المسلمون عندئذ يسألونه عن اميرهم النعمان بن مقرن .

فقال لهم اخوه معقل.

هذا اميركم قد اقرّ الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة ، فاتبعوا حذيفة ..

ودخل المسلمون نهاوند ووضعوا ايديهم على الاموال والاسلاب والامتعة التي لا يقل ثمنها عن ثمن الغنائم في المدائن . وبعث حذيفة بالخمس مع السائب ابن الاقرع الثقفي . وكان امير المؤمنين في المدينة يتململ ويخرج كل يوم ينتظر اخبار الجيش ويسأل كل راكب يمر به ، حتى قدم السائب فبصر بـه وهو على الطريق فقال له : ما وراءك ؟

قال : خير يا أمير المؤمنين .. لقد فتح الله عليك أعظم الفتح واستشهد النعمان بن مقرن في ساعة الظفر . فقال : انا لله وانا اليه راجعون . وبكى بكاء مرّاً وهو يتمتم ألفاظ الرثاء .

ثم ذهب الى منزله لينظر في امر المال الذي حمله السائب اليه . وسمّى المسلمون فتح نهاوند : فتح الفتوح ، لانه لم يكن بعده اجتماع للفرس، ولم يزل امر يزدجرد في نقصان ، وكلما اخذت منه مدينة انتقل الى اخرى الى ان قتل في خلافة عثمان بن عفان ، في السنة الحادية والثلاثين .

* * *

٢٥

السنة الثامنة عشرة :

اصابت الناس في الحجاز ، في تلك السنة ، مجاعة شديدة لم ترَ العرب مثلها قط . ويسمى ذلك العام عام الرمادة فقد كانت الريح تحمل تراباً يشبه الرماد .

وكان الجوع في المدينة وما حولها ثقيل الظل ، حتى هلك القوم ، وحتى جعلت الوحش تأوي الى الانس ، وجعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها .

وقد حلف عمر ان لا يذوق لا سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يضمحل الجوع ، ويذهب ذلك الضيق .

وكتب الى امراء الامصار يستغيثهم ، لاهل المدينة ، ومن يجاورهم من الحجازيين ، ويسألهم ان يتعجلوا في ارسال الزاد .

فكان اول من قدم، ابو عبيدة بن الجراح، في اربعة الاف راحلة تحمل الطعام فولاه قسمتها فيمن حول المدينة .

ففعل ابو عبيدة ، ولما فرغ ورجع اليه أمر له بأربعة الاف درهم .

فقال : لا حاجة لي الى المال يا امير المؤمنين فانما اردت الله .

قال : خذها فلا بأس بذلك اذ لم تطلبه .

فأبى الرجل واصر على الرفض .

فقال : خذها فاني قد وليت لرسول الله مثل هذا فقال لي مثل ما قلت لك، وقلت له كما قلت لي ، فأعطاني . فقبل ابو عبيدة وانصرف الى الشام . ثم تتابع الناس واستغنى اهل الحجاز . وانّا نورد لك مثلاً صغيراً يدلك على ذلك الخلق العالي الذي رفع عمر بن الخطاب الى العلاء ، قيل انه رأى «بطيخة» في يد بعض ولده فقال له : ويلك يا ابن امير المؤمنين ، تأكل الفاكهة وامة محمد هزلى «ضعيفة» .. فخرج الصبي هارباً وبكى ، وكان قد اشتراها بحفنة تمر ..

نورد لك هذا الخبر الصغير ، لتحكم انت لهذا الرجل ، الذي يجب ان تنحني له رؤوس الملوك والعظماء .

على ان محنة المسلمين لم ينقضِ زمانها بانقضاء ايام الجوع ، فان الحجاز لم يتنفس الصعداء ، حتى نزلت بالمسلمين في بلاد الشام نائبة قاسية ضيع معها القوم صبرهم ودب في قلوبهم الذعر ، ذلك هو الطاعون الرائع الذي ينتهي بالموت !

وكان ابن الخطاب ، في ذلك الحين ، قد خرج غازياً مع المهاجرين والانصار.

فلما كان بسرغ – موضع في الشام بين المغيثة وتبوك – لقيه امراء الاجناد واركان الحرب في بلاد الشام ، أبو عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة ، ومع كل امير منهم ، فريق من اصحابه ، وخبروه ان الارض سقيمة والوباء شديد . فأطرق ملياً ثم رفع رأسه قائلاً لعبدالله بن عباس: ادع المهاجرين الاولين والانصار . فدعاهم اليه فاستشارهم فاختلفوا ..

قال له بعضهم : لقد خرجت لوجه تريد فيه الله فلا نرى ان يصدّك عنه بلاء عرض لك .. وقال البعض الآخر : انه لبلاء وفناء فلا نرى ان تقدم عليه .

فلما رأى اختلافهم قال : قوموا عني .

ثم قال لعبدالله : اجمع لي مهاجرة الانصار .

فجمعهم فاستشارهم ، فسلكوا طريق المهاجرين كأنهم سمعوا ما قاله فقالوا مثله . فقال لهم : قوموا عني . ثم دعا مهاجرة الفتح من قريش فقالوا : ارجع بالناس فانه بلاء وفناء .

فقال : يا ابن عباس اصرخ في الناس وقل ان امير المؤمنين مصبح غداً على ظهر راحلته .

ففعل ذلك عبدالله، وقام عمر يقول للناس عند الصباح: اني راجع فارجعوا.

فقال له ابو عبيدة : أفراراً من قدر الله يا امير المؤمنين ؟

قال : نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله .. أرأيت لو ان رجلاً هبط وادياً له جانبان أحدهما مخصب والآخر مجدب أليس يرعى المخصب بقدر الله ويرعى المجدب بقدر الله ؟ ثم قال : لو غيرك يقول هذا يا ابا عبيدة ..

فبينا الناس على ذلك ، أقبل عبد الرحمن بن عوف وكان غائباً لم يسمع ما قيل امس فقال : ما شأن الناس ؟ فقصّوا عليه ما سمعوه ، فقال : عندي من

هذا علم . فقال عمر : انت عندنا الامين المصدّق فماذا عندك ؟

قال : سمعت رسول الله يقول : اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، واذا وقع ببلد وانتم به فلا تخرجوا فراراً منه .

فقال عمر : الحمد لله ، انصرفوا ايها الناس .

ورجع الى المدينة ورجع قومه ، وعاد الامراء الى اعمالهم ، في ذلك القطر الملوث ، الذي يبسط عزرائيل فوقه جناحيه الحديديين ، وطابت الاقامة للوباء بأرض الشام حتى انه لم يشأ ان يرحل عنها الا بعد تسعة اشهر كانت في نظر المسلمين تسعة أعوام .

وقد حصد من الناس ، خمسة وعشرين الفاً .. بينهم طائفة كبيرة من الامراء والقواد ، والابطال ، واشراف العرب .

طعن القائد العام ابو عبيدة ، فاستخلف على الناس ، قبل ان يموت ، معاذ بن جبل ، ثم طعن عبد الرحمن بن معاذ ، ثم طعن معاذ نفسه ، ثم جاء دور يزيد بن ابي سفيان ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعتبة بن سهيل ، وغيرهم من أشراف الناس ورؤساء العشائر والزعماء ..

وانتهى خبر الكارثة الى امير المؤمنين ، وأعاد عليه مخبره قول ابي عبيدة ومعاذ قبل ان يطعنا . كان ابو عبيدة يخطب في الناس فيقول :

ايها الناس ، ان هذا الوجع – يعني الطاعون – رحمة ربكم ووعدة نبيّكم وموت الصالحين قبلكم ، وان ابا عبيدة سأل الله ان يقسم له منه حظاً !!

وهذا ما كان يقوله معاذ بن جبل .

فبكى الخليفة يومه كله ، وحنى رأسه للنبأ الرائع الذي حمل اليه نعي امرائه وقواده في الشام .

ثم استخلف على الناس في الشام ، عمرو بن العاص ، وجعل معاوية بن أبي سفيان عاملاً له على دمشق ، بعد أخيه يزيد ، وشرحبيل بن حسنة على جند الاردن كله ، وعلى الخراج .

فأمر عمرو بن العاص الناس ، بالخروج من الشام الى الجبال ، وأراد الله فرفع

الوباء ، وقد أصاب الناس من هوله ما لم يروا مثله .

ولم يمر على ذلـــك شهر ، حتى قدمت المدينة رسل الامراء ، يبشرون عمر بالفرج، ويسألونه المجيء الى الشام لينظر في امر المال الذي تركه اولئك المسلمون الذين صرعهم الطاعون .

فلم يتردد عمر في الرحيل ، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وخرج معه فريق من وجوه الصحابة الصالحين .

فلما قـدم الشام ، وقسم المواريث والارزاق ، ونظر في امر الجند من جميـع نواحيه لم يترك شيئاً الا أبدى فيه رأيه ، همّ بالرجوع الى الحجاز ، فقام عمرو بن العاص فخلا به قائلاً : يا امير المؤمنين إئذن لي ان أسير الى مصر .

قال : انها بعيدة وانا أخشى ان يرى المسلمون فيها ما يكرهون .

قال : انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وهي اكثر الارض أموالاً .. ولكنه لم يشأ ان يأذن له في ذلك .

فلم يزل يعظّم امرهـــا ويهوّن عليه فتحها حتى رضي وأذن له قائلاً : انا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي سريعاً ان شاء الله ، فان أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخل ارضها ، فانصرف ، وان انت دخلتها قبل ان يأتيك فامضِ لوجهك واستعن بالله .

وعقد له على اربعة آلاف رجل جميعهم من بني علكّ، فلم يصبر عمرو بن العاص الى الصباح ، بل عمد الى رجاله وخرج بهم في ذلك الليل يريد أرض مصر .

ورجع امير المؤمنين الى المدينة ، في شهر ذي القعدة .

ابن العاص والرومي :

كان عمرو بن العاص مؤمناً بأن الله يفتح مصر على يديه .

ولهذا الايمان . وهـذا الرجـاء ، المتغللين في صدره ، قصة نوردها لك كما ذكرها المؤرخون ، وليس لنا فيها رأي خاص . وقد وقعت لعمرو في الجاهلية.

قال الجلال السيوطي في كتابه : حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة :

قدم عمرو بن العاص بيت المقدس ، بتجارة له في نفر من قريش .

فبينا هو يرعى إبله وإبل اصحابه في جبل هناك ، مرّ به رجل رومي من زوار القدس ، وقد أصابه عطش قاتل في ذلك اليوم الشديد الحر .

- والرجل من شمامسة الروم - فوقف على عمرو وطلب ان يسقيه من قربة له . فأعطاه عمرو القربة فشرب حتى روي ثم نام في مكانه .

وكان الى جانبه في ذلك المكان حفرة ، فخرجت منها افعى هائلة تسعى الى الرجل فرماها عمرو بسهم فقتلها والرومي نائم ، فلما استيقظ ، رأى افعى قد نجاه الله منها ، فقال لعمرو : من فعل هذا ؟

- انا رميتها بسهم قبل ان تصل اليك .

فأقبل عليه فقبل رأسه قائلاً له : لقد احياني الله بك مرتين ، الأولى من شدة العطش ، والثانية من هذه ، فقل لي الآن في اي شيء قدمت هذه البلاد ؟

- جئت مع اصحابٍ لي نطلب الفضل من تجارتنا .

- وكم ترجو ان تصيب من تجارتك ؟

- ارجو ان اصيب ما اشتري به بعيراً فاني لا أملك غير بعيرين وانا اطمع بان يكون لي ثلاثة . قال : كم هي ديّة أحدكم اذا قتل ؟ - مائة من الابل .

- لسنا اصحاب ابل بل اصحاب دنانير . - اذن فالديّة الف دينار .

قال : اني رجل غريب في هذه البلاد ، وانما قدمت اصلّي في كنيسة بيت المقدس،وقد قضيت ذلك الآن، وانا أريد الرجوع الى بلادي،فهل لك ان تتبعني اليها ولك عليّ عهد الله اني اعطيك ديتين لأن الله أحياني بك مرتين ..

- وأين بلادك ؟ - مصر ، في مدينة يقال لها الاسكندرية .

- ولكني لا أعرفها ولم أدخلها قط .

قال : لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مدينة مثلها .

- وتفي لي بما تقول ؟

- اجل ، ولك عليّ العهد والميثاق اني أفي لك وأردّك الى اصحابك .

- وكم يكون مكثي اذا رحلت ؟

- تمكث في رحلتك شهراً ، تنطلق معي ذاهباً عشرة ايام ، وتقيم عندنا عشرة وترجع في عشرة ، ولك عليَّ ان احفظك ذاهباً وأبعث معك من قومي من يحفظك راجعاً الى اصحابك . فقال عمرو : أشاور اصحابي ..
ثم انطلق فخبرهم وقال : لا تخرجوا وأقيموا حتى أعود اليكم واني سأعطيكم نصف المال الذي يعطيني اياه على ان يرافقني رجل منكم آنس به .
فأجابوه الى طلبه وبعثوا معه رجلاً ، وانطلق الجميع الى مصر .
فلما انتهوا الى الاسكندرية ، رأى عمرو من قصورها ، واهلها وما فيها من الخير والأموال ما أعجبه ، فقال : صدقت فأنا لم أرَ قط مثل هذه .
وكان لأهل الاسكندرية عيد يجتمع فيه امراؤهم واشرافهم ، ولهم اكرة من ذهب يترامون بها وهم يتلقونها بأكمامهم .
وهم يعتقدون ، ان الرجل الذي تقع الاكرة في كمه لا يموت حتى يملكهم .
وقد قدم عمرو ، والمدينة تتهيأ للعيد .
فكساه الرجل ثوب ديباج ، وجلس بالقرب منه بين الناس في مجلس عيدهم وهم يترامون بأكرتهم ويتلقونها كما قرأت .
فرمى بها رجل منهم ، فأقبلت تهوي حتى وقعت في كمّ عمرو !!
فقال أحدهم : ما كذبتنا هذه الاكرة قط الا هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملك مصر ؟! ان هذا لا يكون أبداً .
ولم يخطر لعمرو في تلك الساعة ، انه سيتولى على ارض مصر ، بل لم يخطر له انه سيزور الاسكندرية مرة ثانية !!
وقد قابل اكرة القوم بابتسامة فيها شيء من الاستخفاف ..
ثم خرج ذلك الرجل يطوف في الاسواق ويقول لبني قومه :
ان عمراً أحياني مرتين وقد ضمنت له الفي دينار !!.
وسألهم ان يجمعوا له المال ، ففعلوا ، وأعطوه ، فحمل ابن العاص المال وخرج راجعاً الى اصحابه ، وبعث معه الرجل دليلاً يتقدمهم الى ارض فلسطين.
وعرف عمرو بذلك ، مداخل الاسكندرية ومخارجها ، ورأى فيها ما أثبت

له انها أفضل البلاد وأكثرها مالاً .

وكان اصحابه ينتظرونه في بيت المقدس ، فدفع اليهم الف دينـار ، وأبقى لنفسه الفاً ، وكان يقول : هذا أول مال جمع لي .

فلما أكرمه الله بالاسلام ، وفتح على يديه كثيراً من ارض الشام ، مالت نفسه الى فتح مصر ، وذكر تلك الاكرة التي وقعت في كمه !..

بل ذكر قول النبي : « لتفتحن عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خـيراً فان لكم منهم صهراً وذمة » .

ورغب الى عمر كما قرأت ، في ان يبعثه اليها ، ليرفع فوقها العلم العربي .

كان له ما اراد ، ومشى الى مصر غازياً ، مستعيناً بالله .

مصر والاسكندرية :

قام في ذهن عمر بن الخطاب ، وهو راجع الى المدينة ، ان الحظ سيخون المسلمين في مصر ، وانهم سيرون فيها ما لا يريدونه ولا يريده .

فكتب الى عمرو بن العاص ، يأمره بأن ينصرف راجعاً بمن معه من الناس ، وذكّره بما أوصاه به قبل زحفه ، فأدرك الرسول عمراً وهو « برفح » .

فخاف ان يقرأ الكتاب ويجد فيه أمراً بالرجوع كما عهد اليه امير المؤمنين . فلم يأخذ الكتاب من الرسول، بـــل دافعه ورحل عن« رفح » حتى نزل قريةً بين رفح والعريش .

فسأل عنها فقيل له انها قرية من قرى مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين وقال : انتم تعلمون ان هذه القرية من مصر أليس كذلك ؟ قالوا : بلى .

قال : لقد امرني أمير المؤمنين بان أرجع ، اذا لحقني كتابه قبل ان ادخـل أرض مصر ، وان أمضي لوجهي اذا لحقني وانا فيها ، فأنتم الان في مصر فسيروا وامضوا على بركة الله .

وكان عامـــل الروم على مصر ، رجلاً يدعى المقوقس ، فلما أحسّ بقدوم العرب ، جهز الجيوش وبعث بها الى الفرما ، وهي أول موضع قوتل فيها عمرو ابن العاص .

ودام قتال الفريقين شهراً، وكان شديداً جداً خسرت فيه الروم والعرب نخبة من أبطال ذلك الزمان ، حتى فتح الله على العرب وفرّت الروم .

وكان اسقف القبط في الاسكندرية ، يـدعو قومه الى نصرة المسلمين ويقول لهم : ان ملك الروم قد انقطع فلن يكون لهم دولة في مصر .

وقـد رأى الناس بعد هذه الدعوة ، أن أهـل الفرما من القبط كانوا اعواناً لعمرو في حربه ..

وتناقلت الافواه اخبار العرب في ذلك الحين ، وهامس القبطي اخاه القبطي قائلاً له : ان هؤلاء القوم لا يتوجهون الى أحـد ، وان كانوا في قلة ، الا ظهروا عليه .. وقد بلغت هذه الاقوال عمراً فاستقوى وكبر أمله ، ثم زحف بجيشه الى بلبيس وكان جيش عدوه فيها كثير العدد .

ولكنه لم يخشَ الكثرة ، ولم يكن في جيشه غير الرجال الذين يطيب لهـم الموت في ساحات القتال .

وسقطت بلبيس بعد شهر ، فمضى يمعن في ذلك القطر وهو يرى الروم يملأون السهول والقرى وطلائعهم تطوف في كل ناحية .

فكتب الى عمر يستمده ، فأمدّه باربعة الاف رجـل ، من العشائر الـتي اشتركت في حروب الشام والعراق ، وحملت للعرب ألوية الظفر .

فسار حتى نزل على حصن لهم يقال له باب ليون ، وحاصرهم حصاراً أحصى عليهم فيه انفاسهم ، وهو يصبح ويمسي على قتـال ، والحصن ثابت راسخ رسوخ الجبل لا يلوي لرجاله عود .

فلما أبطأ عليه الفتح ، كتب الى عمر كتاباً آخر يسأله فيه ان يمـدّه بجيش جديد . فبعث اليه بأربعة آلاف وكتب يقول له :

لقد أمددتك باربعة الاف ، بينهم رجال يقوم الواحد منهم مقام الف !

الزبير بن العوام ، والمقداد بن الاسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد وقد أضحى جيشك اثني عشر الفاً وهذا الجيش لا يغلب .

وكان الروم قد جعلوا الخنادق حول الحصن ، وجعلوا لها باباً ، من ناحيـة

الجيش العربي ، وراءه الحديد .

فوضع عمرو المنجنيق، وبدأت قذائفه ترسل بشدة الى الحصن المنيع الهازىء بجميع عدد الحرب، والذي لا تزعزعه قوى الرجال، حتى مرّ على ذلك الحصار بضعة اشهر ضاقت بعدها صدور المسلمين ، فقام الزبير بن العوام يقول لعمرو : اني أهب نفسي لله وأرجو ان يفتح الله بذلك على قومي . قال : وماذا تصنع ؟

قال : أضع سلماً الى جانب السور ثم أصعد وأفتح الباب !!

– ولكنك ترى الموت فاتحاً لك ذراعيه .

قال : ما أتيت مصر ، من الحجاز ، وأنا أبالي بالموت .. ! قل للرجال ان يتهيأوا للحاق بي في هذا الليل .

قال : اذا فعلتها فقد قذفت بهؤلاء الرجال الى الهوة .

– بل تدفعهم الى النصر .

وصبر حتى جنّ الظلام ، فوضع سلّمه وصعد كالليث لا يعبأ بالحراب القائمة وراء الاسوار .! وأمر الرجال اذا سمعوا تكبيره ان يجيبوا جميعاً ، ثم لم يشعر القوم الا والزبير على رأس الحصن يكبّر ومعه السيف ..

فارتفعت عندئذ أصوات التكبير .. فقام في أذهان اهل الحصن ان العرب اقتحموه جميعا !

فهربوا ، وعمد الزبير الى البـــاب العظيم ففتحه ، ومعه اصحابه ، ودخل المسلمون يرددون : الله اكبر .. حتى أمسى الجيش كله داخل السور .

وكان المقوقس وصاحب الحصن ، قد أعدا سفناً في النيل تنقلهم الى الجزيرة ، اذا أكرها على الفرار .. والسفن راسية عند جدار الحصن .

فلما سمعا التكبير ، على السور ، ركبـــا السفن ، مع اهل القوة والشرف ، وعندما انتهوا الى الجزيرة ، قطع الجسر .

وفي الصباح ، كتب المقوقس الى عمرو بن العاص :

« انكم قوم ، دخلتم بلادنا ، ورغبتم في قتالنـــا ، وطال مقامكم في أرضنا ، وانما انتم عصبة يسيرة وقد أظلّكم الروم، وجهزوا اليكم الرجال والعدة والسلاح

وقد أحاط بكم هذا النيل فأنتم أسرى في أيدينا ، فأرسلوا الينا رجـالاً منكم نسمع كلامهم فلعله ان يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم » .

وانتهى الكتاب الى عمرو ، فأمر بأن تبقى رسل المقوقس بين يديه ، يومين وليلتين وذلك لكي يروا حال المسلمين وما هم فيه .

ثم أطلقهم قائلاً لهم : ليس بيننا وبينكم غير واحدة من ثلاث ، اما الدخول في الاسلام فتصيرون اخواناً لنـا ، واما ان تؤدوا الجزية وانتم صاغرون ، او نجاهدكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فانصرفوا راجعين الى سيد مصر ، فقال : ماذا رأيتم ؟

قالوا : رأينا قوماً الموت أحبّ اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم رغبة في الدنيـا ، جلوسهم في التراب .. وأكلهم على ركبهم .. وأميرهم كواحد منهم مـا يعرف رفيعهم من وضيعهم والسيد من العبد .. واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم احد !.

قال : والذي يحلف به لو ان هؤلاء استقبلوا الجبـال لأزالوها فلا يقوى على قتالهم احد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم ، وهم محصورون بهذا النيل ، لم يجيبونا بعد اليوم ، اذا اتسعت لهم الارض وقدروا على الخروج ..

ثم ردّ رسله قائلاً لعمرو : ابعث الينـا رسلاً منكم نتداعى نحن وهم الى ما عسى ان يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فاختار ابن العاص بعض رجاله ، بينهم عبادة بن الصامت .

وطول عبادة عشرة اشبار ، وهو احسن شجعان العرب المشهورين ، والفصحاء المتكلمين ، وقد امره بان يخاطب القوم باسمه ، وان لا يجيبهم الى شيء يدعونـه اليه ، الا احدى الخصال الثلاث التي ذكرها لوفد المقوقس ، وكان عبادة اسود ، فلما دخلوا على الرجل ، هاب عبادة لسواده ، فقال : نحّوا عني هـذا الاسود وقدّموا سواه .

فقالوا : ان هذا الاسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا ، والمقـدّم

علينا ، ونحن نرجع جميعنا الى قوله ورأيه . قال : تقدم يا أسود .

فخطا عبادة حتى توسط المجلس فقال: لقد سمعت قولك، وان فيمن خلّفت من أصحابي، الف رجل كلهم أشدّ سواداً مني ، وأنا قد وليت وأدبر شبابي واني مع ذلك ما أهاب مئة رجل من عدوي ولو استقبلوني جميعاً وكذلك أصحابي . ذلك لاننا نرغب في الجهاد واتباع رضوان الله، وليس غزونا رغبة في الدنيا وطلباً لها .. ان الله قد أحلّ لنا ذلك وجعل ما غنمنا حلالاً وما يبالي أحدنا أكان له قنطاراً من الذهب ام كان لا يملك الا درهماً ، ثم قال : ليس لأحدنا غاية من الدنيا ، غير اكلة يشبعَ بها جوفه ، ورداء يرتديه ، فان كان احدنا لا يملك غير ذلك كفاه ، وان كان له قنطاراً من الذهب انفقه في طاعة الله .

فقال القبطي لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل ؟ انه وأصحابه أخرجهم الله لخراب البلاد وما اظن ملكهم سيغلب على الارض كلها .

ثم أقبل عليه قائلاً: لقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة لا يبالي أحدهم من لقي ومن قاتل ، وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين ظهرنا اشهراً وانتم في شدة وضيق ونحن نرأف بكم ، اما الآن ، فتطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان تروا ما لا قوة لكم بردّه ..

فأظهر له عبادة الاستخفاف بقوله ثم قال : ليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ونجيبكم اليها الا خصلة من ثلاث فاختر ايها شئت ولا تطمع نفسك بالباطل، بذلك امرني الامير ، وبها أمره أمير المؤمنين .

وذكر له ما أوصاه الأمير به وجعل يقول: أما اذا أبيتم فليس بيننا الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب منكم ما نريد ، هذا ديننا الذي ندين به فانظروا لانفسكم. — اذن يريد اميرك ان يجعلنا عبيداً .

— هو ذاك فاختر ما شئت . فقال عندئذ لأهل المجلس : ما تقولون : فأجابه احدهم وهو كبير القوم : أو يرضى احد بهذا الذل ؟! ان دخولنا في دينهم

لا يكون ابداً واما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيداً فالموت أيسر من ذلك ولو رضوا ان نضعف لهم ما اعطيناهم من المال كان اهون علينا .

قال : لقد ابى القوم فراجع صاحبك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم ثم تنصرفون . فقام عبادة فخرج مع أصحابه ، فقال المقوقس للقوم :

أطيعوني واجيبوا العرب فوالله ما لكم بهم طاقة ، فان لم تجيبوا طائعين لتجيبونهم الى ما هو أعظم منها كارهين .

فقالوا جميعهم : الموت أهون علينا . وأمروا بقطع الجسر ، واصروا على الدفاع . فألح المسلمون عند ذلك بالقتال ، وانحازت السفن الى الجزيرة فأمسى المسلمون داخل نطاق من الماء لا يقدرون على ان يتقدموا خطوة واحدة .

والمقوقس يقول لاصحابه : أطيعوني قبل ان تندموا .

فلما رأوا من العرب ما رأوا ، أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم وعهد لا ينقضونه .

فكتب الرجل الى عمرو : لم أزل حريصاً على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي ارسلت بها اليّ .

فاجتمع الفريقان عندئذ وتم الصلح على الوجه الذي تقرأ .

«يفرض على جميع من بمصر من اعلاها واسفلها من القبط دينارين دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ، من بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ، على ان للمسلمين منزلاً لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين او أكثر من ذلك لهم ضيافة ثلاثة ايام ، وان لهم ارضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيء منها» .

وقد بلغ عدد القبط يومئذ ، من بلغ منهم سن الجزية ، اكثر من ستة الاف الف — ستة ملايين — فكانت فريضتهم اثني عشر مليوناً من الدنانير كل سنة .

وشرط المقوقس للروم ان يتخيروا ، فمن احب منهم ان يقيم على مثل هذا ، أقام ، ومن اراد منهم الخروج من ارض مصر خرج .

وللمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم يعلمه ما فعل

فان رضي جاز ذلك عليه ، والا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه .

وكتبوا بذلك كتاباً ، ثم بعث الوالي القبطي الى ملك الروم يقص عليه ما جرى ، فقبح الملك رأيه وعجزه ورد عليه ما فعله ، وقد جاء في كتابه : إنما اتاك من العرب اثنا عشر الفاً وعندك في مصر من القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال واحبوا اداء الجزية الى العرب وآثروهم علينا فان عندك بمصر من الروم اكثر من مائة الف معهم العدة والقوة .. أتراك عجزت عن قتال العرب انت ومن معك من الروم والقبط ورضيت بالضعف والذل ؟ اني آمرك بان تناهض العدو حتى تموت أو تظفر . ولا يكون لك رأي غير ذلك .

وكتب الملك مثل ذلك الى جماعة من الروم ، فقال المقوقس لمن معه : والله ان العرب على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا .. ان الرجل الواحد منهم يقوم مقام مئة رجل وذلك لانهم قوم الموت أحب اليهم من الحياة ، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها .

ثم التفت الى جماعة الروم قائلاً : اعلموا يا معاشر الروم اني والله لا أخرج مما دخلت فيه وصالحت العرب عليه واني واثق بانكم سترجعون غداً الى قولي ورأيي لاني عاينت ورأيت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ... ويحكم أما يرضى احدكم ان يكون آمنا في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في العام ؟ فسكت الروم ولم يقولوا كلمة .

ثم اقبل على عمرو بن العاص فقال له : ان الملك قبّح عملي وكره ما فعلت وكتب اليّ والى جماعة من الروم ان لا نرضى بالصلح وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك او تظفر بهم ، اما انا فلم اكن لأخرج مما دخلت فيه وعاهدتك عليه ، وانما سلطاني على نفسي ومن اطاعني وقد تمّ الصلح فيما بينك وبينهم وانا بريء من الروم . ثم قال : على اني اطلب اليك ان تعطيني ما اسألك اياه .

قال : ماذا ؟ قال : لا تنقضنّ بالقبط ، وادخلني معهم ، والزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك .. — ثم ماذا ؟

قال : اذا سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تفعل حتى تجعلهم عبيداً

فإنهم أهل لذلك وانا قد نصحتهم فاتهموني ..

– وهل بقي شيء آخر ؟ – بقي أن اسألك ، ان أنا مت ان تأمرهم بدفني في الاسكندرية . فأجابه عمرو الى ما طلب ، على أن يضمن له الجسرين وتقيم له الانزال والضيافة والجسور بين المعسكر والاسكندرية .

ففعلوا ذلك وأمست القبط أعوانا للمسلمين .

غير ان هرقل بعث بجنود الروم يستعيدون مصر .

وكانت الروم كالجراد ، يظهر في البر ، وتقذف به السفن من البحر .

فنشبت الحرب وطاف الموت في الصفوف يتخطف الارواح ، على ان الظفر لم يلبث حتى خفقت اعلامه فوق جيش العرب ، وهزم الله جيش هرقل الى ناحية اخرى ، فتبعه عمرو وأكرهه على الفرار الى الاسكندرية .

وفي الاسكندرية الحصون المنيعة والابراج الهازئة بالدهر

فحصرتهم قوى العرب ، ورؤساء القبط يمدون عمراً بالطعام والمؤونة وسفن هرقل تحمل الى الجيش المحصور ما يحتاج اليه .

وكان هرقل يقول لوزرائه وقواده : لئن ظفرت العرب في الاسكندرية فذلك معناه هلاك الروم واضطراب العرش .. اني اريد ان اسير بنفسي الى ساحة الحرب ! وبينما هو يتهيأ للزحف بجيش جديد وسفن اخرى ، مد الموت يده فانتزعه من دنياه وكفى الله المسلمين شره ..

وكان موته في السنة التاسعة عشرة للهجرة .

فاهتزت لموته طوائف الروم في الشرق والغرب ، ورجع الجيش الذي كان زاحفاً الى الاسكندرية ، مؤثراً الحياة على الموت في سبيل الدفاع .. وانتشرت العرب عندئذ حول البلد ، وجدّت في القتال حتى سقطت المدينة في ايديهم بعد حصار دام أشهراً .

ويرجع معظم الفضل في ذلك الفتح الى عبادة بن الصامت ورفاقه الثلاثة الذين ذكرناهم لك ، وكان ذلك في السنة العشرين .

* * *

عندما فتحت مصر، ودانت كلها لعمرو بن العاص، أقبل اهلها في صيف تلك السنة فقالوا له : ان لنيلنا ايها الامير سنة لا يجري الا بها . قال وما ذاك ؟

قالوا : اذا كانت الليلة الثانية عشرة من شهر «بؤنة» – عمدنا الى جارية بكر بين ابويها ، فأرضينا اباها وحملنا عليها من الحلى والثياب افضل مايكون، ثم ألقيناها في هذا النيل !!!

قال : ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما قبله .

فأقاموا ثلاثة أشهر والنيل لا يجري ، حتى همّوا بالجلاء . فلما رأى ذلك عمرو كتب الى عمر بن الخطاب .

فأجابه : لقد اصبت ان الاسلام يهدمُ ما قبله ، وقد بعثت اليك بطاقة فالقها في النيل اذا اتاك كتابي !.. وهذا ما جاء في البطاقة :

«من عبد الله عمر امير المؤمنين الى نيل مصر :

اما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجرِ ، وان كان الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الواحد القهار ان يجريك»

– انه مظهر عظيم من مظاهر الايمان الثابت بالله –

فألقى عمرو البطاقة في النيل – قبل يوم الصليب بيوم واحد ، فقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها. فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ست عشرة ذراعاً ... وزالت سنة السوء .

وكان عمرو ، بعد رجوعه من الاسكندرية قد نزل موضع الفسطاط الذي ضرب له يوم قدم مصر . فانضمت اليه القبائل وأعدّت المواضع للاقامة بذلك المكان فولى عليهم الامراء ، وهؤلاء الامراء هم الذين انزلو الناس ، وفصلوا بين العشائر على عادتهم في بناء المدن .

ثم بنى عمرو مسجده العظيم في موضع الفسطاط وما جاوره . وبنى بالقرب منه داراً لأمير المؤمنين وكتب اليه : انا قد بنينا لك داراً عند المسجد .

فكتب اليه ابن الخطاب : انّى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر .. وأمره بان يجعلها سوقاً للمسلمين ، ففعل ، واعتزت العرب وعظم شأنها بفتح مصر .

وامير المؤمنين وقواده لا يرضون بما فتحوا ، بل كانوا يفكرون ، كما قرأت من قبل ، في ضم هذا الشرق الى ملك الاسلام ..

نفوس جبارة مؤمنة ، دفعها ايمانها الى الجهاد المستمر في سبيل الله ، ورفعها ايمانها الى اعظم عرش من عروش المجد والفخار .

وفي ذلك العام حجّ امير المؤمنين بالناس ، وكان عامله على مكة ، عتاب بن اسيد وعلى اليمن يعلى بن امية ، وعلى اليمامة والبحرين عثمان بن ابي العاص الثقفي ، وعلى عمان حذيفة بن محصن ، وعلى الشام والبصرة والكوفة ، من عرفت ، وقد ذكرت لك أسماء العمال على الجزيرة والموصل ..

ودخلت السنة التاسعة عشرة ولم يكن فيها من الفتوح مـا يستحق الذكر ، كما انه لم يكن ، في السنة التي بعدها ، غير فتح مصر كما مرّ ، وغزوة قام بهـا عبدالله بن قيس في بلاد الروم ، وبعض حروب في الاقاليم .

٢٦

همذان واصبهان :

عندما لجأ الفرس الى همذان ، بعد سقوط نهاوند ، حاصرها نعيم بن مقرن ، والقعقاع بن عمرو ، واتخذا الشدة في ذلك الحصـار . فرأى صاحبها ان يستسلم ويعمد الى الجزية يدفعها الى الفاتحين .

فرضي المسلمون ، وأمّنوه ومن معه من الفرس ، وأقبـل من لجأ الى الفرار ، راجعاً الى البلد ، بعد ان ضمنت حياته .

وفعل اهل الماهين ، ما فعله جيرانهم اهل همذان ، وكاتبوا خليفة النعمان بن مقرن – حذيفة بن اليمان – فأجابهم الى ما طلبوه ، على ان تفرض عليهم الجزية كما فرضت على الآخرين .

ثم أمر عمر بن الخطاب ، عبدالله بن عتبـان ، وكان شجاعاً ، ومن أشراف

الصحابة والانصار ، بان يغزو اصبهــان ، وهي مدينة عظيمة من مدن الفرس .
وأمدَّه بأبي موسى الأشعري ، ومن يتبعه من جنود .

ويتبع اصبهان ، اقليم واسع هي عاصمتـــه ، وعلى ذلك الاقليم امير واسع النفوذ هو نصف ملك .. وكان يقيم ببلد يقال له « جَيّ » . وقائد جنوده رجل ذو شأن في قومه وعلى مقدمته شيخ كبير خبر الحروب ، هو شهريار بن جاذويه ، فلمــا قدم المسلمون ، خرجت الفرس في جمع عظيم ، وتلاحمت السيوف في سهل يجاور البلد ، لم يكتب فيه النصر لأحد من الفريقين .

على ان شهريار أراد ان يتعجــل في أمره ، ويقضي على المسلمين الذين خلعوا ملك الملوك عن عرشه ، واستولوا على معظم بلاده ..! فطلب البراز ..

فتصدى له عبدالله بن ورقـــاء الرياحي فقتله في أول جولة وفرّت الجنود تحتمي بالحصون والجبال ، من ذلك القضاء الذي لا يغلب .

غير ان قائد الفرس ، لم يشأ الا ان يعتصم بالحكمة ، فسأل العرب ان يرضوا بالصلح ، وكانت تلك النــاحية اول ناحية أُخذت من اصبهان ، ثم مشى عبدالله بجيشه ، الى ذلك البلد الذي يقيم به امير الاقليم ، حتى انتهى اليه والفرس وراء الاسوار . وكان الحصار .. وما يرافق الحصار ، من ضيق وعنف .

فخرج الفرس بعد بضعة ايام وقد ملـّوا الموقف ، وكرهوا ان يدافعوا ذلك الدفاع الضعيف الذي لا يرجى معه النصر .

وقد أراد ملكهم البطل ، ان يفعل مثل ما فعل شهريار ، فلما التقوا قــال لعبدالله :

لا تقتل اصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فان قتلتك رجع اصحابك وان قتلتني سالمك اصحابي .

فبرز عبدالله وقال له : اما ان تحمل عليَّ واما ان احمل عليك .

قال : احمل عليك .

فوقف له عبدالله وطعنه الفارسي فأصاب قربوس سرجه فكسره وقطع لبَب الفرس والحزام ..

فوثب عبدالله الى الارض ثم استوى على ظهر فرسه ولا سرج عليه وقال : اثبت الآن ان قدرت .

فرفع الرجل يديه قائلاً : ما احب ان اقاتلك فاني قد رأيتك رجلاً كاملاً ، ولكن ارجع معك الى جيشك فاصالحك وادفع المدينة اليك ..

قال : على أي شيء ؟

– على ان يعود من اخذتم ارضه عنوة ، فيدفع الجزية كما ندفعها نحن ، ومن أبى ان يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه .

فرضي الفاتح بما طلب ، ودخل القوم في ذمة المسلمين الا ثلاثين رجلاً خالفوا الجماعة ولحقوا بالفرس النازلين في كرمان ، وقد اغتبط من أقام وندم من خرج، فكتب عبدالله بذلك الى عمر فكان جوابه :

« سر حتى تقدم على سهيل بن عدي في كرمان ، وكن له عوناً على الفرس الذين اعتصموا بها ، واستخلف على اصبهان السائب بن الاقرع .

فخرج القائد من يومه ، بطائفة من الخيل وعهد الى السائب في القيادة ، وأوصاه بان يكون هو وجيشه عيوناً على الفرس .

وفي هذه السنة ، بعث عمرو بن العاص ، عقبة بن نافع الفهري بجيش الى اقليم طرابلس الغرب ، فافتتح زويلة صلحاً حتى كاد ينتهي الى برقة .

وفيها ولى عمر بن الخطاب، عمّار بن ياسر على الكوفة، وعثمان بن حنيف على مساحة الارض ، فشكا أهل الكوفة عماراً، فاستعفى عمّار أمير المؤمنين فنحاه وولى جبير بن مطعم ، ثم ولى المغيرة بن شعبة فلم يزل حتى مات عمر .

ودخلت السنة الثانية والعشرون .

* * *

في مطلع هذه السنة كفر أهل همذان، ونقضوا العهد، فأرسل المغيرة بن شعبة والي الكوفة ، جرير بن عبدالله البجلي الى اولئك القوم الذين استخفوا بالمسلمين ، وامره بان يفتح همذان عنوة والا يرضى بالصلح الا بعد القتال الشديد ، الذي

يندمون معه على نقض العهود ، ففعل جرير ، وكان هنالك قتال طاف فيه الموت بين الصفوف ، وخاف الفرس أن تحصدهم سيوف العرب فيخسروا كل شيء .

وبينا القوم يسقطون جثثاً مضرجة بالدماء وملائكة النصر ترفرف فوق الجيش العربي ، اصيب جرير بن عبدالله بسهم في عينه ، فهاج المسلمون كما يهيج البحر ، وطغوا على همدان ، كما تطغى الأمواج الثائرة فأغرقوها في سيل من الدماء ، وكان جرير يقول : احتسب عيني عند الله الذي زين بها وجهي ، ثم سلبنيها في سبيله .. والبحر تشتد ثورته ويزداد هياجه .

حتى طلب القوم الصلح ، مستسلمين خاضعين للقوة الجبارة التي تضعف عندها القوى ويتلاشى امامها الدهاء والصبر .

فدخل المسلمون همدان يومئذ دخول الفاتحين ، وتمّ الصلح مثل صلح نهاوند ، ودان ذلك القطر للعرب ، منذ ذلك اليوم .

وكان المغيرة قد سيّر البراء من عازب في جيش الى قزوين .

فسار حتى أتى حصناً لها احتمى به القوم ، فقاتلهم حتى عجزوا عن الدفاع وطلبوا الأمان فكان لهم ما طلبوه .

ثم غزا قزوين ، فاستعان اهلها بأهل الديلم وهم قوم أشداء ، فوعدوهم ولكنهم لم يجردوا سيفاً .. وفتحت قزوين صلحاً ثم غزا البراء الديلم ، وجيلان ، والطيلسان وزنجان وكان النصر حليفاً له .

فتح الري :

على الريّ ملك من ملوك الفرس يتمشى الغرور في بردتيه .

وقد بلغ المسلمين انه يستخف بهم ، وان بلاده أمست ملجأ لكل خائف من بني قومه . فخرج اليه غازياً ، نعيم بن مقرن ، فاتح همذان في المرة الاولى .

وكان في الريّ قائد يرى الخضوع للاسلام ، خيراً من الدفاع بحد السيف ، والملك لا يوافقه فيما يراه ، فلما قدم نعيم ارض الري ، لقيه ذلك القائد منفرداً طالباً الصلح ثم انضم الى جيشه ليكون دليلاً له .

على ان الملك أعدّ جنوده ولم يبالِ ، وأمدّه اهل المدن والأقاليم التي تجاوره بالمؤونة والرجال ، والتقى الجيشان في سفح جبل هناك لا يبعد عن مدينة الري غير فرسخ واحد ، والطريق منه اليها ، يصلح لزحف الجيوش .

ولكن اهل الري كانوا كثاراً والعرب في قلة .

وقد رأى المسلمون في الميدان ، من قوة الفرس ما لم يخطر لهم من قبل ، فقال ذلك القائد لنعيم :

ابعث معي خيلاً أدخل بها المدينة ، من موضع لا يشعر به القوم ، وتحاربهم انت برجالك حتى تسمع اصوات المسلمين وراء الاسوار .

فأرسل الرجل فريقاً مع الفرسان الأشداء ، وجعل عليهم ابن أخيه المنذر ابن عمرو . وأقبل الليل فدخلت الخيل المدينة والفرس لا يشعرون .

ونعيم يشغلهم بالطعن والضرب وهو صابر على الشدة حتى سمع المسلمون اصوات التكبير فأيقنت الفرس بأن المدينة قد فتحت ، فعمدوا الى الفرار لا ينظرون الى الوراء ، واستولت العرب على الري ، ثم على قومس ، وجرجان ، وطبرستان ، وامتلأت أيديهم من المال .

طرابلس الغرب وبرقة :

كان عمرو بن العاص ، ينظر الى الأقطار التي تجاور مصر ، نظرة الفاتح الى ارض لا تخفق فوقها أعلامه .

وكان قد سيَّر عقبة بن نافع الى زويلة ففتحها له ، وطاب له عندئذ ان يستولي على اقليم طرابلس كله ، ليكون الفتح كاملاً .

فزحف من مصر الى برقة بأبطال قومه فخضعت له بدون حرب وصالحه اهلها على الجزية ، ثم مشى الى طرابلس ، فنزل بجيشه شرقي المدينة وضرب عليها الحصار . ولكنه رأى بعد شهر ، انه عاجز عن فتحها ، من تلك الناحية .

وبينا هو يشاور اصحابه ، وقد تحير في الامر ، خرج رجل من بني مدلج يتصيد في سبعة رجال من قومه ، وقد اتجهوا في صيدهم الى الجانب الغربي ،

فلما رجعوا اشتدّ عليهم الحرّ فرأوا ان يسلكوا طريق الشاطىء .

ولم يكن سور البلد متصلاً بالبحر .

بلى .. كان على الشاطىء سور من سفن الروم ..

فقال المدلجي لأصحابه : انا والله سنحدث حدثاً تذكره الناس الى الابد ...

قالوا : ماذا ؟ قال : ندخل المدينة من هذه الناحية ، ونكبر !!

فابتسم اولئك الابطـــال لتلك المغامرة التي يكمن لهم فيها الموت ، ودخلوا البلد كأنهم من اهلها ، والايدي على السيوف ، ثم قفزوا الى السور وكبروا !

انها لجرأة غريبة لم تخطر لعمرو بن العاص ، وأركان حربه !

وماذا يظن الروم في تلك الساعة؟ انهم يظنون ان المسلمين تسلقوا الاسوار ! فذعروا ، ثم لم يجـــدوا لهم ملجأ الا البحر ، فركبوا سفنهم وهم ينظرون الى طرابلس نظرات التوديع والقهر يملأ القلوب، ولكن السفن لا تتسع لجميع السكان فما هي الا ساعة حتى دخل عمرو وجيشه وقـــد سمعوا التكبير ، ولم ينجُ من السيف غير الذين تعجلوا في الفرار .

وكان اهل سبرة قد تحصنوا في حصن لهم ، فلما فتحت طرابس سيّر عمرو اليهم جنداً ، فصبّح البلد وقد فتح اهلها ابوابـه ، فوقع عليهم المسلمون وسقط الحصن في ايديهم وغنموا ما فيه ثم عادوا الى عمرو .

وبعد ان استقام الامر للعرب في ذلك القطر رجع ابن العاص الى برقة وقــد اجتمعت فيها طوائف من البربر ، فأظهروا له خضوعهم ، وصالحوه على ثلاثـــة عشر الف دينار ، يؤدونها جزية ، وشرطوا ان يبيعوا في جزيتهم من ارادوا من اولادهم !!

اذربيجان :

عندما فتح نعيم بن مقرن الري ، بعث سماك بن خراشة الانصاري مــدداً لبكير بن عبدالله في اذربيجان ، وكان بكير قــد سار اليها بامر عمر بن الخطاب وأسر قائدها اسفنديار ولم يبق الا ان يظفر بقائد آخر يقال له بهرام .

فقال القائد الاسير لبكير : الصلح أحب اليك أم الحرب ؟ - بل الصلح .
قال أمسكني اذن عندك فان اهل اذربيجان ان لم اصالح عليهم او أجيء اليهم لا يتصدون لك ، فجعله عنده ، وجعلت البلاد تستسلم استسلاماً الا اهل الحصون والابراج الذين قام في أذهانهم ان ايدي العرب لا تصل اليهم .
فلما قدم سماك ، كان بكير قد فتح ما يليه من الارض ، وفتح عتبة بن فرقد ، من الناحية الاخرى ما حوله ، وقد كتب بكير الى عمر يستأذنه في المسير الى المدن التي تلي اذربيجان ، فأذن له .
فاستخلف على ما فتحه ، عتبة بن فرقد ، وأقرّ عتبة سماك بن خراشة على عمل بكير ، وخرج بكير يريد « الباب » .
ثم جمع ابن الخطاب اذربيجان كلها ، لعتبة بن فرقد ، فزحف الى الامام ليستولي على ما بقي ، فلقيه بهرام القائد الآخر بجيشه الكثير واشتعلت النار ، ولكن بهرام لم يكن اشجع من قواد فارس الذين سقطوا في الميادين ، فما هو الا يوم حتى هزمه الله وتفرق جيشه .
فقال اسفنديار وهو في الأسر عندئذ : الآن تمّ الصلح .. وصالحه على مال تدفعه اذربيجان ودخل أهلها جميعهم في الطاعة .
وهذه صورة العهد بين عتبة وبين اهل البلد :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب امير المؤمنين ، اهل اذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الامان على انفسهم وأموالهم وشرائعهم على ان يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ليس على الصبي والمرأة والعاجز والمتعبد شيء من ذلك ، وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ، ومن خرج منهم فله الامان حتى يلجأ الى حرزه » .

البـــاب :

كتب امير المؤمنين الى سراقة بن عمرو ، وكان يدعى ذا النور ، يأمره بالمسير الى الباب . والباب مدينة عظيمة بناها كسرى .

فمشى سراقة يقود جيشه وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة البـــاهلي وعلى جناحيه حذيفة بن سعيد الغفاري وبكير بن عبدالله الليثي الذي تقدم ذكره ،
فلما أطل عبد الرحمن قائد المقدمة على البـاب ، كتب اليه ملكها يستأمنه ويسأله ان يأتيه !! ففعل وأتاه فقال له :
اني بين عدوٍّ كلِب وأمم مختلفة ليست لهم أحساب ، ولا ينبغي للعاقل ان يعينهم على ذي الحسب وانكم قد غلبتم على بلادي وأمتي ، فأنا منكم ويـــدي في أيديكم ، والنصر لكم فلا تسومونا الجزية فتوهنونا بعدوّكم .
فسيّره عبد الرحمن الى سراقة فلقيه بمثل ذلك .
فقال سراقة : لقد رضيت بالصلح ولكن لا بد من الجزية ممن يقيم ولا يحارب.
فأجابه الملك الى طلبه وكتب سراقة الى عمر فأجازه واستحسن ما صنع .
ثم وجه سراقة القواد والجنود الى الجبال التي تحيط بأرمينية ففتحوا موقات وتفليس وغيرهما من المدن القائمة في الجانب الآخر من تلك الجبـــال ولم يلبث سراقة حتى مات بعد ان تمّ له الفتح .
فخلفه في الامارة ، بأمر عمر ، عبد الرحمن بن ربيعة ، وطاب له ان يغزو الترك ، وهم قبائل كثيرة تقيم بأقصى ولاية الباب . ثم أعدّ للغزو عدّته ، فقال له ملك الباب : ماذا تريد ان تصنع ؟ — أريد ان أغزو الترك في عقر دارهم .
قال : انـّا لنرضى منهم ان يكفـّوا عن الأذى .
ـ ولكن نحن لا نرضى حتى نغزوهم في منازلهم وان معي قوماً لو يأذن لهم أميرنا في الامعان لبلغت بهم الروم ! قال : ومن هم ؟
ـ قوم صحبوا رسول الله ودخلوا في هذا الامر بإيمـان ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم من يغلبهم .
ثم أغار والنصر يبتسم له ، والترك يفرون من وجهه ، وهم يقولون : والله ما اجترأوا علينا الا ومعهم الملائكة تمنعهم من الموت !
حتى انتهت خيل عبد الرحمن الى البيضـاء على رأس مائتي فرسخ من أرض الباب ، وكانت غزوة لم يقدم عليها أحد من قبل .

على ان عبد الرحمن هذا ، قتل في ارض الترك ، بعد موت عمر بن الخطاب ، وذلك لأنه غزا القوم ايام عثمان بن عفان ، فظفر كما كان يظفر ، ولكنهم خرجوا عليه في موقعة من مواقعهم فقاتل حتى قتل .

فتح خراسان :

انتهى يزدجرد ملك فارس ، الى الري وعليها أميرها ابان جاذويه .

فوثب على يزدجرد فأخذه ، فقال الملك : أتغدر بي ؟

قال : لا ولكن قد تركت ملكك فصار في يد غيرك فأحببت ان يكون لي منه شيء . وأخذ منه خاتمه فكتب عهداً بكل ما أعجبه وردّ الخاتم .

فسار يزدجرد الى اصبهان ، ومنها الى كرمان ، ثم أتى خراسان .

ونزل فيها مدينة يقال لها مرو ، وبنى فيها بيتاً للنار التي يعبد .

ثم جعل يثير اهل فارس ، ويوغر صدورهم على العرب ، حتى ثاروا ، وأقبلوا على خراسان من جميع النواحي ليجودوا بدمهم في سبيل الملك !

وبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فكتب الى الاحنف بن قيس ، وهو من عظماء العرب ووجوه المسلمين :

اذا اتاك كتابي فسر الى خراسان وانظر في امر الفرس الذين انضموا فيها الى يزدجرد . وكان قد عقد له لواء خراسان ، يوم عقد الألوية .

فسار الاحنف وراءه الجنود لا يخافون الموت .

وافتتح هراة بالسيف ، ثم زحف الى مرو ، وأرسل مطرف بن عبدالله الى نيسابور والحارث بن حسان الى سرخس ، ليفتحا الناحيتين .

على انه لم يدنُ من مرو حتى فرّ يزدجرد الى مدينة اخرى ، واستعان وهو فيها ، بالملوك يسألهم ان يتصدوا للعرب في فتوحهم ، ويطردوهم من البـــلاد ، التي هي ملك جدوده ! فلحق به الاحنف وقد استخلف على مرو ، حارثة بن النعمان الباهلي ، وكان جيش من الكوفـة قد انضمّ الى جيش المسلمين فلما بلغ يزدجرد خبر مسير الجيوش ، فرّ الى بلخ . ولكن المسلمين أرادوا ان يزوروه في

مدينته ، ولم تقف خيلهم الا في ساحات بلخ ، في ظلال النخيل .

ودارت في تلك الساحات رحى الحرب .. فلم يستطع يزدجرد الا ان يعمد الى سلاحه الوحيد .. سلاح الفرار .. الذي ينقذه من الموت .

وعبر النهر مع اهل فارس يريد ان يستعين بخاقان ملك الترك .

فرجع الاحنف وكتب الى عمر بن الخطاب يبشره بفتح خراسان . فلما انتهى رسوله الى عمر قال لمن حوله :

لوددت اني لم اكن بعثت اليها جنداً ولوددت انه كان بيننا وبينها بحر من نار

فقال علي بن أبي طالب : ولمَ ذلك يا امير المؤمنين ؟

– لان اهلها ينتقضون ثلاث مرات .

وكتب الى احنف : اما بعد فلا تجوزنّ النهر واقتصر على ما دونه وقد عرفتم بأي شيء دخلتم خراسان فداوموا على الذي دخلتم به يدُم لكم النصر واياكم ان تعبروا . وكان يزدجرد قد لقي خاقان بعد عبوره النهر وخبّره ما جرى له . والملوك ترى على أنفسها انجاد الملوك .

فوعده خاقان باسترجاع بلاده ، ودعا قومه ثم خرج بهم وخرج يزدجرد راجعاً الى خراسان وهو واثق بالنصر .

حتى عبروا الى بلخ ومشى خاقان بجيشه يريد ان يبارز الاحنف بن قيس ، وسار يزدجرد بمن معه الى مرو يريد ان يستخرج امواله التي دفنها فيها .

وكان الاحنف حين بلغه عبور خاقان نهر بلخ غازياً ، قد خرج ليلاً يطوف بين الصفوف عله يسمع رأياً ينتفع به ، فمرّ برجلين جالسين عند خيمة لهما وأحدهما يقول لصاحبه : لو ان الامير أسندنا الى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً وكان الجبل في ظهورنا وكان قتالنا من وجه واحد ، رجوت ان ينصرنا الله فلما سمع هذا رجع ولم يقل كلمة ..

ولما أصبح ، جمع الناس ثم قال : انكم قليل وان عدوكم كثير ، ولكن كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين .. ارتحلوا من مكانكم هذا واستندوا الى هذا الجبل فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم

وقاتلوهم من وجه واحد ..

ففعلوا ، وقد أعدوا ما يصلحهم وتهيأوا لليوم العصيب .

واقبلت الترك حتى نزلوا على الشاطيء الآخر . وجعلوا يقاتلونهم في وضح النهار ، ويتنحون عنهم في الليل ، والاحنف لا يفارق موقفه ولا يريد ان يقذف بجيشه الى هوة الفناء .

حتى ضاق صدره ، وطاب له أن يحدث حدثاً في معسكر عدوه ، فخرج ليلة فعبر النهر ووقف الى جانب المعسكر وهو يفكر فيما يصنع حتى بان وجه الصبح ، فأقبل عندئذ فارس تركي وضرب بطبله ثم وقف من الجيش موقفاً يقفه مثله وهو بانتظار رفيق له ، فحمل عليه الاحنف وطعنه فقتله وهو يرتجف ويقول :

ان على كل رئيساً حقّا	ان يخضب الصعدة أو يندقّا
ان لنا شيخاً بها ملقّى	سيف ابي حفص الذي تبقّى

ووقف موقف التركي .

فخرج آخر من الترك ففعل مثل صاحبه الاول ثم وقف دونه ، فحمل عليه الاحنف فطعنه ، ثم وقف موقفه .

وما هي الا لحظة حتى خرج الثالث ففعل فعل الاثنين ثم فاجأه الموت ، ولم يبق الا ان ينصرف الاحنف الى جيشه .

وكانت عادة الترك انهم لا يخرجون الى الميدان حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم يضرب كل واحد منهم بطبله ، فخرجوا يومئذ فرأوا فرسانهم الثلاثة جثثاً .

فتشاءم خاقان فقال : لقد طال مقامنا وليس لنا في قتال هؤلاء القوم خير فانصرفوا بنا وليفعل يزدجرد ما يشاء .

فلما ارتفع النهار نهض المسلمون وهم لا يرون أحداً ،ثم انتهى اليهم خبر رجوع القوم الى بلخ .

فعرف الأحنف ان خاقان لم يشأ البقاء بعد مقتل الرجال الثلاثة وقد آثر العودة الى بلاده على بذل دماء قومه في سبيل يزدجرد .

وكان يزدجرد قد أحاط بجيشه مدينة مرو التي ولى عليها الاحنف بعد فتحها حارثة بن النعمان ، فتحصن حارثة وهو يرى ان العرب القلائل أضعف من ان ينازلوا ذلك الجيش العظيم .

فحصرهم يزدجرد واستخرج امواله من مواضعها وهي بقية من أموال الأكاسرة ثم اراد اللحاق بخاقان النازل في بلخ .

فقال له اهل فارس : اي شيء تريد ان تصنع ؟

قال : اريد ان أنصرف الى خاقان فأكون معه او أنصرف الى الصين !

قالو : مهلاً فان هـذا رأي سوء انك انما تأتي قوماً في أرضهم وتدع ارضك وقومك وهذا ما لا تفعله الملوك .. — وماذا ترون ؟

— نرجع الى هؤلاء القوم فنصالحهم فانهم أوفياء واهل دين وهم يلون بلادنا . وان عدواً يلينا في بلادنا احب الينا من عدوٍ يلينا في بلاده ولا دين له ..

فأبى عليهم ذلك وأبوا عليه .

فقالوا : دع اموالنا نردّها الى بلادنا ولا تخرجها من فارس . قال : لا افعل .

فاعتزلوه .. ثم قاتلوه وهزموه واستولوا على الخزائن وكتبوا الى الاحنف .

فعرض له المسلمون يريدون ان يقبضوا عليه ، ولكنه استطاع ان يعبر النهر الى الجيش التركي دون ان يروه .

ولم يزل مقيماً عندهم زمان عمر كله يكاتب قومه ويكاتبونه والحظ لا يبسم له.

اما أهل فارس ، فقد أقبلوا على الاحنف فصالحوه ودفعوا اليه تلك الخزائن والاموال وتراجعوا الى مدنهم وجبالهم على أفضل ما كانوا ايام الاكاسرة .

وأصاب الفارس من الغنائم في تلك الحرب ، ما أصابه يوم القادسية .

وبعث الاحنف بشرى الفتح الى أمـير المؤمنين ، فجمع عمر النـاس ، وقرأ عليهم كتاب الفتح ثم قال : الا وان ملك المجوسية قد هلك فليس يملكون مـن بلادهم شبراً يضر بمسلم الا وان الله أورثكم أرضهم وديارهم واموالهم وابناءهم لينظر كيف تعملون فلا تتبدلوا فيستبدل الله بكم غيركم .

وقبل ان تنقضي السنة ، غزا معاوية بن ابي سفيان بـــلاد الروم ، في عشرة الاف فظفر وغنم .

وحصر المسلمون مدينة توّج فافتتحوها وقتلوا منها الخلق الكثير، وكان ذلك في مطلع السنة الثالثة والعشرين .

فتح اصطخر وجور وغيرهما :

في السنة الثالثة والعشرين ، قصد عثمان بن ابي العاص الثقفي اصطخر ، وكان عمر قد عقد له لواءها . فلقيه أهلها بجور، وهم جيش لجب حسن العدة والسلاح. ولكن ذلك الجيش اللجب لم يثبت في الميدان ، بل عمد الى الهرب ، مذعوراً خائفاً وهو يتلفت الى الوراء .

ففتح المسلمون جور وقتلوا من اصحابها ما شاء الله ان يقتلوا ، ثم دعا عثمان البقية الباقية الى الجزية فأجـابه القوم اليها وتراجع من فرّ ، ثم فتح اصطخر وكيزرون ، وشاركه ابو موسى الأشعري في فتح مدينـة شيراز وغيرها ، على الجزية والخراج .

ولم يلبث عثمان حتى فتح بلداً آخر يدعى جنـابا ، كان الفرس قد عسكروا بالقرب منه ، وصاحب هذا البلد يدعى شهرك .

واستسلم القوم بعد الفتح استسلاماً تاماً ، ولكن سيدهم شهرك كان رجـلا غداراً لا يعرف ما هو الوفاء .

حفظ له المسلمون سيادته ومـاله ، وسلطوه على ما فتحوه ، ووهبوا له من نفوذهم ما يستطيع معه ان يعيش كما تعيش الملوك ، على انه لم يرضَ بذلك كله ، بل أراد انَ يكون هو الأول في بلده ، فخلع طاعة القوم في آخر العـام ورفع رأسه تيهاً وكبراً على المحسنين اليه .

فغضب عثمان ووجّه اليه ابنه ، ثم أقبل جيش من البصرة عليه عبـدالله بن معمّر ، وشبل بن معبد ، يساعد ابن عثمان في تأديبه .

وكانت الحرب في قرية بينها وبين شهرك ثلاثة فراسخ ، وشهرك ايضـاً اسم البلد . فقال الفارسي الغدار لولده :

يا بني . أين يكون غداؤنا ، هنا أم بالمدينة ؟..

فقال : اذا تركنا القوم تغدينا في المنزل .. ولكني لا أراهم يتركوننا .

وبينـــا هما يتحدثان ، أنشب المسلمون الحرب ، فتلاحم الجيشان ولم ترتفع الشمس الى السماء ، حتى قتل الوالد والولد وحصد السيف بعدهما اكثر من الف .

ويقول بعض المؤرخين : قتل شهرك الحكم بن ابي العاص أخو عثمان

وقال البعض الآخر : قتله سوار بن همام العبدي .

ثم حوصر الفرس بمدينـة سابور ، فسأل ملكها الصلح ، وصالح المسلمين على مال يدفعه اليهم وهو لا يضمر لهم شيئاً من الاخلاص .

وعرف عبدالله بن معمّر انه يريد الغدر به وبجيشه .

فقال له : احب ان تتخذ لأصحابي طعاماً . قال : وما طعامكم ؟

ـ تذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الجفنة .

ففعل ، فجعل عبدالله يأخذ العظم الذي لا يكسر الا بالفؤوس ، فيكسره بيده ، ويتناول ما في داخله ، والملك يراه .

فقال في نفسه : انه والله أشدّ الناس .. وقام فقبّل قدمه وقال : هذا مقام العائذ بك ايها الامير .. قال : وتعطيني عهداً على أنك تفي بما تقول ؟

ـ نعم ثم أعطاه ذلك العهد وأمسى للمسلمين من المخلصين .

وكان سارية بن زنيم الكناني قد افتتح نساودار ، بعد حصار طويل وحرب دهى المسلمين منها أمر عظيم .

ولو لم يحتم سارية بجبل هنالك لفتح الموت شدقيه وابتلع جيشه من قائده الى راعي البعير فيه . وقد استطاع سهيل بن عدي ، وعبدالله بن عتبان ، في تلك السنة ان يفتحا كرمان .

وعاصم بن عمرو ان يفتح لواء سجستان ، وهو أعظم وأوسع من لواء خراسان ، وانتهى ، الحكم بن عمرو التغلبي في فتوحه ، الى بلد يقال لها مكران .

فلما فتحها كتب الى عمر وجعل رسوله اليه ، صحار العبـدي ، وخبّره في كتابه انهم غنموا طائفة كبيرة من الافيال ، فقدم صحار على عمر بالخبر ، فسأله عن المدينة طالباً اليه ان يصفها له ويصف أرضها .

وكان لا يأتيه احد الا سأله عن الوجه الذي يجيء منه . فقال صحار :

يا أمير المؤمنين ، ارضٌ سهلها جبل .. وماؤها وشل ، وتمرها دقـــل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير فيها قليل ، والقليل ضائع ، وما وراءها شرّ منها ..!

فقال : أسجّاع انت ام مخبر ؟ — بل مخبر يا امير المؤمنين .

قال : لا والله لا يغزوها جيش لي .

وكتب الى الحكم يقول : لا يجوزنّ مكران احد من جنودك واقتصر على ما دون النهر ، وأمره ببيع الافيال ، في ارض الاسلام ، وبان يقسم اثمانهـــا على الغانمين . وقال : الحكم بن عمرو في ذلك :

لقد شبع الارامـــل غير فخر	بفيءٍ جـــاءهم من مُكْرّان
أتاهم بعـد مسغبة وجهـد	وقد صفر الشتاء من الدخـان
فـــاني لايـــذمّ الجيش فعلي	ولا سيفي يـذمّ ولا سناني
غداة ادفع الاوباش دفعـــاً	الى السند العريضة والمـداني
ومهران لنـــا فيما أردنا	مطيع غير مسترخي العنان
فلولا ما نهى عنـــه اميري	قطعناه الى البدد الزواني

خبر بيروذ :

بيروذ ، قطعة من الاهواز ، بلاد مهاتب الفارسي ، منقذ هند .

وقد مرّ بك ان عمر ، عهـد الى ابي موسى الاشعري ، في المسير الى آخر حد من حدود البصرة ، خوفاً من ان يفاجأ المسلمون ، من الوراء .

وكان مهاتب قد ترك سعداً ، في المدينه كما قرأت .

ولم يلبث حتى قدم الكوفة ، ومنها الى البصرة ، قبل ان يرحـل ابو موسى بجيشه الى بلاد الاهواز .

ثم أقام بها ، مع ابي زبيد الطائي وأهل بيته ، وعبدالله بن الفهر ، والمنـذر وهند وشراحيل العبسي وجميع من عرفت .

وأبو موسى يطوف في البلاد بأمر عمر ، ليساعد الامراء في الفتح .

حتى أتت ساعة الرحيل الى الاهواز ، وقد بلغ أبا موسى ، ان خيول الفرس والاكراد تملأ بيروذ .

وكان القوم قد خبروا الامير حكاية مهاتب ، وقصوا عليه خبر اسلامه ، فوثق به ، وراح يستشيره في ما لا يعلمه من امور الفرس .

وقبل ان يزحف الى الاهواز ، دعاه اليه فقال : لقد جاء دور الاهواز اليوم فهل يطيب لك المسير اليها ام تؤثر اللحاق بجيش الكوفة .

قال . الى الاهواز فقد يكون لي خبرة بأرضها تنفع الاسلام .

— وتعرف بيروذ ؟

— أجل فعند بيروذ سهل فسيح تنحدر اليه الاكراد كل عام ، من رؤوس الجبال ، وتجعله سوقاً للبيع والشراء ، وقد تجعله ميداناً للسباق ..

قال : ان الاكراد قوم أشداء ..

— ليس تحت هذه السماء قوم أقوى واكثر احتمالاً من هؤلاء ، الا العرب !

— وكم هو عددهم ؟

— لا أظن ان أحداً من الفرس يعرف هذا العدد.. انهم طوائف كثيرة ، ولم تخضع هذه الطوائف للأكاسرة ، من قبل ، الا بالاسم .

— وهم يقيمون بالجبال القائمة وراء الاهواز ؟

— اجل ، وبالجبال التي تقوم قبلها ، وقد يهبطون المدن والسهول فيبقون فيها ما طاب لهم البقاء ثم ينصرفون .. وقد تراهم في المدائن ، ثم لا تلبث حتى تراهم في البحرين .. — اذن هم كالبدو بيوتهم على ظهورهم ..

— بل هم أفراخ الجن ايها الامير ، ولو كان جيش يزدجرد منهم ، لرأت العرب في حربهم ما لم ترَ مثله .

قال شهدت حربهم فاذا هي حرب ليس لها نظام .

— نعم وهذا هو عيبهم في الميادين .. يخوضون المجال ويقتحمون الخيل ، وانت لا تجد امامهم وخلفهم قواداً وأصحاب رأي يدلونهم على طريق الظفر ..

جميعهم قواد وجميعهم جنود ، وللرجل منهم ان يحارب عندما يشاء ويترك الساحة عندما يشاء كأنه غريب عن القوم الذين تسقط اجسادهم تحت حوافر الخيل . — وماذا تظن أيظفرون بنا في الاهواز ام نظفر بهم ؟

قال : الدولة التي تظفر بكسرى وقيصر ، تظفر بهؤلاء الاكراد عندما تتلاقى السيوف .. قال : صف لي سهل بيروذ .

– يقوم ذلك السهل بين جبلين يبعد الواحد عن الآخر بضعة عشر فرسخاً .

– ويقولون ان في ذلك السهل ماء .

– اجل ، نهر في الجنوب ونهر في الشمال ويقال لهما تيري ومناذر .

– وتروى ارض السهل من النهرين ؟

– لا ، فالنهران ينحدران في واديين انخفضت أرضهما فلا يصيب السهل شيء من الماء الا اذا جاء الشتاء وفاض تيري .

– اذن فلنا في بيروذ ميدان رحب ، وأين موقع المدينة ؟

– في اول السهل من الشرق وفيها الحصون خلف الأسوار .

قال : أتعرف المهاجر بن زياد ؟ — نعم وأعرف اخاه الربيع .

قال: يخطر لي ان اجعل المهاجر قائد المقدمة فهو من أشجع الناس، فماذاترى؟

– انك أدرى أيها الأمير بشؤون العرب فلا رأي لي في ذلك .

قال : ويخطر لي ان ابعث بك في طليعة القوم .

– اني فاعل ما تأمرني به ، على ان يكون معي ابو زبيد الطائي ورفاقه .

– ولِمَ ذلك ؟ — لأني ألفت الحرب في بلاد فارس وانا الى جانب هؤلاء.

قال: لقد جعلناهم طليعة لنا فهل بقي لك ما تسألنا اياه ؟

– لم يبق الا ان تحطم الاكراد الذين يستخفون بالعرب .

فنهض ابو موسى قائلاً : سنحطمهم باذن الله في يوم وليلة .

وكأنه ذكر امراً آخر قبل ان ينصرف فقال : الا تصف لي قومك الآن ؟

– خير ما اصف لك بـه اهل الاهواز انهم قوم لا يسلمون بلادهم الا اذا أفناهم السيف . — انهم اذن رجال مروءة وقوة . واذا نصحتهم بالاستسلام!

– لسنا بحاجة الى ذلك فالفتح لا بد منه .

قال : اردت ان ادعوهم الى الاسلام او الجزية فأحقن دماءهم

– ولكنهم لا يصغون الى الدعوة ولا يستجيبون لك .

قال : أليس لك بينهم اهل يا أبا بهرام ؟

– ان أهلي من الفرس هم الذين أمسوا مسلمين ودخلوا في دين النبي .. وهب ان قومي سمعوا لك ودفعوا الجزية فهم لا يلبثون حتى ينقضوا العهد بعد رجوع الجيش الفاتح من بلادهم . – وما الذي يدفعهم الى ذلك ؟

– بعد ارضهم وغرور في أنفسهم لايحيدون عنه، وايمان بالإله الذي يعبدون.

قال : لم يبقَ الا ان تقول معي : الويل للأهواز .

وخرج يطوف بين الصفوف وهو ينظر في أمور الناس ، حتى غربت الشمس فنادى مناديه : اركبوا ..

وزحف الجيش في ذلك الليل ، وفي طليعته مهاتب وولده ، والرجال الآخرون . وقد تركوا نساءهم في البصرة ، مع نساء المسلمين .

* * *

كان الجيش في بيروذ ، بضعة وثلاثين الفاً بينهم بضعة وعشرون الفاً من الأكراد .

وذلك الجيش يتهيأ للزحف الى ضواحي البصرة حيث تنزل طوائف من العرب، لا تستطيع لقلتها ان تثبت في المجال .

ولولا إبطاء أبي موسى في المسير، لما استطاعت صفوفهم ان تجتمع في بيروذ .

فلما أبصرت الجيوش الجيوش ، تنحى المسلمون الى الجانب الشمالي ثم جعلوا يمشون ببطء حتى توسطوا السهل ، فوقفوا .

وكأن أبا موسى كان يحصي جيش العدو .. والمهاجر بن زياد على فرسه يدور حول جناحي المعسكر العربي وأخوه الربيع وراءه لا يفارقه .

وذلك اليوم من أيام رمضان .. وزعماء فارس والاكراد واثقون بكثرتهم

وكانوا يقولون : اما ان نظفر بالمسلمين ونكيدهم واما ان نصيب منهم عورة . وهم لا يشكون في واحدة من الاثنتين .

فبعد ان تهيأ الجيشان ، ودنت ساعة اللقاء الدموي ، التفت المهاجر فرأى أخاه الى جانبه فقال لأبي موسى : أقسم على كل صائم ان يرجع فيفطر ..

وقد أراد بذلك ان يتنحى أخوه الربيع عنه ، لئلا يمنعه من الاستقتال !!

والربيع يحب أخاه كما يحب نفسه ، والمهاجر لا يخوض المجال الا وسيف الربيع يحميه . فرجع الربيع عندئذ ليبرّ في القسم .

فقال المهاجر : اثبتوا يا معاشر الاكراد .. وهمز فرسه ، فوثب به الى الامام ووثبت الخيل ، ثم تبعه ابو زبيد ومهاتب ومن معهما ، وراجت سوق الموت في ذلك السهل تباع فيها الارواح ..

وبدأ الاكراد والفرس يتراجعون وقد ضيعوا رجاءهم بكثرة عددهم وقوة أبطالهم وشدة خيولهم في الجري ..

وبينما السيوف تصطدم بالسيوف والأسنة تغوص في الصدور ، أبصر القوم فارساً مسلماً يخترق فرسه الصفوف والسيف في يده وهو يصيح : دلوني على المهاجر بن زياد .. أين المهاجر بن زياد .

وكان الفارس ، الربيع بن زياد لا سواه ، وهو يبحث عن أخيه .

ومرت ساعة وهو يطوف وينادي حتى رأى فرس المهاجر ولم يرَ فارسها .

ففرق الناس برمحه وجعل يتبين الجثث فأبصر بينها جثة أخيه ، وقد مزقتها الأسنة .. فعظم عليه الخطب واشتد جزعه . ثم خفض صوته وجعل يرثيه كأنه في منزله وبين أهله . وكان المشركون قد تحصنوا في قلة وذل .

فقيل لأبي موسى : قتل المهاجر وسيقتل الربيع نفسه .

فأقبل فقال : يا ابن زياد .. أتبكي رجلاً شرفه الله ورحمه بالشهادة ؟

فرفع رأسه قائلاً : بل أبكي بطلاً صرعه الردى قبل ان تخفق أعلام الفتح !!

قال : ارفع انت بيدك هذه الأعلام .. قال : لا يرفعها غير قواد المقدمة .

قال : لقد سلمت اليك هذه القيادة بعد اخيك .. ثم قال : بل انت منذ

الان خليفتي على هذا الجيش ريثما اعود .

فقال القوم : الى اين ايها الامير ؟

الى اصبهان لارى بعيني ماذا جرى لاهل الكوفة ! - واهل الاهواز ؟

قال : يكفي ان يكون الربيع بن زياد وامثاله بينكم ليتم لكم النصر . وكان الظلام قد اقبل ، فدفن المسلمون القتلى وشيع القوم جثة المهاجر بالبكاء ، ثم أوى ابو موسى الى مضربه يوصي الربيع والقواد بما يجب ان يصنعوه . وسادة بني طيء والنمر وتغلب في القوم .

فلما انصرف الناس ، تنحى ابو زبيد ومن معه حتى لم يبق في المضرب غير أبي موسى وحده فقال الامير الطائي : لي كلمة اقولها لك اذا شئت .

فاستوى ابو موسى جالساً وأصغى اليه .

فقال : لقد علمت ايها الامير ما كان من إحسان مهاتب الفارسي الى بني طيء ، بل الى العرب . قال : لقد كان شريفاً فحفظ لبني طيء حياة هند وهذه هي المروءة . ولكن بني طيء لم يفعلوا معه كما فعل معهم ولم يحسنوا اليه .

- ولماذا لا تفعل وانت سيد القوم ؟ - لاني اضعف من ان اعطيه ما هو أهل له .. قال : أتحسن بمال ؟ - لا فهو ذو مال كثير يزداد في كل يوم .

قال : اعطه طائفة من خيل قومك .. - الخيل بين يديه كما ترى ..

- اذن سر الى الحيرة واشترِ له قطعة من نوق النعمان ..

قال : رأيته يستحق اكثر من هذا .. - ماذا ؟

- امارة من هذه الامارات يوليه امرها المسلمون !.

- ومن يفعل ذلك يا أبا زبيد ؟ - أبو موسى الاشعري امير البصرة .

فضحك قائلاً : ما سمعت مثل هذا قط .. أرأيت من قبل ان امير البصرة يؤمر الناس ؟ - نعم ، رأيته ، وهو في ساحة الحرب ، يجود على الناس بمراتب القيادة ..

قال : ذلك ما نفعله ونحن في الميادين .. هذا الربيع بن زياد .. لقد جعلناه خليفة لنا ريثما نعود من اصبهان ، فاذا رجعنا ذهبت خلافته ولم يبق له غير

قيادة المقدمة في الجيش الذي يحارب اهل الاهواز ...

ثم قال : قل لي في اي شيء يستحق صاحبك ما ذكرت .

– ان لم يستحق ذلك في اسلامه ، استحقه في احسانه .. وخير لي انتعرف العرب فضل هذا الفارسي ، من ان تعرف ، في حروب العراق فضل بني طيء .

قال : اما الاسلام ، فليس لنا ان نجعل جميع الذين هداهم الله الى الاسلام ، امراء ، واما المروءة والاحسان ، فمروءة واحسان مثلها ، وينقضي الامر ...

قال : لا تردّني يا ابا موسى .

– لا أستطيع الا ان أردّك لان الامر ليس في يدي كما قلت بل في يد امير المؤمنين . – ومن يقول ذلك لأمير المؤمنين ؟

– سعد بن ابي وقاص فهو في المدينة وعمر يسمع له .

– أصبت فسأبعث الى المدينة من يحمل رسالتي اليه .

قال : يحملها غداً من يحمل اخبار الفتح ... اي بلد ترغب فيه ؟

– افكر في الاهواز فهي بلاده ، وقد يخدم فيها الاسلام اكثر مما يخدمه وهو في بلد آخر . ـ ولكنه قال لي ان اهل الاهواز لا وفاء لهم .

ـ متى قال ذلك ؟ ـ قبل ان نزحف الى بيروذ .

ـ اذن فمن الرأي ان يؤمّر على قومه ليجعلهم اهل وفاء ..

ـ لو استطعت لسلطته الليلة على كل شيء ولم أصبر الى الصباح .

قال : متى تعود من اصبهان ؟

ـ من يعلم فقد أعود بعد بضعة عشر يوماً وقد أمكث شهراً .. ان بيروذ ستسقط في أيدي المسلمين وسيتم لكم الفتح فخير لي ان أساعد أبناء قومي في بلد آخر . ـ وهل ترحل غداً ؟ ـ قبل بزوغ الفجر ومعي ثلاثة الاف .

قال : لم يبقَ لي اذن ما أقوله فالى اللقاء .

وقام فخرج وخرج القوم والمنذر يهامسهم قائلاً : لقد رأيت ان أبا موسى لا يريد ان يكون أمراء الأقاليم الا من المسلمين .

فقال ابو زبيد : أما أنا فقد صدقت ان الامر ليس في يده وسننظر فيه بعد

حين . وناموا ليلتهم ، وعندما استفاقوا في صباح اليوم الثاني، كان ابو موسى قد ترك المعسكر يريد اصبهان . وكان الربيع بن زياد على فرسه يطوف بين الخيام .

* * *

استولى الجيش العربي ، بعد بضعة أيام على بيروذ وما حولها ، بقوة السيف ، وقد أصاب من الغنائم ما لم يصب مثله ، الا في مدائن الملوك والامراء .

فلم يشأ الربيع ان يتولى امر القسمة وأبو موسى غير حاضر .

ولكن أبا موسى لم يلبث حتى عاد وهو يحمل أخبار ظفر المسلمين .

فنظر في الغنائم والسبي، ثم قسمه بين الناس ، واختار من القوم بضعة رجال جعلهم وفداً الى المدينة يحملون الخمس الى امير المؤمنين ، فقام رجل من عنزة ، يدعى ضبة بن محصن وقال له : اجعلني في الوفد أيها الامير . قال : لقد كتبنا الآن من هو أحق منك .

فغضب وأخذ يتمتم ألفاظاً عرف القوم بعدها ان الحقد ملأ قلبه .

وكان الحطيئة الشاعر الهجاء ، في الجيش ، فسأل أبا موسى ان يصله .

فأعطاه الفاً وضبة بن محصن يرى ذلك . ثم رأى أبو موسى ، ان هنالك ستين غلاماً لهم فداء ، ففدوا انفسهم وأخذ المال فقسمه بين المسلمين . فخرج ضبة والغضب في وجهه ، وتقدم الوفد الى الحجاز ليشكو أبا موسى .

فكتب ابو موسى الى عمر : ان رجلاً من عنزة يقال له ضبة بن محصن كان من أمره ما كان ، وقصّ عليه قصته .

فلما قدم الكتاب والوفد على عمر قدم العنزي فأتى عمر فسلم عليه .

فقال : من أنت ؟ — فخبّره ، فقال : لا مرحباً ولا أهلاً .

فخرج ، ثم أتاه في اليوم الثاني يقول هذا ويرد عليه هذا .

حتى اذا كان اليوم الرابع دخل عليه ، فقال : ماذا نقمت على أميرك ؟

قال : تنقّى ستين غلاماً من أبناء المرازبة لنفسه . — ثم ماذا ؟

— وله جارية تدعى عقيلة تتغدى جفنة وتتعشى جفنة وليس فينا رجل

يقدر على ذلك .. ـ ثم ماذا ؟

ـ وله قفيزان ! وقد فوض الى زياد بن ابي سفيان أمور البصرة .

ـ وهل بقي شيء ؟ ـ بقي أنه أجاز الحطيئة الشاعر بألف .

فكتب عمر كل ما قال ، ثم بعث الى ابي موسى يدعوه الى المدينة وقال للعنزي : امكث بالبلد حتى يجيء ، وكان ابو زبيد قد كتب الى سعد ، مع رجل من رجال الوفد يسأله ان يستعطف امير المؤمنين على مهاتب .

فمثل سعد بين يدي عمر وقال له : أتريد يا أمير المؤمنين ان يكون لفاتح المدائن رأي ؟ ـ في أي شيء ؟ ـ في رجل توليه امر اقليم من اقاليم فارس.

ـ وهل يكون الرجل من اهلك ؟

ـ بل هو فارسي وانت تعرفه ، أفلا تذكر الرجل الذي أنقذ هنداً الطائية وقد قدم معي المدينة يوم قدمتها أنا ؟

ـ بلى .. أتريد يا سعد ان تؤمّر هذا الفارسي ؟

ـ نعم ، انه من الاهواز وقد فتحها المسلمون فوله أمرها مع رجل مسلم .

قال : لقد فتحها الربيع بن زياد وهذا ابو موسى يقول انه قد ولَّاه .

قال : اجعل مهاتب على الخراج .

فأطرق عمر قليلاً ثم قال : لقد جعلناه عليه وسنوصي بذلك عامل البصرة عندما يقدم المدينة فقد دعوناه الى الحضور . ثم قال : ولكن من يضمن وفاءه ؟

ـ انا وأبو زبيد الطائي .

قال : لقد رضيت وسيمسي صاحبك من الامراء .. اننا نحب ان يعلم القوم في فارس ان العرب لا تنسى المعروف ، ولا تغضّ طرفها عن المحسنين .

فكتب سعد الى ابي زبيد بما جرى وسأله ان يوصي مهاتب بان يكون صادقاً في الخدمة ، وعادلاً في جباية الخراج . وحمل الوفد كتابه الى أمير طيء .

ثم قدم أبو موسى ، فحجبه امير المؤمنين اياماً لا يأذن له في المثول بين يديه.

ثم دعا به ، ودعا ضبة بن محسن ، فدفع الى ابي موسى ما كتبه من اقوال ضبة وقال له : اقرأ ما كتب امير المؤمنين .

فقرأ : أخذ ستين غلاماً لنفسه ! فقال عمر : ما حكاية هؤلا الغلمان ؟
قال : دللت عليهم ، وكان لهم فداء ففدوا انفسهم ، فأخذت المال وقسمته بين المسلمين .. — ماذا تقول يا ضبة ؟ — والله ما كذب ولا كذبت !!
« وهو يعني انه ذكر ستين غلاماً دون زيادة او نقصان !! »
ثم قرأ ابو موسى : وله قفيزان !! « القفيز مكيال » .
فقال عمر : أصحيح هذا ؟
— نعم ، قفيز لاهلي أقوتهم وقفيز للمسلمين في ايديهم يأخذون به ارزاقهم .
فقال ضبة : والله ما كذب ولا كذبت . « وهو يعني انهما اثنان .. »
ثم قرأ : وزياد بن ابي سفيان يلي امور الناس .
فقال عمر : يليها زياد يا أبا موسى ؟ — نعم وجدت له نبلاً ورأيا فأسندت اليه عملي ..
وقرأ : واجاز الحطيئة الشاعر بألف . فقال عمرو : وماذا تقول عن هذا ؟
— فعلت يا أمير المؤمنين .. — وتجيزه بألف ؟
— المال مالي يا أمير المؤمنين وقد سددت فمه به كي لا يشتمني ..
ولما قرأ ما كتبه عمر عن عقيلة ، سكت ابو موسى ولم يعتذر .
فعرف عمر ان ضبة قد صدقه فيما رواه عن الجارية ، فقال لضبـــة : اخرج الان ، ثم قال لابي موسى : اذا قدمت البصرة فأرسل الي زياداً وعقيلة .
قال ، أأعود الى عملي ؟
— أجل ، وقد وليت مهاتب الفارسي صـــاحب بني طيء امور الخراج في الاهواز فادعه اليـــك وأقره على عمله .. اتعرف الرجل ؟
— نعم يا اميرالمؤمنين . — ولك رأي فيه ؟ — رأيي انه اهل لذلك .
قال : اذا رأيت بعد حين ، انك بحاجة الى الربيع بن زياد ، فاجعل مهاتب اميراً في بلاده ، وشأنك بالربيع ..
قال : وليت ابن زياد لشدة جزعه على اخيه المهاجر ، واستبساله في الحرب.
— اذن كان ذلك رحمة وعزاء ... — نعم .

قال : لا توضع الرحمة في مثل هـذا الموضع .. نحّ الربيع واستعمل الاخر وليفتح ابن زياد الفتوح لله فهو من ابطال العرب والسيوف لاتحجب في الاغماد !.

ثم قال لرجال مجلسه : ان ضبة العنزي غضب على أبي موسى فصدق عليه وكذب ، ولكن كذبه أفسد صدقه فإياكم والكذب فانه يهدي الى النار ..

وأمر أبا موسى بالانصراف الى البصرة .

فرجع الرجل من يومه ، وبعث الى امير المؤمنين بجاريته عقيلة ، وزياد بن ابي سفيان فقدمت عقيلة قبل زياد ، فأمرها بالبقـاء في المدينة . ثم قيل له ان زياداً قائم بالباب .

فخرج وزياد قائم بالفناء ينتظر الاذن وعليه ثياب بيض من الكتان . فقال له : ما هذه الثياب يا ابن ابي سفيان ؟ — انها ثياب كتـان كما ترى .

— وكم اثمانها؟ — شيء يسير يا امير المؤمنين،وذكر له الثمن وكان صادقاً.

— وكم عطاؤك ؟ — ألفان .. قال : ما صنعت في اول عطاء خرج لك ؟

قال : اشتريت والدتي فأعتقتها ..! — وفي العطاء الثاني ؟ — اشتريت به ربيبي عبيداً فأعتقته .. قال : أحسنت ..

ثم جعل يسأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيهاً ، فقال : ترجعُ الى البصرة وسنكتب الى امرائها ليستعينوا برأيك ..

وبعد شهر استعمل على البصرة ، عمر بن سراقة المخزومي، وصرف اباموسى الى الكوفة ، ثم رده على البصرة ومات عمر ، وهو عليها .

٢٧

عندما انتهى أبو موسى الاشعري الى مقر ولايته، دعا أبا زبيد الطائي وقال له : لقد نظر امير المؤمنين الى المحسن اليك وجعله من الامراء .

فدمعت عينا الرجل الوفي ، المعترف بالجميل وجعل يقول : اطـال الله بقاء

امير المؤمنين ، وفي اي بلد امارته ؟
– في الاهواز وكان قد ولاه امر الخراج ثم رأى بعد ذلك ان يجعله عاملاً له.
قال : ذلك فضلك أيها الامير وفضل سعد . – أما انا فلم يكن لي رأي في هذا ولكني وصفت الرجل لامير المؤمنين .. اين هو الآن .
– في منزله وسأدعوه الساعة .
ثم أقبل مهاتب والمنذر وعبدالله وشراحيل وكل الجماعة ، فقال ابو موسى: لم يبقَ لك يا أبا بهرام ان تقيم بالبصرة يوماً واحداً !
ولم يكن مهاتب يعرف شيئاً مما جرى ، ولم يكن القوم يعلمون في أي امر دعاهم الامير الى مجلسه . ان أبا زبيد لم يقل لهم كلمة . فقال مهاتب : واين أقيم اذن ؟ فأيقن ابو موسى بأن ابا زبيد لم يحدثه بالامر فقال وقد طاب له المزاح : أقم حيث تشاء فأرض الله واسعة والعراق كله للمسلمين .
– ولكني لا أعلم لماذا لا استطيع الاقامة بالبصرة !
– لان امير المؤمنين يريد ان ترحل عنها . قال : أتهزأ بي ايها الامير ؟
– ليس في هذا الكلام شيء مما تقول .
فجعل ينظر الى القوم ، وقد ظهر الاستغراب على وجهه ووجوههم ، وقام في ذهنه ، ان هنالك سعاية به قام بها احد خصومه وهو لا يعرف خصماً له .
وأبو زبيد ساكت وقد بدا من سكوته انه يريد ان يماشي أبا موسى في عبثه ..! ثم قال مهاتب : لقد دخلت في الاسلام وانا مؤمن باني انتقلت من الظلمة الى النور ، ولم يخطر لي اني سألقى الان ما لقيته ، وانا بريء ..
قال : يكفي ان الاسلام فتح لك ذراعيه ..
– ولكن رجاله يبعدونني عن البلد الذي أقمت به دون ان اعلم الذنب الذي اقترفت . قال : قد يكون البلد الذي تنتقل اليه خيراً لك من البصرة .
قال : انك تأمرني بالرحيل وانت لا تذكر لي بلداً .
– اي البلاد أحب اليك غير البصرة ؟
– لقد أمست البصرة وطناً لي ، بعد الاهواز ، وفيها بنو عبس وصهري

منهم ، وفيها بنو طيء وتغلب والنمر وهؤلاء حلفائي !
قال : يستطيع هؤلاء ان يرحلوا معك اذ طاب لهم الرحيل .
– واذا أبوا ؟ – تسير وحدك فاختر انت البلد الذي تؤثره على سواه .
فقال ابو زبيد وقد جاء دوره : اختاره أنا باسمه ...
قال : أترضى بذلك يا أبا بهرام؟ – نعم . – اذن سمّ البلد يا أبا زبيد.
قال : الاهواز . قال : لقد اذنت له في الرحيل اليها .
– ولي شرط آخر ايها الامير .
– ما هو ؟ – هو ان تأذن لنا جميعاً بالرحيل معه .
– وتتركون البصرة وهي مجتمع القوم ؟
– أجل فنحن لا نطيق أن يكون مهاتب بعيداً عن القوم الذين احبوه ..
– واذا احتاج امير المؤمنين الى سيوفكم ؟
– ستكون سيوفنا في الاهواز ، كما هي في البصرة ، كلنا فداء امير المؤمنين .
قال : رضيت بهذا ايضاً فهل بقي شيء ؟
– بقي أن أسألك سؤالاً ارجو ان تقضيه لي . – سأفعل اذا قدرت.
قال : ألا ترى ان مهاتب من أصحاب الشأن في العرب؟ – بلى ...
– وهل تعترف بان له فضلا على بعض العشائر ونحن منها ؟
– اعترف بذلك .
– اذن اؤثر ان يعود الرجل الى بلاده وهو أمير ، فيرى القوم فضل الاسلام على ان يعود وهو مثل جميع الناس . – وماذا تعني بقولك ؟
– أعني ان الاسلام الذي يكافىء المخلصين له ، يجب ان يجعل الرجل سيداً لبلاده . قال : أتطمع يا مهاتب بأن يؤمرك امير المؤمنين ؟
قال : أطمع بشيء واحد هو ان أعيش آمناً بين القوم الذين آثرتهم على أهل فارس . – وان يكون لك ما لهم وعليك ما عليهم . – أجل .
– ولكن أمير المؤمنين لم يشأ الا ان يجعل ما هو لك ، اكثر مما هو لهم ...
– وكيف ذلك ؟

ـ لقد جعلك امير الاهواز ، اعترافاً بمروءتك ، وأمرني بان اسلـّم اليك هذه الامارة يوم أقدم البصرة .. أراض أنت ؟

فبكى الرجل من فرحه وقال : حفظ الله حياة امـير المؤمنين فهو لا ينسى عبداً من عبيده ، ثم قـال : أترى امير المؤمنين يمنُّ عليّ بالامارة ، ويأبى ان يقضي لي حاجة اخرى . قال : اذكر حاجتك .

ـ أرجو ان يأذن لأبي زبيد ومن معه في الذهاب الى الأهواز ، ريثما تخمد نار الحرب في فارس ، فيعود كل رجل الى بلاده .

قال : هذا أمر يفعله أبو موسى ولا يحتـاج فيه الى امير المؤمنين ، أتسير الى الاهواز يا أبا زبيد ؟

ـ بل أسير الى الصين اذا كان مهاتب فيها ! اني ما نسيت فضله ويطيب لي ان أقضي العمر كله وهو يراني وأنا أراه !..

ـ وأنت يا عبدالله ؟ ـ أفعل ما يفعله ابو زبيد .

وهكذا قال المنذر وشراحيل .

قال : اكتبوا لي عهداً انكم آثرتم اللحـاق بجيش الاهواز ، على البقـاء في البصرة . فقال ابو زبيد : وهل تريد ان تبعث بهذا العهد الى عمر .

ـ بل احتفظ به الى اليوم الذي يسألني فيه ، عنك وعن القوم .

قال : ما أظن ان هذا السؤال يخطر له ..

فهزّ رأسه قائلاً : ان الامير الذي لا يغفل عن جمـل من جمال العرب ، لا يغفل عن رجل من رجالها ..! اكتب ما امليه عليك ..

فكتب الطائي العهد الذي أراده أبو موسى ، ونهضوا جميعهم فودّعوه ، على ان يرحلوا قبل بزوغ الفجر .

وكان ابو موسى يقول : الاسلام يا أبا بهرام أو الجزية .. هذا ما يجب ان تصنعه بين عشائر الاهواز ..

فوقف قائلا: لي ايها الامير حاجة اخرى أسألك قضاءها، قبل ان أنصرف.

ـ ما هي ؟

ـ هي ان ينسى الامير وينسى الناس ، اسم مهاتب ، ويختاروا لي اسماً آخر.
ـ من اسماء العرب ؟ ـ نعم ، من أسماء العرب الذين أحببت .
قال : اختر انت اسمك . قال : عبدالله !! ـ عبدالله ابو بهرام ام ماذا ؟
ـ بل عبدالله ابو عمر !! ـ وماذا يدعى ولدك الآخر ؟
ـ يدعى سعداً .. فقال : اذهب اذن والى اللقاء يا أبا عمر ..
فضحك القوم ، وانصرفوا وهم يقولون : لقد كافأك الله يا عبـدالله .. والله يكافىء المحسنين .

وعرفت ام زبيد ، وهند ، وكبشة والزهراء ، وبشتاسب وصفية ما جرى في ذلك الليل ، فطابت أنفسهن وبتن يتحدثن حتى بزغ الفجر .
وخرج موكب القوم عند الفجر ، يتقدمه الامير عبدالله الفارسي أمير الاهواز. وكأنهم جميعهم من حاشيته وأركان حربه ..

٢٨

خضعت الاهواز كلها ، الا ناحية من نواحي الشمال الشرقي ، كانت تحمل لواء الثورة . وكان عمر بن الخطاب ، اذا اجتمع اليه جيش من اهل الايمـان ، أمَّر عليهم رجلاً من اهل العلم والفقه .
فاجتمع اليه في ذلك الزمن ، جيش في المدينة ، هو خليط من عشائر العرب . فأمَّر عليه ، سلمة بن قيس الاشجعي وقال له :

« سر باسم الله ، وقاتل في سبيـل الله ، من كفر بالله ، فاذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم الا الاسلام ، فان أسلموا فاختاروا دارهم ، فعليهم في أموالهم الزكاة وليس لهم في فيء المسلمين نصيب ، وان اختاروا ان يكونوا معكم ، فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم ، فان أبوا فادعوهم الى الخراج ، فان أقرّوا بالخراج فقاتلوا عدوّهم ولا تكلفوهم فوق طاقتهم ، فان أبوا ، فقاتلوهم

فان الله ناصركم عليهم، فان تحصنوا منكم في حصن ثم سألوكم ان ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله فلا تنزلوهم على حكم الله فانكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم، وان سألوكم ان ينزلوا على ذمة الله ورسوله فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله واعطوهم ذمم أنفسكم، فان قاتلوكم، فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً».

فخرج سلمة وهو يقول لأصحابه: ليس في فارس كلها بلد يحمل لواء العصيان.

قالوا: بلى، ان هذا البلد في الاهواز.

فزحف اليه «وعبدالله أبو عمر» سيد الاهواز، يهمّ بارسال جيشه.

فلما عرف ان سلمة سيخضع القوم، عدل عن ذلك، وأيقن بأن الرجل سيخمد النار ويمزق علم العصيان.

وسار سلمة فلقي عدوّه، فدعاهم الى ما أمر به أمير المؤمنين، فأبوا ان يسلموا. فدعاهم الى الخراج، فأبوا ان يقرّوا، فقاتلهم، فنصره الله، وسبى سلمة ما طاب له السبي.. فلما أراد ان يقسم الغنائم، رأى حلية فيها اللؤلؤ والجوهر، فقال: أتطيب أنفسكم ان نبعث بهذه الحلية الى أمير المؤمنين؟

قالوا: نعم. فجعل الحلية في سفط ثم قال لرجل من قومه:

اركب بها، فاذا أتيت البصرة فاشتر راحلتين فأوقرهما زاداً لك ولغلامك ثم سر الى امير المؤمنين.

ففعل الرجل، وأتى المدينة، وأمير المؤمنين يغدي الناس وهو متكىء على عصاه كما يصنع الراعي، ويدور على القصاع ويقول لغلامه:

يا يرفأ، زد هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزاً.. زد هؤلاء مرقاً، ونظر فرأى الرجل فقال له: اجلس، فجلس في أدنى الناس، فاذا طعام فيه خشونة، طعامه الذي معه أطيب منه.

ثم فرغ الناس، فقال: يا يرفأ ارفع قصاعك.

ومشى يريد منزله، فاتبعه حتى أتى داراً فدخلها، ثم دخل حجرة فيها.

فاستأذن فأذن له، فدخل فاذا هو جالس على مسح متكىء على وسادتين من جلد محشوتين ليفاً.

فرمى اليه باحداهما فجلس عليها . وكان هنالك بهو على احد ابوابــه ستر ، فقال عمر : يا ام كلثوم غداءنا .

«ام كلثوم زوجة عمر وهي ابنة علي بن ابي طالب» .

فأخرجت اليه خبزة بزيت ، عليها ملح لم يدقّ ... فقال : يا ام كلثوم ، ألا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا ؟ قالت ؟ اني اسمع عندك حس رجل .

قال : نعم ولا اراه من اهل البلد ، ثم قال للرجل :

كل ، فلو كانت راضية لاطعمتك اطيب من هذا .

فأكل قليلاً ، وأكل عمر ثم شرب وقال : الحمدلله الذي اطعمنا فأشبعنـــا وسقانا فأروانا. فقال الرسول: لقد اكل امير المؤمنين فشبع وشرب فروي،فهل اذكر له حاجتي ؟ ـ ما حاجتك ؟ ـ أنا رسول سلمة بن قيس .

ـ مرحبا بسلمة بن قيس ورسوله ، حدثني عن القوم كيف هم .

ـ هم كما تحب يا امير المؤمنين من السلامة والظفر . قال : حدثني.

قال : سرنا حتى لقينا عدونا فدعوناهم الى ما امرتنا به ، فأبوا فـدعوناهم الى الخراج فأبوا ، فقاتلناهم فنصرنا الله وجمعنا الغنائم ، فرأى سلمة حلية فقـــال للناس : سأبعث بهذه الحلية الى امير المؤمنين .

وفتح الرجل سفطه واخرج حليته .

فلما نظر عمر الى الجواهر ما بين حمراء وصفراء وخضراء ، وثب ، ثم جعل يده على خاصرته وقال : لا أشبع الله إذاً بطن عمر .

فظن النساء ، وراء الستر ، ان الرجل يريد ان يغتاله .

فأقبلن على الستر يصغين الى ما يقال . ثم قال عمر : يا يرفأ ، اضرب الرجل.

فجعل يضربه ، وهو يصلح سفطه ويقول : عفوك يا امير المؤمنين .

فأمر غلامه بان يكفّ عن ضربه ثم قال له : امــا والله لئن تفرّق المسلمون في مشاتيهم قبل ان يقسم هذا فيهم ، لأفعلنّ بك وبصاحبك سلمة بن قيس ، ما افعلنّ ... قال : لقد ضعفت راحلتي فلا اقدر على الرجوع ..

قال : نعطيك راحلتين من إبل الصدقة ، ولكن اذا رأيت أحداً أفقر اليهما

منك ، فادفعها اليه !!..   ـ سأفعل يا أمير المؤمنين .

ثم قام فارتحل حتى اتى سلمة فقال له : ما بارك الله لي فيما اختصصتني به ..

قال ماذا جرى ؟ قال : اقسم هذه اللآلىء في الناس قبل ان يصيبني واياك ما لا نحبّ ، ثم أقص عليك ما جرى .

فقسمها سلمة فكانت الواحدة تباع بخمسة دراهم ، وقيمتها عشرون الفاً ، حتى لم يبقَ منها شيء .

وقصّ الرسول عندئذ ما سمعه من أمير المؤمنين وسلمة يقول لرجاله : ليس في الدنيا زهدٌ أبلغ من زهد عمر .

وانتهت الى العراق والحجاز ، في ذلك العام ، اخبار غزو معاوية بن ابي سفيان ، جيوش الروم في عسقلان ، وفتح عسقلان صلحاً ، ولم يغزُ المسلمون بعد فتحها ، بلداً آخر في ايام عمر بن الخطاب ...

٢٩

صفا الجوّ ، في العراق وفارس والشام ، بضعة اشهر في ذلك العام ، الا جولات تجولها الخيل في السهول ، لا تحسب فتحاً .

وقد سادت العدالة جميع الشعوب التي غلبت على أمرها ، لا يخطو عامل من عمّالها خطوة واحدة الا بأمر أمير المؤمنين .

وكان مهاتب الفارسي ، في الاهواز ، مثل اولئك الامراء المسلمين ، أهل الصحابة والانصار ، الذين تحدّث الناس بعدلهم وزهدهم ، في كل زمان ومكان .

يضع الرحمة في موضعها والسيف في موضعه ، ويدعو أهل الأهواز الى الدخول في الاسلام الذي دخل فيه ، والقوم يصغون الى ما يقوله ، ويلجأون ، افراداً وجماعات ، الى العلم الاسلامي الخفاق ، في كل فضاء .

حتى بسط السلام جناحيه فوق ذلك القطر الواسع ، وانصرف الناس الى

أعمالهم وهم يحمدون الله على مـا خصّهم به من نعمة لم يعرفوا مثلها في ايام ملوك الفرس .

وكان ابو زبيد ومن معه ، ينزلون منازل تجاور دار مهاتب وقـد طابت لهم الاقامة بالاهواز ، وسرّهم ان يروا منقذ هند ، في مقعد إمارته ، ينشر ظـل عدله ، ويقوم ، بكل نبالة ووفاء ، بما عهد اليه فيه .

ولكنهم لا يستطيعون ان يمكثوا زمانهم كله بالاهواز ، بل لا يستطيعون ان يقضوا العمر في ساحات القتال .

لقد هجروا منازلهم اعواماً حملوا فيها السيف ، وشاركوا قومهم في بنـاء ذلك المجد الراسخ رسوخ الجبال ، فلم يبق لهم ، الا ان يستأذنوا في الرجوع .

وكانت ليلة اجتمعوا فيها ، في مجلس « الامير الفارسي » ، فقـال ابو زبيد : لقد أتت الساعة التي نترك فيها الاهواز ايها الامير . قال : الى اين ؟

ـ انا الى طيء ، وعبدالله الى تغلب ، والمنذر الى منـازل النمر ، ويبقى شراحيل في الاهواز ما طاب له البقاء . قال : ذلك هو الهجر يا أبا زبيد ..

قال : لا ، ولكن في النفوس شوق الى الربوع ، التي لبست السواد على مـن قتل من رجالها في حروب العراق . ـ وترضى بأن تبتعد هند عن عينيك ؟

ـ أرضى بأن يعود المنذر الى ديار قومه فيمكث بها زمناً ثم ينتقل الى ديار طيء لقضاء ما يبقى من العام . ـ أي أنه سيفعل ذلك كل سنة .

ـ أجل ، حتى يمرّ هذا العمر ويتفرق الشمل . ـ اما انا فلا ارضى بهذا !

ـ وماذا تريد ان نصنع ؟

ـ تنصرفون اليوم الى بلاد قومكم، ثم تجيئون الى الاهواز كل شتاء ، كما كنت تجيء الى الحيرة . ـ ولكن الاهواز بعيدة كما ترى .

قال : الشوق يمحو البعد ويقرّب البلاد .. لو لم أكن عاملا لأمير المؤمنـين لقضيت الحياة في منازل النمر وتغلب وطيء حتى تأتي ساعتي .

ـ ماذا تقول يا عبدالله ؟ ـ قال أعد بأني سأفعل ان لم أخرج الى حرب .

فقال المنذر : اما انا فلا أخرج الى حرب الا اذا كانت تغلب وطيء بـين

الصفوف . فقال مهاتب : لقد رضيت الآن ولكن بقي ان نستأذن اميرالمؤمنين.

ـ أليس لك ان تستأذن ابا موسى ؟

قال : والله لا أفعل أمراً الا اذا شاورت فيه امير المؤمنين نفسه .

فقال أبو زبيد : إذن كتب لنا ان نمكث شهرين آخرين ..

ـ أجل ، ولا تنقل من الاهواز قدماً الا بعد ان ينتهي اليّ امر عمر .

وجعل القوم ينظرون في أمر الرجل الذي يحملونه رسولهم حتى اختاروه . فكتب مهاتب كتابه ، وبعثه معه في صباح اليوم الثاني ، الى عاصمة الخلافة في الحجاز ، وأوصاه بان ينقل الى عمر ، أخبار دخول الاهواز ، في الاسلام .

وأقام القوم ينتظرونه حتى عاد ، وهو يحمل الاذن .

فخرجوا عندئذ يريدون منازلهم وقد تعاهدوا على اللقاء ، وكانوا يجتمعون ، كما وعدوا ، في كل عام .

٣٠

من الرأي ، ان نذكر لك بصورة عامة ، بعض صفات عمر بن الخطاب — أول حاكم « ديموقراطي » في الاسلام ، قبل ان يسدل الستار على ما قرأت .

وصفات عمر ، درسٌ لكل ملك وحاكم وفيلسوف وأديب ، بل هي درس، لكل رجل ، من كل مذهب وكل جنس .

انها صفات الانسان الحقيقي الذي يعرف ما هي حياته .. انها صفات الملوك الأطهار ، والرجال الأبرار الصالحين .

اقوال رسول الله وعلي :

نورد لك الآن أقوال النبي العظيم ، وعلي بن ابي طالب في عمر . قال النبي : « عمر بن الخطاب سراج اهل الجنة »

وقال : « ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به »
« عمر بن الخطاب معي حيث أحب وأنا معه حيث يحب الحق بعدي مع عمر ابن الخطاب حيث كان » « أشد أمتي في أمر الله عمر »
« اتقوا غضب عمر فان الله يغضب اذا غضب »
« لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب !! الى غير ذلك من الأقوال » .
وقال رجل من قريش لعلي بن أبي طالب وهو خليفة :
نسمعك تقول في الخطبة : اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهتدين ، فمن هم ؟
فاغرورقت عيناه ثم قال : هم حبيباي وعماك ابو بكر وعمر إماما الهدى وشيخا الاسلام ، ورجلا قريش ، والمقتدى بهما بعد رسول الله . من اقتدى بهما عصم ومن اتبع آثارهما هدي الى صراط مستقيم ومن تمسك بهما فهو من حزب الله وحزب الله هم المفلحون .
وسمع رجل علياً يقول : ان الله عز وجل جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة ..
ودخل سويد بن غفلة على علي في امارته فقال :
يا أمير المؤمنين، اني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذي هما اهل له من الاسلام .. فنهض عليّ الى المنبر وهو قابض على يده وقال :
والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ، لا يحبهما الا مؤمن فاضل ، ولا يبغضهما ويخالفهما الا شقي مارق ، ما بال أقوام يذكرون أخوي رسول الله ووزيريه وصاحبيه ، وسيديّ قريش وأبوي المسلمين ! اني بريء ممن يذكرهما بسوء ..
وقال : خير هذه الامة بعد نبيها ابو بكر ، وبعد أبي بكر عمر .

فضل عمر :

هو أول من كتب التاريخ ، كما قرأت ، كتبه في شهر ربيع الاول في السنة السادسة عشرة. وأول من جمع القرآن في الصحف . وأول من سن قيام رمضان ،

وأول من عسّ في عمله بالمدينة ، وحمل الدرة وأدّب بها ، وقد قيل بعده : لدرة عمر أهيب من سيفكم .

وهو أول من فتح الفتوح ، فتح العراق كله، السواد والجبال، وأرض فارس، والشام ، والجزيرة ، والموصل ، والاسكندرية ، ومصر .

وأول من مسح السواد والجبل، ووضع الخراج على الارض والجزية على جماجم اهل الذمة فيما فتح من الأقطار .

وضع على الغني ثمانية وأربعين درهماً ، وعلى من دونه أربعة وعشرين ، وعلى الفقير اثني عشر ، وكان يقول : لا يعوز الرجل منهم درهم في الشهر .

وأول من خط البصرة والكوفة ، ومصّر البلدان وأنزلها العرب .

وأول من استقضى القضاة في الأمصار ، ودوّن الدواوين ، وكتب النـاس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من الغنائم .

وأول من حمل الطعام من مصر على السفن في البحر .

اهتمامه بأمور المسلمين :

لما سمع النـاس قول عمر ورأوا عمله ، وهو يمشي في الاسواق ، ويطوف في الاحياء ويقضي بين النـــاس ويتعهد الفقير وهو في بيته ذكروا النبي وأبا بكر وقالوا : كان النبي أعلم بأبي بكر ، وكان أبو بكر أعلم بعمر وقام في أذهانهم ان العيش ستتسع لهم أسبابه بفضل عمر ، وان كانوا في فقر ..!

قال زيد بن أسلم عن أبيه : خرجنـا مع عمر بن الخطاب الى « حرّة واقم » فرأينا ناراً، فقال: يا أسلم اني لأرى هنا ركباً قد ضربهم الليل والبرد، انطلق بنا.

فخرجنا حتى دنونا من موضع النــار فاذا بامرأة معها صبيان صغار وقدر منصوبة على نار والصبيان يتضاغون .. « يصيحون من الجوع » .

فقال : السلام عليكم يا أصحاب الضوء . فقالت : وعليك السلام .

قال : ما بالكم ؟ — لقد ضربنا البرد والليل .

— وما بال الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع ..

– وأي شيء في هذه القدر ؟

– ما أسكتهم به حتى يناموا .. والله بيننا وبين عمر بن الخطاب !!..

وهي لا تعرف عمر . فقال : رحمك الله ومن أين يعلم عمر ما أنتم فيه ؟

قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ..

فوضع يده على جبينه وقال لأسلم : اتبعني .

فتبعه حتى أتيا بيت الدقيق « الطحين » فأخرج عدلاً منه وشيئاً من الشحم ثم قال : اجعل هذا العدل على ظهري !! فقال : أنا أحمله عنك .

فهز رأسه قائلاً : وانت تحمل خطيئتي يوم الدين ؟

ثم حمله وانطلق الاثنـــان الى المرأة فألقى حمله ثم أخرج من الدقيق شيئاً ووضعه في القدر وجعل يقول : ضعي الدقيق شيئاً فشيئاً .

وبدأ ينفخ تحت القدر حتى طبخ لهم ثم أعطاهم فجعلوا يأكلون حتى شبعوا، وترك عندها ما بقي من دقيقه ، ثم قام يريد الانصراف .

فقالت المرأة : جزاك الله خيراً .. كان امير المؤمنين اولى بهذا الأمر منك .

قال : قولي خيراً .. انك اذا اتيت امير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله.

ثم انصرف فجلس في موضع لا تراه فيه ، فقال أسلم :

ماذا تصنع يا أمير المؤمنين ألك شأن غير هذا ؟

فلم يجب ، وبات ساكتاً حتى نام الصبيان ، فقال : قم الآن ، ان الجوع قـد أسهرهم وأبكاهم فأحببت ان لا أنصرف حتى أرى ما رأيت ..

هذه واحدة من ألف ، جاد بها عمر بن الخطاب ، على الانسانية المتألمة .. ولم يشأ الا ان يكون معظم رجاله من هذا الصف .

لقد جاء في تاريخه : انه جعل اربعمائة دينار في صرّة ثم قال لغلامه :

اذهب بهـا الى ابي عبيدة بن الجراح ثم تلهى في البيت ساعـة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب الغلام وقال لأبي عبيدة : يقول لك امير المؤمنين ، اجعل هـذه في بعض حاجاتك .

فقال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالي يا جارية ، اذهبي بهـذه السبعة الى

فلان ، وبهذه الخمسة الى فلان ، حتى أنفذها جميعها ولم يبقَ منها دينار .

فرجع الغلام الى عمر فخبّره ، وكان قد عدّ مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال اذهب بهذه الى معاذ وافعل ما فعلته عند ابي عبيدة.

فذهب بها اليه وقال له : يريد امير المؤمنين ان تجعل هذه في بعض حاجاتك فقـــال :

رحم الله امير المؤمنين ووصله ، تعالي يا جارية ، اذهبي الى بيت فلان بكذا والى بيت فلان بكذا ، حتى لم يبق في الصرة غير دينارين .

فجاءت امرأته فقالت : ونحن والله مساكين فاعطنا .

فرمى اليها بالدينارين وهو يقول : خذيها فهما يكفيان ..

وعندما خبّر الغلام عمر ، ابتسم قائلاً : لم اكن مخطئاً اذ اخترت مثل هذين.

وقيل ، بينما عمر نائم في المسجد وقد وضع رداءه مملوءاً حصى تحت رأسه اذا هاتف يهتف : يا عمراه ، يا عمراه .

فانتبه مذعوراً ومشى الى ناحية الصوت فاذا اعرابي ممسك بخطام بعير والناس حوله ، فلما أقبل الى عمر ، قال له الناس : هذا أمير المؤمنين .

فقال عمر : من ظلمك ايها الرجل ؟

قال : اني من اليمن وان فيها الجدب والفقر .

ثم أنشأ يقول أبياتاً يذكر فيها الحاجة . فوضع عمر يده على رأسه ثم صاح : أتدرون ما يقول ؟.. ان عمر يشبع ويروى والمسلمون في جدب وذلّ مـن ذا الذي يوصل اليهم ما يحتاجون اليه من المال والتمر ؟

ونهض لساعته فوجّه رجلين من الانصار معهما إبل كثيرة عليها انواع الطعام فدخلا اليمن وقسما ما كان معهما .

نصر بن حجاج :

خرج عمر في احدى الليالي يطوف في المدينة ، فاذا امرأة تقول :

هل من سبيل الى خمر فأشربها   ام هل سبيل الى نصر بن حجاج

فقال لمن معه :

لا اطيق ان أرى في المدينة رجلاً تهتف به النساء في خدورهنّ.. عليَّ بنصر ابن حجاج .

فأتي به ، فاذا هو أحسن الناس شعراً وأصبحهم وجهاً .

فأمر فجزَّ شعره فخرجت وجنتاه كأنهما شقتا قمر ، فقال : ضع العمامة على رأسك ، فوضعها ، فافتتن الناس ، فقال عمر عندئذ: لا تساكنّي ببلد انا فيه .!

قال : ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين ؟

قال : هو ما قلت . ثم سيَّره الى البصرة .

فخشيت المرأة التي سمع عمر منها ما سمع، ان يبدر منه اليها شيء ، فأرسلت اليه ابياتاً تقول فيها :

قل للامام الذي تخشى بوادره	مالي وللخمر أو نصر بن حجاج
لا تجعل الظن اثماً او تبيّنه	ان السبيل سبيل الخائف الراجي
ان الهوى زمّه التقوى فقيَّده	حتى أقرّ بالجـــام وإسراج

فبعث اليها عمر :

قد بلغني عنك خبر واني لم اخرجه من اجلك ، ثم بكى قائلاً : الحمد لله الذي قيد الهوى . وطال مكث نصر بالبصرة .

فخرجت امه يوماً الى سوق المدينة ، فاذا عمر قــد خرج في إزار ورداء ، وبيده الدرة ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ، والله لأقفنّ انا وانت بين يــدي الله عزّ وجلّ وليحاسبنك الله . ثم قالت : يبيت ولداك عبدالله وعاصم الى جنبك، وبيني وبين ابني الجبال والفيافي والاودية ؟ فقــال : ان ولدي عمر لم تهتف بهما النساء في خدورهنّ . فحاولت ان تستعطفه فلم يعطف .

ثم ان عمر كتب الى ابي موسى ، عامله بالبصرة ، كتبــاً . فمكث الرسول عنده اياماً ، ثم قام منادي ابي موسى ينادي :

ان بريد المسلمين يريد ان يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب .

فكتب نصر بن حجاج كتاباً الى عمر دسّه في الكتب ، وقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر امير المؤمنين ، سلام عليك اما بعدُ :

لعمري لقد سيّرتني وحرمتني وما نلت من عرضي عليك حرام
فأصبحت منفياً على غير ريبة وقد كان لي بالمكتين مقـــام
أإن غنّت الدلفـــاء يوماً بمنية وبعض امـــانيّ النساء غرام
ظننت بي الظن الذي ليس بعده بقاء فما لي في البـــديّ كلام
سيمنعني ممـــا تظنّ تكرّمي وآباء صـدق سالفون كرامُ
ويمنعها مما تمنّت صلاتهـــا وحال لها في قومها وصيام

فلما قرأ عمر الكتاب ، قال : لايرجع الى المدينة ولي فيها سلطان ..!!!
ثم اقطعه بالبصرة مالاً وداراً ، ولم يعد الى الحجاز ، الا بعد موت عمر !!

عدل عمر :

كان عمر يقول : والله لقد لان قلبي في الله حتى هو ألين من الزبد ، ولقـد اشتد في الله حتى لهو أشدّ من الحجر .

وكان اذا اتاه الخصمان برك على ركبتيه وقال : اللهم أعنّي عليهما فـــان كل واحد منهما يريدني على ديني . وخطب يوماً فقال : ايها الناس ، انما نعرفكم بمـا نقول لكم ، من أظهر منكم خيراً ظننا به خيراً واحببناه عليـه ، ومن اظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه ، سرائركم بينكم وبـــين ربكم ، واني والله ما ارسل عمالي ليأخذوا اموالكم ويظلموكم ولكن ارسلتهم ليعلمـــوكم دينكم وسنتكم فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه الي فوالله لاعاقبن الولاة على جميـع ما يصنعون .

فوثب عمرو بن العاص فقال : أتعاقب الوالي اذا أدّب بعض رعيته ؟

– بل أعاقبه اذا جاوز حدّه .

أجل ، كان عمر يضع عدله في عماله ، كما كان يضعه في رعيته .

خذ لك مثلاً من هذا :

كان مع ابي موسى الاشعري، في حروبه، رجل ذو صوت ونكاية في عدوه،

فغنموا مغنماً في أحد الميادين فحاول أبو موسى ان يعطيه بعض نصيبه ، فأبى الرجل ان يقبله ناقصاً .

فعدّ الوالي عمله عصياناً وأمر بجلده عشرين سوطاً وحلق شعر رأسه .

فجمع الرجل شعره ، وترحل الى عمر بن الخطاب .

فلما قدم عليه أدخل يده الى كمه فاستخرج شعرة وضرب به صدر عمر وهو يقول : أما والله لولا ... وسكت .. فقال عمر : صدق انه يقول لولا النار ..

ثم قال الرجل: لقد ضربني أبو موسى عشرين سوطاً، وحلق رأسي وهو يرى انه لا يعاقب ، وخبّره بأمره ، فكتب عمر الى أبي موسى :

سلام عليك ، امـا بعد فان فلاناً خبرني أنك ضربته عشرين سوطاً وحلقت شعر رأسه لأنه أبى الا ان يأخذ سهمه كله من الغنيمة، فان كنت فعلت ذلك في ملإ من الناس فاقعد له في ملإ من النـاس حتى يقتص منك !! وان كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس فاقعد له في خلاء من الناس حتى يقتص منك !!

فقدم الرجل البصرة وقد عرف القوم انه سيقتص من ابي موسى .

فقالوا له : اعف عنه . قال : لا والله .

فلما قدم ابو موسى ليقتص منـه رفع الرجل رأسه الى السماء ثم قال : اللهمّ قد عفوت عنه ..

ويذكرون لك حادثاً آخر جرى لعمرو بن العاص ، قالوا : قال : عمرو بن العاص لأحد الرجال : يا منافق !

فقال الرجل : ما نافقت منذ أسلمت ، واني لا أغسل رأسي ولا أدهنه حتى آتي عمر بن الخطاب ، ثم أتى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ان عمر نفّقني ولا والله ما نافقت منذ أسلمت .

فكتب الى ابن العاص : اما بعد فان فلانـاً ذكر لي أنك نفّقته ، واني قد أمرته ، ان أقام عليك شاهدين ان يضربك اربعين او سبعين .

وحمل الرجل الكتاب الى عمرو ثم وجد في القوم من يشهد له عليه ، فقال له رجـاله : أتريد ان تضرب الامير ؟ قال : نعم ، ولو ملأ لي المسجد مالاً ما رضيت الا بهذا .

فلما سمع عمرو بن العاص قوله ، قال : اتركوه واعطوه السوط .. ثم جلس بين يديه . فقال الرجل : أتقدر ان تمتنع مني بسلطانك ؟

– لا فامضِ في امرك .. قال : اني أعفو عنك وأدعك لله !!..

وهذه حادثة اخرى جرت لمحمد بن عمرو بن العاص :

قال انس بن مالك : كنا عند عمر بن الخطاب اذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ؟ قال : ماذا ؟

قال : أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر ، فأقبلت فرس لي في الطليعة ، فلما رآها الناس ، قام محمد بن عمرو فقال : هذه فرسي ورب الكعبة .

ولكنها عندما دنت مني عرفتها فقلت : فرسي ورب الكعبة ، فقام يضربني بالسوط ويقول : خذها وانا ابن الأكرمين .. فقال عمر : اجلس ..

ثم كتب الى ابن العاص : اذا جاءك كتابي فاقبل وليجيء معك ابنك محمد .

وانتهى الكتاب الى عمرو في مصر فدعا ابنه فقال له : أأحدثت حدثاً ام جنيت جناية ؟ قال : لا . – وما بال عمر يكتب فيك ؟ - لا أعلم .

اذن تهيأ للرحيل الى الحجاز عند الصباح .

قال انس: فوالله انـّا لعند امير المؤمنين، اذ نحن بعمرو بن العاص قد اقبل في ازار ورداء .

فجعل ابن الخطاب يلتفت هل يرى ابنه فاذا هو خلف أبيه ، فقال : أين المصري ؟ فدنا الرجل قائلا : ها أناذا .

قال : دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين ، اضرب بها ابن الاكرمين اضرب بها ابن الاكرمين ..! قالها ثلاث مرات .

فتناولها المصري وضربه حتى اثخنه ، وعمر يقول : أما والله لو ضربت عمراً لما حلنا بينك وبينه حتى تكون انت الذي تدعه .

ثم قال : انصرف الآن راشداً الى بلدك فان رابك ريب فاكتب اليّ .

ذلك ما كان يفعله امير المؤمنين .. يدعو عامله من مصر الى الحجاز ليؤدبه او يؤدب ابنه على مرأى ومسمع من القوم ويقول لهم : لا يمنعني مقام او سلطان

من ان أضع العدل في موضعه ..

حذره من المظالم :

قال الاحنف بن قيس : وفدنا الى عمر بفتح عظيم فقال لنا : اين نزلتم ؟ قلت في مكان كذا .

فقام معي حتى انتهينا الى مناخ الركائب فجعل يتخللها ببصره ويقول :

الا اتقيتم الله في ركائبكم هذه ؟ الا علمتم ان لها عليكم حقاً ؟ الا خليتم عنها فأكلت من نبت الارض ، فقلنا :

يا أمير المؤمنين انـّا قدمنا بفتح عظيم فأحببنا التسرع اليك والى المسلمين بما يسرُّك ويسرهم ، ثم انصرف راجعاً ونحن معه ، فلقيه رجل فقال : يا امير المؤمنين انطلق معي فخذ لي حقي من فلان فإنه ظلمني . فرفع الدرة وضرب بها رأسه وقال : تدعون عمر وهو معترض لكم حتى اذا شغل بأمرٍ من امور المسلمين أتيتموه فانصرف الرجل وهو يتذمّر .

فقال عمر : علي بالرجل ، فلما جاء ألقى اليه بالدرة فقال : اضربني كما ضربتك ! قال : لا ولكن ادعه الله ولك .

قال : ليس كذلك ، فاما ان تدعه لله واما ان تدعها لي .

– اذن ادعها لله . فصرفه، ثم اقبل يمشي حتى دخل منزله ونحن معه وافتتح الصلاة فصلى ركعتين ثم جلس فقال يخاطب نفسه : يا ابن الخطاب . كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالًّا فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب المسلمين فجاء اليك برجل يستغيث بك فضربته فما تقول لربك غداً اذا أتيته ؟! وجعل يعاتب نفسه وهو يبكي ..

شدته في الحق :

استعمل عمر رجلا من قريش على عمل له فبلغه انه قال :

اسقني شربة الذّ عليها واسقِ بالله مثلها ابن هشام

فاستدعاه اليه وقيل للرجل انه استدعاه من اجل هذا البيت ، فلما قدم عليه قال : ألست القائل ؟

اسقني شربة الذّ عليهـا واسقِ بالله مثلها ابن هشام

قال : نعم يا امير المؤمنين .

عسلاً بارداً بماء سحاب انني ما أحب شرب المدام

قال : ارجع اذن الى عملك .

وكان يقول : اذا ظلم عامل لي احداً فبلغتني مظلمته ولم اغيرها فأنا ظلمته .

قيل ، انه كان يوماً جالساً مع اصحابه فمرّ به رجل فقال له : ويل لـك يا عمر من النار ... فقال احد الرجال : اضربه يا أمير المؤمنين .

فقال علي بن ابي طالب : بل اسأله عن امره . فدعاه قائلاً : في أي شيء استحققت هذا منك ؟

قال : تستعمل العامل وتشترط عليه شروطاً ثم تنسى شروطه .

– وما ذاك ؟ قال عاملك في بلد «كذا» اشترطت عليه شروطاً فترك ما أمرته به ، ونسي ما نهيته عنه .. انه يركب دابة ويلبس رقيقاً ويأكل نقياً ويغلق بابه عن حاجات الناس وما يصلحهم .

فبعث عمر رجلين وقال لهما : اذهبا واسألا عنه فان كان هذا الرجل قد كذب عليه فاعلماني وان كان قد صدق فلا تدعاه حتى تأتياني به .

فسألا عنه فوجدا الرجل قد صدق ، فاستأذنا عليه فلم يأذن لهما .

فقال لحاجبه : ليخرجنّ الينا او لنحرقنّ بابه .

فلما خبره الحاجب خرج اليهما فقالا له : انا رسولا عمر اليك .

قال : ان لنا حاجة نتزود ..

قالا : ما انت بالذي تأتي اهلك .. اذهب معنا الساعة . وعاد الثلاثة حتى أتوا عمر ، فسلم عليه الرجل ، فقال : من انت ويلك ؟

قال : عاملك على بلد «كذا» .

وكان رجلاً بدوياً ، فلما وفرت له اسباب الرفاه في ولايته ، ابيضّ وسمن .

فقال عمر : استعملتك واشترطت عليك شروطاً فتركت ما أمرتك بـه وانتهكت ما نهيتك عنه اما والله لأعاقبنك عقوبة لا طاقة لك بها .

وقال لغلمانه : إئتوني بدراعةمن كساء وعصا وثلاثمائة شاة من شاء الصدقة، فأتوه بما طلب ، فقال له :

إلبس هذه الدراعة فقد رأيت اباك وهي خير من دراعته ، وخذ هذه العصا فهي خير من عصاه.. واذهب بهذه الشاء فارعها في مكان كذا ولا تمنع الناس من ألبانها .. فضرب بنفسه الارض بين يديه وقال :

ما استطيع ذلك فان شئت فاضرب عنقي . قال : فان رددتك فأي رجل تكون ؟ — لا ترى الا ما تحب يا أمير المؤمنين .

فردّه فكان خير عامل . وكتب الى عماله يقول لهم :

اعلموا انه لا حلم احب الى الله تعالى ولا أعمّ من حلم امام ورفقه ، وانـه ليس جهل أبغض الى الله من جهل امام وخرقه .

وكان يقول : لئن عشت ان شاء الله لأسيرن في الرعية عاماً ، اني اعلم ان للناس حاجات تقطع عني آمالهم فلا يصلون اليّ واما عمالهم فلا يرفعونها اليّ ، فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم اسير الى مصر فأقيم بهـا شهرين ، ثم اسير الى البحرين فأمكث بها شهرين ، ثم اسير الى الكوفة والبصرة فأقيم بكل بلد شهرين حتى اضع الحق في موضعه واضع يدي على الظالم ..

بعض رسائله :

كتب عمر الى عتبة بن فرقد وهو باذربيجان :

يا عتبة بن فرقد ، اياكم والتنعم وزي أهـل الشرك ، ولبس الحرير ، فان رسول الله ﷺ نهانا عن ذلك . وكتب الى ابي موسى الأشعري :

اما بعد فان اسعد الرعاة من سعدت به رعيته ،وان أشقى الرعاة عند اللهمن شقيت بـه الرعية ، فاياك ان تزيغ فيزيغ عمالك ، فيكون مثلك مثل البهيمة نظرت الى خضرة الارض فرعت فيهـا تبغي بذلك السمن وانما حتفها في سمنهـا والسلام عليك ..

وكتب اليه : من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شأنه الله . ثم كتب اليه :

لا تؤخر عمل اليوم لغد فتتدارك عليك الاعمال فتضيع ، فان للناس نفرة عن سلطانهم ، اعوذ بالله ان تدركني واياك ضغائن محمولة واهواء متبعة .

وكتب الى آخر :

حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة فان من حاسب نفسه في الرخاء عاد مرجعه الى الغبطة ، ومن ألهته حياته وشغلته الاهواء عاد امره الى الندامة والحسرة ، فتذكر ما توعظ به ، لكي ما تنهي عما تنهى عنه .

وكتب الى ابي عبيدة :

اما بعد فالزم بعض خصال ، يسلم لك دينك ، اذا حضرك الخصمان فعليك بالبينات العدول والايمان القاطعة ، ثم ادن الضعيف حتى ينشط لسانه ويجترىء قلبه ، وتعاهد الغريب فانه اذا طال مكثه ترك حاجته وانصرف الى أهله ، واحرص على الصلح ما لم يتبين لك القضاء ، والسلام .

ومن أحسن ما يروى ، ان رجلاً من اهل المدينة كان لا يزال يهدي الى عمر فخذ جزور ، الى ان جاء يوماً بخصم فقال : يا أمير المؤمنين ، اقض بيننا قضاء فصلا كما يفصل الفخذ من سائر الجزور ..

وكان علي بن أبي طالب حاضراً ، فما زال يرددها حتى خاف عمر على نفسه. فقضى عليه ثم كتب الى عماله : اما بعد فاياكم والهدايا فانها من الرشوة .

وكتب الى معاوية بن ابي سفيان :

اما بعد فالزم الحق ، ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضى الا بالحق ، والسلام .

حلم عمر :

قيل : قدم عيينة بن حصن ، بن حذيفة بن بدر ، فنزل على ابن اخيه الحر بن قيس في المدينة ، وكان الحر من المقربين الى عمر ، فقال عيينة لابن أخيه : هل

لك وجه على هذا الأمير فتستأذن عليه .

قال : نعم ، واستأذن له فدخل ، فلما مثل عينية بين يديه قال : يا ابن الخطاب ، ما تعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل !!

فغضب عمر حتى همّ بان يعاقبه .

فقال الحرّ : يا أمير المؤمنين ان الله تعالى قال لنبيه عليه السلام : خذ العفو ومر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين . وان هذا من الجاهلين ..

فلما سمع عمر كلام الله ، رضي ونسي ما كان همّ به !

وقيل : أتى عمر ببرود « ثياب » فقسمها بين المهاجرين والانصار ، وكان فيها برد فاخر فقال لرجال مجلسه : ان أعطيته أحداً منهم غضب أصحابه ورأوا اني فضلته عليهم ، فدلوني على فتى من قريش نشأ نشأة حسنة اعطيه إياه .

فذكروا له المسور بن مخرمة ، فدفعه اليه ، فرآه سعد بن ابي وقاص على المسور ، فقال له : ما هذا ؟ قال : كسانيه أمير المؤمنين .

فجاء سعد الى عمر فقال : تكسوني هذا البرد وتكسو ابن أخي المسور أفضل منه ؟

قال : يا أبا اسحق اني كرهت ان أعطيه أحداً منكم فيغضب أصحابه فأعطيته فتى نشأ نشأة حسنة لا يتوهم فيه اني أفضّله عليكم .

فقال سعد : اني قد حلفت لأضربنّ بالبرد الذي أعطيتني رأسك !!

فحنى عمر رأسه وقال : عندك يا أبا اسحق وليرفق الشيخ بالشيخ !!

ورعه وخوفه من الله :

اشترى عبدالله بن عمر إبلاً وبعث بها الى الحمى .

فلما سمنت أتوا بها المدينة وجعلوها في سوق البيع .

ودخل عمر السوق ، فرأى إبلاً سماناً فقال : لمن هذه الابل ؟

قالوا : لابنك عبدالله .

فجعل يقول : يا عبدالله بن عمر أمير المؤمنين ..

فأتاه ابنه فقال : ما بالك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما هذه الابل ؟

– إبل اشتريتها وبعثت بها الى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون .

فقـــال : ارعوا ابل ابن امير المؤمنين .. اسقوا إبل ابن امير المؤمنين .. يا عبدالله بن عمر .. خذ من ثمنها رأس مالك واجعل الباقي في بيت مال المسلمين ..

وهذا مثل آخر :

شهد عبدالله بن عمر فتح جلولاء ، التي مرّ ذكرها ، فابتاع من الغنائم باربعين الفاً ، وقدم بها المدينة . فقال له أبوه : ما هذا ؟

قال : ابتعت من الغنائم باربعين الفاً .

فقال : يا عبدالله لو انطلق بي الى النار كنت مفتدي ؟

– نعم ، بكل ما أملك .

قال : كأني بك تبايع بجلولاء والناس يقولون: هذا عبدالله ابن امير المؤمنين وأكرم اهله عليه ، فارخصوا ولا تغلوا عليه ..! اني سأعطيك من الربح أفضل ما ربح رجل من قريش ..!

ودعا بالتجار بعد أيام فباعهم متاعاً باربعمائة الف ، فاعطى ولده رأس ماله وهو ثمانون الفاً،وأرسل ثلاثمائة وعشرين الفاً الى سعد بن أبي وقاص عامله على أرض العجم يومئذ وكتب اليه : اقسم هذا المال فيمن شهد جلولاء ، فان كان قد مات أحد منهم فابعث بنصيبه الى ورثته !!

ويروى : ان علياً رأى عمر على جمل له ، فقال: اين تذهب يا امير المؤمنين ؟

قال : بعير ضاع من إبل الصدقة أطلبه .

فقال علي : لقد اذللت الخلفاء بعدك .

قال : لا تلمني يا ابا الحسن فوالذي بعث محمداً بالنبوءة لو ان جدياً مات على شاطيء الفرات ضائعاً لظننت ان الله سائلي عنه يوم القيامة !

وقال ابو سلامة وهو من رجال عمر : انتهيت الى امير المؤمنين وهو يضرب رجالاً ونساء في الحرم على حوض يتوضأون منه حتى فرّق بينهم .

فلما رآني قال يا أبا سلامة .. قلت : لبيك يا امير المؤمنين .

– ألم آمرك ان تتخذ حياضاً للرجال وحياضاً للنساء ؟..

ثم اندفع وهو لا يلتفت الى الوراء .

فلقي علياً فقال له : اخاف ان اكون قد هلكت !!

قال : وما أهلك ؟ قال : ضربت رجالاً ونساء في حرم الله عز وجل .

قال : يا أمير المؤمنين . انت راع من الرعاة ، فـان كنت ضربتهم على نصح واصلاح فلن يعاقبك الله ، وان كنت ضربتهم على غش فانت الظالم المجرم !!..

وكان ، عندما توقد له النار ، يدني يده منها ويقول : يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر !!.. وكان يقول :

ليتني كنت كبش اهلي ، سمنوني ما بدا لهم ، حتى اذا كنت اسمن مـــا يكون ، زارهم بعض من يحبون فجعلوا بعضي شواء وبعضي قديداً ثم اكلوني ، ولم أكُ بشراً .. وصنع له في الشام طعام لم ير قبله مثله . فلما أُتي به قال :

هذا لنا فما لفقراء المسلمين والذين ماتوا لا يشبعون من خبز الشعير ؟

فاجابه خالد بن الوليد قائلاً : لهم الجنة .

فاغرورقت عينا عمر وقال : ان كان حظنا في هذا ، ويذهب اولئك بالجنة ، فقد بانوا بونا بعيداً .

قيل : بعث سعد بن ابي وقاص ، ايام الفتوح في فارس ، بقبـــاء كسرى ، وسيفه ومنطقته وقميصه وتاجه وخفـّيه ، الى المدينة .

فجعل عمر ينظر الى القوم وكان أجسمهم وأمدّهم قامة سراقة بن مالك.

فقال له : يا سراقة ، قم فالبس . فقام فلبس ، فقال له : ادبر ، فأدبر ، ثم قال : أقبل ، فأقبل ، فقال : بخ بخ اعرابي من بني مدلج عليه قبـــاء كسرى وسيفه ومنطقته ، وتاجه ، وخفـّاه !! ربّ يوم يا سراق بن مالك لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى كان شرفاً لك ولقومك .. انزع .

فنزع ، فقال : اللهمّ انك منعت هذا رسولك ونبيك وكان أحبّ اليـــك وأكرم عليك مني ، ومنعته ابا بكر وكان أحب اليك واكرم عليك مني ، ثم أعطيتنيه ، فأعوذ بك ان تكون اعطيتنيه لتمكر بي .

ثم بكى حتى رحمه من كان عنده . وكان لشدة خوفه من الله يسأل النـاس عن نفسه . قال يوماً لأحد جلسائه :

نشدتك بالله وبحق الولاية عليك كيف تراني ؟ قال : ما علمت الا خيراً .

فنشده بالله مرة ثانية . فقـال : ان اخذت فيء الله فقسمته بالحق فانت انت ، والا فلا .

فقال : ان الله ليعلم ، مـا آخذ الا حصتي ، ولا آكل الا وجبتي ، ولا البس الا حلـّتي ..

أخلاقه وكلامه في الزهد :

من أقواله :

حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل ان توزنوا ، فانه أهون عليكم في الحساب غداً ان تحاسبوا انفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الاكبر ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية .

ومرّ يوماً بمزبلة فوقف عندها وكان أصحابه قد تأذّوا بها ، فقال : هـذه دنياكم التي تحرصون عليها !! ومن أقواله للأحنف بن قيس :

يا أحنف ، من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن اكثر من شيء عُرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه . ومنها :

من عرّض نفسه للتهمة فلا يلومنّ من أساء بـه الظن ، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده ، ضع امر أخيك على احسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك شراً وأنت تجد لها في الخير محملا ، وما كافأت من عصى الله فيك بمثل ان تطيع الله فيه ، وعليك باخوان الصدق فكثّر في اكتسابهم فانهم زين في الرخاء وعدّة عند عظيم البلاء .

وقال : اني لأعلم اجود الناس ، وأحلم الناس .

فقيل له : من هما يا امير المؤمنين ؟

قال : اجود الناس من اعطى من حرمه ، واحلم الناس من عفا عمن ظلمه ..

وقالوا : ان عمر لم يقطع امراً الا تمثل ببيت من الشعر .

قيل انه حجّ في احد الاعوام ، فلما كان بموضع يقال له « ضحنان » قال :

لا إله الا الله العظيم المعطي ما شاء لمن يشاء .. كنت ارعى إبـــل ابي الخطاب ، بهـــذا الوادي في مدرعة صوف ، وكان فظاً يتعبني اذا عملت ، ويضربني اذا قصرت ، وقد أمسيت الان وليس بيني وبين الله احد ! ثم تمثل :

لا شيء فيما يرى تبقى بشاشته	يبقى الاله ويودي المـال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنـه	والخلدقد حاولت عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان اذ تجري الرياح له	والانس والجن فيما بينهـا تلد
اين الملوك التي كانت نوافلهـا	من كل أوب اليها راكب يفـد
حوضاً هنالك موروداً بلا كذب	لا بد من ورده يوماً ، كما وردوا

وقال في صباح احد الأيام : والله لا ادري أخليفة انا ام ملك .. فان كنت ملكاً فهذا امر عظيم .

فقال قائل : ان بينهما فرقاً يا أمير المؤمنين . ــ وما هو ؟

ــ الخليفة لا يأخذ الا حقاً ، ولا يضعه الا في حق ، وانت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا ، فسكت ولم يقل كلمة .

قال وسق الرومي :

كنت مملوكاً لعمر بن الخطاب وكان يقول لي : اسلم فانك ان اسلمت استعنت بك على امانة المسلمين فانه لا ينبغي ان استعين بمن ليس منهم .

فأبيت ، فقال : لا إكراه في الدين .

فلما حضرته الوفاة عتقني وقال لي : اذهب الى حيث شئت !

قال عبدالله بن عباس :

كان عمر بن الخطاب وبعض اصحابه يتذاكرون الشعر ، فقـال بعضهم فلان أشعر وقال بعضهم بل فلان أشعر .

فأقبلت ، فقال عمر : قد جاءكم أعلم الناس بها .. قل يا ابن عباس من هو شاعر

الشعراء ؟ قلت : زهير بن ابي سلمى .

فقال : هلّ من شعره ما نستدل به على ما ذكرت .

فقلت : امتدح قوماً من بني عبدالله بن غطفان فقال :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بأوّلهم أو مجـدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حـين تنسبهم   طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
انسٌ اذا أمنوا جنٌ اذا فزعـوا   مرزّؤون بهـا ليل اذا حشدوا
محسّدون على مـا كان من نعم   لا ينزع الله منهم مـاله ُحسدوا

فقال عمر :

أحسن وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحي من بني هـاشم لفضل رسول الله وقرابته منهم .

مقتل عمر :

خطب عمر يوم جمعة من شهر ذي الحجة ، قال : رأيت رؤيا لا أراهـا الا بحضور أجلي .. رأيت كأن ديكاً نقرني نقرتين ..

ثم قال : وان النـاس يأمرونني بأن أستخلف ، وان الله عز وجل لم يكن ليضيع دينه وخلافته التي بعث بها نبيه ﷺ ، فان تعجل بي أمر ، فان الشورى بين هؤلاء الستة الذين مـات النبي وهو عنهم راضٍ فمن بايعتم منهم فاسمعوا له وأطيعوا .

« الستة الذين ذكرهم ، هم علي ، وعثمان بن عفان ، وطلحة ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف » .

وكان المغيرة بن شعبة ، عامل الكوفة ، قد كتب الى عمر يستأذنه في ان يدخل المدينة ، غلام له يقال له ابو لؤلؤة .

وكان أبو لؤلؤة من المجوس ، وقد ضرب عليه المغيرة خراجاً يدفعه كل شهر .

فبينا عمر يطوف في السوق يوم السبت ، لقيه ابو لؤلؤة فقال : يا أمير المؤمنين لقد ظلمني المغيرة بن شعبة فان عليّ خراجاً كثيراً . قال : وكم خراجك ؟

– درهمان كل يوم . – وما هي صناعتك ؟ قال : نجار، نقاش ، حداد .
قال : ما خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال .
فانصرف الرجل ساخطاً وهو يتذمّر، ثم مرّ به في ذلك اليوم فدعاه فقال:
بلغني انك تقول لو أردت ان أعمل رحًى تطحن بالريح، لفعلت ..
قال : نعم . قال : فاعمل لي رحًى .
فقال : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ..
قالها والغضب في عينيه ..
فلما ولّى ، أقبل عمر على اصحابه قائلاً : لقد توعدني العبد آنفاً ..
ومرّت ثلاثة ايام وقد نسي عمر أبا لؤلؤة وغضبه. ولكن أبا لؤلؤة لم ينسَ.
فقد اشترى خنجراً له رأسان ، نصابه في وسطه ، وأعدّه لتلك الساعة الرهيبة التي يثب فيها ، كما يثب الذئب ، ليطعن امير المؤمنين .
وكان يعلم ان عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر، وهو يوكل بالصفوف رجالاً، فاذا استوت هذه الصفوف ، جاء هو فكبّر .
فلما كان يوم الاربعاء ، لأربع ليال بقيت من شهر ذي الحجة ، في السنة الثالثة والعشرين ، خرج عمر عند الفجر يوقظ الناس للصلاة .
ثم تقدمهم الى المسجد وأبو لؤلؤة في زاوية من زواياه ، والموت يلمع على رأسي خنجره ، ويداه ترتجفان .. وشفتاه تضطربان ..
وامير المؤمنين يمشي هادئاً ليخاطب الله عز وجل .
فوثب اللعين فطعنه ثلاث طعنات، احداهنّ تحت سرّته وهي الطعنة القاتلة، ثم انثنى الى اهل المسجد يطعن من يليه حتى طعن أحد عشر رجلاً !!
وكان كليب بن بكير الليثي وراء عمر ، فسقط قتيلاً مضرجاً بدمه .. فلما وجد عمر حرّ السلاح سقط وقال : أفي الناس عبد الرحمن بن عوف ؟
قالوا : نعم يا أمير المؤمنين . قال : تقدم يا عبد الرحمن فصلّ بالناس .
فصلى عبد الرحمن ، وعمر طريح ، وقد أُغمي عليه، وكان ابو لؤلؤة قد قتل نفسه . فحمل ابن عباس ، مع بعض الرجال ، عمر بن الخطاب الى داره ،

والناس في المسجد ، ينكرون صوت عبد الرحمن وهم لا يعلمون ان امير المؤمنين قد طعن .

ولم يزل عمر في غشيته حتى تنفس الصبح ، ففتح عينيه وجعـــل ينظر الى الوجوه ثم قال : أُصلـّيَ بالناس ؟ فقال ابن عباس : نعم .

قال : لا اسلام لمن ترك الصلاة .

ثم دعا بوضوء ، فتوضأ ، ثم صلى ، ثم قال : اخرج يا ابن العبـــاس فانظر من قتلني !

فخرج حتى فتح باب الدار فاذا النــــاس مجتمعون ، فقال : من طعن امير المؤمنين ? قالو : طعنه عدو الله ابو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة .

فدخل ، وعمر ينظر اليه ليسمع خبره ، فقال : أرسلني امير المؤمنين لأسأل من قتله ? — أجل .

قال : كلمت النــاس فزعموا انه طعنه ابو لؤلؤة غلام المغيرة ، ثم طعن معه أحد عشر رجلاً ثم انتحر ، واجتزّ عبد الرحمن بن عوف رأسه .

فقال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة .

« وهو يعني ان القاتل لم يكن مسلما » .

ثم سمعوه يقول : أرسلوا الى طبيب ينظر الى جرحي هذا .

فدعي طبيب من بني الحارث بن كعب فسقاه نبيذاً ، فخرج النبيذ من موضع الطعنة التي تحت السرّة فظنوا انه دم .

ثم دُعي طبيب آخر من بني معاوية الانصــار ، فسقاه لبناً فخرج اللبن من الجرح أبيض ، فقــال الطبيب : اعهد يا أمير المؤمنين . ومعنى ذلك ان ساعته قد دنت . فقال : صدقني أخو بني معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبتك .

فبكى القوم حين سمعوا قوله ، فقال : لا تبكوا علينا .. من كان باكيـــاً فليخرج .. ألم تسمعوا ما قال رسول الله : ان الميت يعذّب ببكاء أهله عليه ..

ثم قال : طعنني ابو لؤلؤة وكنت أظن انه كلبٌ حتى طعنني الثالثة.. تعالَ يا عبدالله . فدنا ولده عبدالله منه ، فقال له : انظر ما عليّ من الدين .

فحسبوا دينه فاذا هو ستة وثمانون ألفاً او نحوه ، فقال : ان وفى مال آل عمر هذا الدين ، فأدّه من اموالهم ، والا فسل في بني عـدي بن كعب ، فإن لم تفِ اموالهم فسل في قريش ... انطلق الى عائشة ام المؤمنين فقل لها : يقرأ عليكِ عمر السلام ، ولا تقل امير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين امـيراً ، ويستأذن ان يدفن في بيتك مع النبي وابي بكر .

فخرج عبدالله حتى اتى عائشة وهي قاعدة تبكي ، فقال : يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه .

قالت : كنت اريد هذا الامر لنفسي .

فانثنى راجعاً الى منزل أبيه ، فلما أقبل قال عمر : ارفعوني .

فاسنده رجل اليه ، فقال : ما لديك يا عبدالله ؟

قال : الذي تحب يا امير المؤمنين .. لقد أذنت .

قال : الحمد لله ، ما كان شيء أحبُ اليّ من هـذا . فإذا لفظت الروح فاحملوني الى قبر النبي ، فإن اذنت في الدفن فادخلوني ، وان أبت فردوني الى مقابر المسلمين .

ثم جاءت ام المؤمنين حفصة والنساء تسير خلفها فبكت عنده ساعة .

ثم استأذن الرجال فقالوا : اوص يا أمير المؤمنين واستخلف .

قال : ما احد احقُّ بهذا الامر من هـؤلاء النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ .

وسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن ، ثم قال : فـإن اخترتم سعداً فهو ذاك ، ، والا فليستعن به الخليفة الذي تختارونه فاني لم اعزله من عجز وخيانة ، وقال :

اوصى الخليفة بعدي بالمهاجرين الاولـين ان يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم واوصيه بالانصار ان يحسن الى محسنهم ويعفوعن مسيئهم واوصيهم باهل الامصار خيراً فإنهم ردء الاسلام وحياة الملك ، وغيظ العدو واوصيه بالاعراب فإنهم اصل العرب ومادة الاسلام ان يؤخذ من صدقاتهم حقها فتوضع في فقرائهم ،

واوصيه بذمة الرسول ان يوفي لهم بعهدهم ولا يكلفهم الا طاقتهم ... ثم قال :
أللهمّ لقد تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة .

وأقبل القوم يثنون عليه ويودعونه ، ثم قال عبدالله بن عباس :

ابشر يا امير المؤمنين فان الله مصّر بك الامصار ، ودفع بك النفاق، وأفشى بك الرزق ووالله ما رأيت عيناً تطرف من خلق الله ذكراً كان او انثى الا باكية عليك . فأجابه قائلاً : أفي الامارة تثني عليّ يا ابن عباس ؟ قال: وفي غيرها.

قال : والذي نفسي بيده لوددت اني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزر ، ولو كان لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطّلع.

ولِمَ يا امير المؤمنين ؟ فوالله لقد كان اسلامك عزاً ، وامارتك فتحاً ، ولقد ملأت الارض عدلاً ، وما قتلت مظلوماً .

قال : تشهد لي بذلك عند الله يوم القيامة ؟ فتردد في الجواب .

فقال علي بن ابي طالب : نعم يا امير المؤمنين نشهد لك بذلك عند الله.

قال : ادنُ يا علي .

فدنا منه فقال . لعل هؤلاء القوم يعرفون حقك وقرابتك من رسول الله وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم ، فان وليت هذا الامر فاتق الله فيه ..

ثم دعا عثمان فقال : يا عثمان لعل هؤلاء القوم ان يعرفوا لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك فان وليت هذا الامر فاتقِ الله .

فارتفعت الاصوات عندئذ : استخلف يا امير المؤمنين .

«اي انهم طلبوا اليه ان يسمي خليفته» .

فقال : من استخلف ؟ لو كان ابو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ، فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقول : انه أمين هذه الأمة .

ولو كان سالم مولى ابي حذيفة حياً لاستخلفته ، فان سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقول ان سالماً شديد الحب لله .

فقال أحدهم : ادلك على رجل تجعله خليفة لك ؟ قال : من هو ؟

— هو ابنك عبدالله !!

فقال : قاتلك الله والله ما اردت الله بهذا القول ، كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ، لا أرب لنا في اموركم ولا رغبة لي فيها لأحد من أهل بيتي . ان كان خيراً فقد أصبنا منه ، وان كان شراً فشر ، حسب آل عمران يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد .

فخرجوا ثم رجعوا وهم يقولون : يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً .

قال : لقد فكرت بعد خروجكم في أن اسمي رجلا هو اجدر الرجال بان يحملكم على الحق . وأشار الى علي .

ولكني عدلت فما أريــــد ان أتحملها حياً وميتاً ، وعليكم بهؤلاء الرجال الذين قال رسول الله انهم من أهل الجنة .

عليّ وعثمان ابنا عبد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ، والزبير ابن العوام حواريّ الرسول وابن عمته ، وطلحة الخـير بن عبيد الله ، فليختاروا منهم رجلا ، فاذا ولوّا والياً فأحسنوا مؤازرته وأعينوه ، وان ائتمن احــداً منكم فليؤدّ اليه امانته ، فخرجوا وكان العباس يقول لعلي : لا تدخل معهم .

فقال : أكره الخلاف . ـ إذن ترى غداً ما لا تحب ..

وقضى امير المؤمنين ليلته وهو يوصي بنيه .

فلما أصبح ، دعا علياً وعثمان ، وسعداً وعبد الرحمن ، والزبير بن العوام ، وكان طلحة غائباً فقال :

اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر الا فيكم وقد توفي رسول الله وهو عنكم راضٍ ، واني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكني اخاف اختلافكم فيختلف الناس ..

انهضوا الى حجرة عائشة باذن منها فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم .

ثم قال : لا ، لا تدخلوا حجرة عائشة ولكن كونوا قريباً .

ووضع رأسه وقد نزفه الدم .

فدخلوا يتشاورون ، ثم ارتفعت اصواتهم ، فقال عبدالله بن عمر :

سبحان الله ان أمير المؤمنين لم يمت بعد .

وسمع عمر فقال : اعرضوا عن هـذا اليوم ، فاذا مت فلتشاوروا ثلاثـة ايام وليصلّ بالناس صهيب ولا يأتينّ اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم . ويحضر ابني عبدالله مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم ، فان قدم في الايام الثلاثة فأحضروه أمركم، وان مضت الايام الثلاثة قبل مجيئه فامضوا فيما انتم فيه.

وتنهد قائلاً : من يضمن لي رضى طلحة ؟

فقال سعد : انا اضمنه وهو لا يخالف ان شاء الله .

فالتفت عندئذ الى أبي طلحة الانصاري وقال له :

ان الله عز وجل طالما أعز الاسلام بكم ، فاختـر خمسين رجلا من الانصار فاستحث هؤلاء الرجال ان يختاروا رجلا منهم .

وقال للمقداد بن الأسود : اذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرجال في بيت حتى يختاروا رجلا منهم ..

وقال لصهيب : صلّ بالناس ثلاثة أيام ، واجمع علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبدالرحمن بن عوف ، وطلحة ، اذا حضر ، وليكن ابني عبدالله معهم دون ان يكون له من الأمر شيء ، وقم على رؤوسهم .

فان اجتمع خمسة منهم واختاروا رجلا،وأبى واحد،فاشدخ رأسه بالسيف، وان اتفق اربعة فاختاروا واحداً وأبى اثنان فاضرب رأسيهما ، فـان اختاروا ثلاثة رجلاً ، واختـــار الثلاثة الآخرون رجلاً آخر ، فحكـّموا ابني عبدالله ، فأي الفريقين حكم له فليختاروا الخليفة منه ، وان لم يرضوا بحكم عبدالله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف .

فخرجوا ، فقال علي للعباس : لقد عدلت الامارة عنا .

قال : ومن أين عرفت ذلك ؟

– من كلام أمير المؤمنين، لقد قال : كونوا اذا اختلفتم مع حزب عبدالرحمن ابن عوف .. فسعد لا يخـالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فسيوليها عبد الرحمن عثمان ، او يوليها عثمان عبد الرحمن ولو كان الآخران معي لم ينفعاني .

فقال العباس : لم أنصح لك بشيء الا رجعت إليّ مستأخراً ، بمــا أكره ، أشرت عليك عند وفاة رسول الله ان تسأله عن قضية الخلافة، فأبيت ، وأشرت عليك بعد وفاته ان تعــاجل الامر فأبيت ، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى ان لا تدخل معهم فأبيت ، فاحفظ عني الآن واحدة . — ما هي ؟

— هي ان لا ترضى بما يقوله القوم الا ان يولوك ، واحذر هؤلاء الرجال فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن الخلافة حتى يقوم بها غيرنا .

وكان عمر في تلك الساعة قد رأى شبح الموت فقال لابنه عبدالله وكان رأسه على صدره : ضع خدي على الارض يا بني .

فظن عبدالله ان أباه يهذي ، فلم يفعل .

ولكن عمر قالها مرة اخرى : ضع خدي على الارض يا بني .

فلم يفعل ، وتظاهر بأنه لم يسمع .

فارتفع صوت الخليفة المائت يقول : ضع خدي على الارض .

فعرف عندئذ انه يريد ذلك ، ولم يمنعــه هو ان يضعه ، الا عجزه وضعفه ، فتراجع عبدالله ، ووضع رأس أبيه حيث أراد .

فمد القوم أعناقهم فرأوا لحية الخليفة العظيم تلامس التراب .. ثم رأوا الدموع تتلألأ في عينيه .. فحبست الأنفاس ، ثم أرسلت الزفرات .

ولم تكن غير لحظة ، حتى قال قائل : اسمعوا فأمير المؤمنين يتكلم .

وكانت شفتا الخليفة ترتجفان .. ثم سمعوه يقول :

ويلي وويل امي ان لم يغفر الله لي ..

وظل يرددها وصوته ينخفض حتى فاضت روحه ..

فبكته العرب كأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل عمر ، وبكاه العدل ، والزهد ، والاخلاق ، وردد الاسلام ذلك البكاء ..

الشورى :

مات عمر يوم الخميس ، في أواخر شهر ذي الحجة ، من السنة الثالثة والعشرين ، كما مرّ . وكانت ولايته عشر سنين وخمسة اشهر واحدى وعشرين ليلة .

واختلفوا في سنه يوم موته على ثمانية أقوال ، أحدها ثلاث وستون سنة ، وأحدها احدى وستون سنة ، الى غير ذلك من الأقوال .

فلما أُخرجت جنازته ، تصدّى علي وعثمان ليصليا عليه .

فقال عبد الرحمن بن عوف :

كلا كما يحب السلطان .. لستما من هذا في شيء .. هذا الى صهيب ، وقد استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على امام .

فصلى صهيب ثم دفن ذلك الرجل العادل البار ، ولم يجعلوا بين خده وبين الارض شيئاً ، وتلك كانت وصيته .

فجمع المقداد بن الأسود اهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة ، وقيل في بيت المال وقيل في حجرة عائشة ، باذنها ، وهم خمسة ، معهم عبدالله بن عمر .

وكان طلحة غائباً ، وأمروا أبا طلحة بأن يكون حاجباً ..

فجاء عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، فجلسا بالباب .

فانتهرهما سعد بن ابي وقاص وهو يقول : تريدان ان تقولا : كنا في اهل الشورى . ثم تنافس القوم وكثر الكلام بينهم .

فقال أبو طلحة : والذي ذهب بنفس عمر لا ازيدكم على الايام الثلاثة التي أمر بها أمير المؤمنين ثم اجلس في بيتي فانظر ما تصنعون، فقال عبدالرحمن بن عوف : أيكم يطيب له ان يخرج نفسه من هذا الأمر ويولّيه غيره ؟

فلم يجبه أحد .. فقال : أنا أخلع نفسي منه ..

فقال عثمان : انا أول من رضي فاني سمعت رسول الله يقول : أمين في الارض أمين في السماء ، فقال القوم : قد رضينا .

وعلي بن ابي طالب ساكت ، فقال له عبدالرحمن : ما تقول يا أبا الحسن ؟

قال : أعطني عهداً انك تؤثر الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تترك حق الأمة .

قال : اعطوني عهداً على ان تكونوا معي على من بدّل وغيّر وان ترضوا من اخترت لكم ،عليَّ ميثاق الله ان لا أخص ذا رحم لرحمه «أي ذا قرابة لقرابته»

ولا أترك حق المسلمين ، فأعطوه عندئذ عهودهم .

فدعا علياً وهامسه قائلا : تقول في نفسك انك أحق من حضر بالخلافة ، لقرابتك من رسول الله وحسن أثرك في الدين ، ولكن ، لو صرف هذا الأمر عنك ولم يجعلك امير المؤمنين في أهل الشورى فمن كنت ترى، من هؤلاء الرجال أحق بالخلافة ؟ قال : عثمان . فدعا عثمان فقال له :

تقول في نفسك انك شيخ من بني عبد مناف ، وصهر رسول الله ، ولك سابقة وفضل ، ولكن لو لم تحضر فأي هؤلاء الرجال تراه أحقّ بالأمر ؟

قال : عليّ. ثم دخلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلّم به عثمان وعلياً ، فقال الزبير عثمان .. ولعل علياً سمع ما قاله سعد ، فقال له والقوم لا يسمعون :

اتقوا الله ان الله كان عليكم رقيباً ، أسألك بقرابتي من رسول الله ، وقرابة عمي حمزة منك ان لا تكون مع عبدالرحمان لعثمان ، عوناً عليّ .

ودار عبدالرحمن بن عوف لياليه يلقى أصحاب رسول الله ، ومن بالمدينة من امراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم في الأمر وكلما خلا برجل منهم قال له ذلك الرجل : إخترْ عثمان .

حتي كانت الليلة التي يستكمل في صباحها الأجل المعين ، فأتى منزل المسور بن مخرمة وقد مرّت طائفة من الليل ، وكان المسور نائماً ، فأيقظه قائلا :

أراك نائماً وأنا لم يغمض لي جفن ... انطلق فادعُ علياً وعثمان .

قال : بأيهما ابدأ يا خال ؟ – بأيهما شئت .

فخرج المسور فأتى علياً وكان هواه فيه ، فقال له :

أجب خالي عبد الرحمن . قال : أبعثك الى غيري ؟

– نعم . – الى من ؟ – الى عثمان . – وأيّنا امرك ان تبدأ به ؟

– سألته فقال : بأيهما شئت فبدأت بك لان هواي فيك ..

فخرج عليّ حتى اتى المسجد .

وانصرف المسور الى عثمان فدعاه الى الدهاب ، فقال : بعثك الى غيري ؟

– نعم الى عليّ وعليّ قد انصرف .

فانطلق الاثنان وكان عبد الرحمن في القبلة قائماً يصلي ، فقال للمسور : ادعُ الزبير وسعداً .

ففعل وأقبل الرجلان ، وخلا سعد بعبد الرحمن فقال : يا عبد الرحمن، بايع نفسك وأرحنا ، وأرفع رؤوسنا ، فقال : يا أبا اسحق ، اني قد خلعتُ نفسي منها على ان اختار . ولو لم افعل ، وجعل الخيار اليّ لما اردتها .

«وكان عمرو بن العاص قد لقي علياً وعثمان في ليالي الشورى ، فقال لعلي : ان عبد الرحمن بن عوفَ رجل مجتهد ، فاذا دعاك في المبايعة ، الى العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين فقل انك تسير بالامر على قدر جهدك وعلمك ... قال : ولمَ ذلك ؟

قال : لانه يرغب في الرجل ، الذي يقول مثل هذا .!

وقال لعثمان : ان عبد الرحمن رجل مجتهد وهو لا يبايعك الا اذا كنت ذا عزيمة ، فاذا دعاك ، في المبايعة ، الى العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين فاسمع وأطع» ...

فلما تنفس الصبح ، صلىّ صهيب ، وبعث عبد الرحمن ، الى من بالمدينة ، من المهاجرين وأهل الفضل من الانصار ، والى امراء الاجناد واشراف الناس .

فاجتمعوا حتى غصّ بهم المسجد .

فمشى عبد الرحمن وعليه عمامته التي عممَّه بها رسول الله وهو متقلد سيفه حتى ركبَ المنبر فوقف وقوفاً طويلاً ثم دعا بما لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال :

ايها الناس ، ان اهل الامصار يريدون ان ينصرفوا الى امصارهم بعد ان يعلموا من هو خليفتهم ..

فقال سعيد بن زيد : انا نراك لها أهلاً ..

قال : اشيروا عليَّ بغير هذا .

فقال عمار ابن سميَّة : ان أردت ان لا يختلف المسلمون فبايع علياً .

فقال المقداد بن الاسود : صدق عمّار ان بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا.

قال ابن أبي سرح : ان اردت ان لا تختلف قريش فبايع عثمان .

وقال عبدالله بن أبي ربيعة : صدق ان بايعت عثمان قلنا : سمعنا وأطعنـــا
فشتم عمار ، ابن أبي سرح وقال له : متى كنت تنصح المسلمين .
وتكلم بنو هاشم وبنو امية فقال عمار: ايها الناس ان الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزّنا بدينه فكيف تصرفون هذا الامر عن اهل بيت نبيكم ؟
فقال رجل من بني مخزوم : لقد جاوزت حدّك يا ابن سمية فما انت وتـأمير قريش . فقال سعد بن ابي وقاص : يا عبد الرحمن ، افرغ قبل ان يفتتن الناس..
فقال عبد الرحمن عندئذٍ :
لا تجعلوا أيهـا القوم سبيلاً الى أنفسكم ، اني قد سألتكم سراً وجهراً عن خليفتكم فلم تذكروا لي غير هذين الرجلين ، علي وعثمان ، قم يا عليّ .
فمشى عليّ ووقف تحت المنبر ، فأخذ عبد الرحمن بيده فقال :
هل انت مبايعي على كتـاب الله وسنّة نبيّه وسيرة الخليفتين بعده ابي بكر وعمر ؟ قال : أرجو ان أفعل على قدر طاقتي وعلمي ..
« أي انه عمل باشارة عمرو بن العاص » .
فأرسل عبد الرحمن يده ثم نادى : قم يا عثمان .
فأخذ بيده وهو في الموقف الذي كان فيه علي فقال : هل انت مبـايعي على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال : اللهمّ نعم ..
فرفع رأسه الى سقف المسجد ويده في يد عثمان ثم قال: اللهمّ اسمع واشهد. اللهمّ قد بايعت عثمان .
فقال علي: ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان. انك والله لم تبايع عثمان الا ليردّ الامر أليك .
فقال عبدالرحمن: يا عليّ لا تجعل على نفسك سبيلاً فاني قد نظرت وشاورت.
فقـــال المقداد : ما رأيت مثل ما أُوتي لأهل هذا البيت بعد نبيّهم ، واني لأعجب من قريش تترك رجلاً لا أقول ان أحداً أعلم وأقضى منه بالعدل .
فأجابه قائلاً : يا مقداد ، اتقِ الله فاني خائف عليك الفتنة .
فقال رجل للمقداد : رحمك الله ، من هم أهل البيت ومن هو الرجل ؟ .

قال : اهل البيت بنو عبد المطلب ، والرجل ، علي بن ابي طالب !
وازدحم الناس يبايعون عثمان عند المنبر .

فقعد عبد الرحمن مقعد النبي ، من المنبر ، وأقعد عثمان على الدرجة الثـانية وجعل القوم يبايعونه وقد تردد علي في الامر . فقال عبد الرحمن : ومن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بمـا عاهد عليه فسيؤتيه أجراً عظيما .

وكان عليّ يهمُّ بالذهاب ، فرجع عندئذ يشقّ الناس حتى بايع وهو يقول : خدعة وأيما خدعة !! « يريد بقوله خدعة عمرو بن العاص » . وتقدم عثمان القوم بيت فاطمة الفهرية ، اخت الضحاك بن قيس الفهري ، فجلس والناس معه .

فقام المغيرة بن شعبة فقال لعبد الرحمن: يا أبا محمد قد أصبت اذ بايعت عثمان.
وقال لعثمان : لو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا !! وكان علي جالساً .
فقال عبد الرحمن : كذبت يا أعور لو بايعت غيره لبايعته ..
وقال الفرزدق الشاعر :

صلّى صهيب ثلاثاً ثم أرسلها   على ابن عفان ملكاً غير مقصور
خلافة من أبي بكر لصـاحبه   كانوا أخلّاء ، مهديّ ومأمور

وقدم طلحة بن عبيدالله في ذلك اليوم .
فقيل له : بايع عثمان ، فقال : أكلُّ قريش راضٍ به ? قالوا : نعم .
فأتى عثمان ، فقال له عثمان : ان أبيت رددتها !..
قال : أتردها ? قال : نعم . ــ أكل الناس بايعوك ? ــ نعم .
قال : لقد رضيت فأنا لا أرغب عما قد أجمعوا عليه . وبايعه ، وانتهى الامر .
وقد استقبل عثمان بخلافته شهر المحرم ، سنة ٢٤ للهجرة .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الثمن
٨
ل.ل.